رواد الاستراتيجية الحديثة

الفكر العسكري من مكيافيللي إلى هتلر

الكتاب الثالث

تأليف

إدوارد ميد إيرل وآخرين

ترجمة وتقديم

العميد أركان الحرب

محمد عبد الفتاح إبراهيم

المشتركون في هذا الكتاب الثالث

ممن لم يرد ذكرهم من قبل

چوردون كيريج:

أستاذ مساعد التاريخ بجامعة برنستون. حصل على درجة الليسانس في الأدب ودرجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة برنستون، كما حصل على درجة الليسانس في الآداب من جامعة أكسفورد.

هارڤـي دي وبرد:

ضابط بجيش الولايات المتحدة، المحرر المساعد بمجلة المشاة الأمريكية، مؤلف كتاب (كبار جنود الحربين العالميتين) دكتوراه في الفلسفة من جامعة ميتشيـچان .

هانز سسبير:

مؤلف بالاشتراك مع آخر لكتابي «الحرب في عصرنا الحالي»، «الراديو والشعب الألماني»، أستاذ علم الاجتماع في المدرسة الجديدة للبحوث الاجتماعية، دكتوراه في الفلسفة من جامعة هيدلبرج.

إيرڤنج چيبسون:

الاسم الذي عرف به في ميدان التأليف والكتابة، عالم أمريكي شهد القتال مع وحدات المشاة سنة ١٩١٧ / ١٩١٨، شغل بدراسة التاريخ الحربي لعدة سنوات سابقة مباشرة للحرب العالميةالأولى وتابعة لها.

مصمم الغلاف:

كمال الملاخ: تخرج في قسم العمارة بكلية الفنون الجميلة وعين معيدًا

بها، وشغل في وقت فراغه منصب الناقد الفني لجريدة الأهرام سنة ١٩٥٠، كما عمل رئيسًا للقسم الفني بدار أخبار اليوم سنة ١٩٥٢ .

نال درجة الماجستير في فقه اللغة المصرية القديمة من معهد الدراسات العليا للآثار بجامعة القاهرة.

عين مديرًا لأعمال مصلحة الآثار.

اكتشف مراكب الشمس في صيف سنة ١٩٥٤ .

تفرغ للصحافة عضوًا في مجلس تحرير جريدة الأهرام، وهو المعلق اليومي لها الآن.

محتويات الكتاب الثالث

القسم الرابع

من الحرب العالمية الأولى إلى الحرب العالمية الثانية .

مقدمة

وصل بنا الحديث في التأريخ لرواد الاستراتيـچية الحديثة إلى نهاية الحرب العالمية الأولى وقد اتخذت صورة الحرب طابعًا أمميا جامعًا، ولم يعد القتال وقفًا على الجنود في الميدان فحسب بل تعداهم إلى من يعملون لمد دولاب الحرب، ولمن يلقمون آلة الحرب بما تحتاج إليه من بشر وعتاد.

كان الناس قد بدأوا القتال بالبندقية والسونكي، ثم عرفوا المدافع ذات القذائف الكروية الشكل، وقنعوا بالتطور الصناعي للقذيفة مع ما صحب هذا من تطور في تشكيلات الجند ومن استحداث في تنظيم الوحدات، ولكن لم يلبث الناس أن عرفوا البندقية التي يمكن نزع بعض أجزائها واستبدال غيرها بها، وعرفوا البندقية ذات الخزانة السريعة الطلقات، وكانت المدافع الذاتية الارتداد مع ما صحب هذا من الآلات الدقيقة للقياس والتوجيه، وكانت الرشاشات الآلية الحركة الذاتية التعمير، وعرف الناس المنطاد للمراقبة، وعرفوا الجرار الذي يسير على شرائط لا عجلات فكانت الدبابة، ثم صنعت الطائرة للنقل فكانت قاذفة القنابل المنقضة، وكانت طائرة القتال الأسرع من الصوت، وعرف الناس السفينة التي تمخر عباب البحر فكانت البارجة والطراد والمدمرة، وكانت الغواصة وكان قاذف الطوربيد، وهكذا كانت العقلية الآلية تسيطر على كل شيء، وكانت الظاهرة التي عرفها الناس في الحرب العالمية الأولى ثم سيطرت على كل شيء في فترة ما بين الحربين العالميتين ظاهرة الآلة ذات الاحتراق الداخلي والاستخدام الآلي لكل أسلحة الحرب.

على أن أبرز ما صحب هذه المرحلة من مراحل التطور في استحداث

أسلحة الحرب كان «هو» وضوح آثر العلوم والدراسات الوثيقة الصلة بالحرب، وإن لم تكن من أصول القتال، وكان من نتائج التطور العلمي أن وضحت النواحي غير العسكرية الوثيقة الصلة بالاستراتيـچية والتخطيط لها، وكان لهذا أثره في مساهمة المفكرين وغيرهم من أعلام هذه النواحي غير العسكرية؛ ***والواقع*** أن الناس عاشوا طويلاً وهم يؤمنون بأن التخطيط للحرب صناعة يحترفها لون خاص من الناس، مثلهم مثل أولئك الذين يخوضون غمار القتال فعلاً مأجورين كانوا أم متطوعين، وهكذا برزت إلى المسرح عدة مدارس من مدارس الفكر العسكري، فيها الكثير من رجال الاقتصاد والسياسة والاجتماع، وكان لهذه المدارس أثرها لا في تطور القتال فحسب، بل وفي تطور التخطيط للحرب والتصوير للاستراتيـچية.

وأدرك الناس أن هذه المدارس العلمية جزء أساسي من مدارس الفكر العسكري، وانتهى العالم كله إلى ما وصل إليه رجل ديمقراطي هو توماس جيـڤرسون عندما اقترح أن تكون الدراسات العسكرية جزءًا أساسيا من التعليم الجامعي الأمريكي ليجمع بين الدراسات العلمية والدراسات العسكرية في صعيد واحد.

وهكذا بدت مع الضوء صورة أخرى، صورة لا تجيء من الجانب الآخر للتل، بل تقف في ذات الجانب ولكنها هي الأقرب إلى نفوس الجماهير تبعًا للصورة الأممية الجامعة التي تحولت إليها الحرب، صورة الرجل المدني الذي لم يقف في صفوف الجند؛ وكان من الضروري في خضم الحوادث أن تبرز صورة الزعامة: زعامة الجماهير، وبرز على المسرح أشخاص جدد لهم سمات جديدة، مثل تشرشل، ولويد چورچ، وكليمانصو، ولينين، وتروتسكي،وستالين، وغيرهم وغيرهم، ولكن الزعامة في الواقع لم

تكن في هؤلاء بل كانت فيما هو أعمق وأبعد، كانت في قلوب وعزيمة ومشاعر الأهلين أنفسهم.

والواقع أن الحديث هنا في هذا الجزء من الكتاب وعن هؤلاء الرجال الستة بالذات يخرج إلى ما هو أبعد من دراسة تاريخ حياة رجل ودوره في صياغة نظرية استراتيـچية، أو تعديل نظرية استراتيـچية قائمة؛ ذلك لأن البحث ينتقل في ناحية إلى دراسة تطور الطابع الحكومي نفسه، فقد أوجد طابع الديمقراطية مشاكل في المسئولية العسكرية وفي النظام والسيطرة لم يكن لها وجود طول حكم الملكية، وخرجت إلى الوجود الفكرة التي أشار إليها ماديسون وغيره من المفكرين الأمريكيين الأوليين بأنه من واجب الحكومة: «حماية الدولة»، وأنه ليس من الممكن نزول حكومة المدنيين عن سيطرتها على الشئون العسكرية في الدول الديمقراطية دون تعريض سلامة الأهلين للخطر.

وبذلك خرج معنى المسئولية من مجرد المعاونة المالية والتشريعية إلى مساهمة مباشرة تقل أو تكثر في السيطرة على العمليات الحربية نفسها، وطغت شخصية السياسي المدني على الجو التقليدي للجندي المحترف، وفتح ميدان فسيح للاحتكاك والتضاد بين المدنيين والعسكريين.

والشيء الآخر الذي يجيء في هذه الدراسة بالنسبة للثلاثة من رجال المذاهب العقائدية، أن كل انقلاب اجتماعي عنيف كالثورة الفرنسية أو ثورة نوفمبر سنة ١٩١٧ في روسيا يلقي أول ما يلقي بعيدًا بالتنظيمات العسكرية القائمة على أساس أن الجيش كان وثيق الارتباط بالبناء الاجتماعي السابق، ومن ثم فقد كونت الثورة الفرنسية، «جموع المواطنين المقاتلين» لتخوض بهم حرب الدعوة للحرية والمساواة والإخاء؛ ونظمت ثورة روسيا: «جيشًا من

الفلاحين والعمال والصناع» كان ميلاده يوم ٢٣ من فبراير سنة ١٩١٨، ليكون الجيش الجديد سلاحًا للجماهير للدفاع عن الثورة ضد الأعداء في الداخل والخارج.

ولكن حدث في روسيا ما حدث في فرنسا، وأعاد زعماء العقائد السياسية الجديدة النظر في تكوين هذه الجيوش الجديدة وتخطيط أهدافها من جديد، وبذلك تحركوا تدريجيًا إلى النظم الأولى لتكون هيئة قومية تمامًا.

فإن الجيش قد يمكن أن يكون طفل الثورة، ولكنه من جانب آخر هو أيضًا رمز الوطن؛ ذلك لأنه لا يمكن التنكر أو إغفال «الحقائق» التي تتحكم في الجيوش الحديثة مهما كانت «الأيديولوچيات» التي يدين بها أفراد هذه الجيوش.

* * *

ومن ثم ينتقل بنا البحث إلى ناحية أخرى، إلى العقائد والأصول العسكرية التي جاءت بها التجارب العملية: تجربة القتال والحرب.

والذي لا شك فيه أن الفترة بين الحربين العالميتين جاءت بعقائد وأصول كانت الحرب العالمية نفسها الصورة العملية للصراع بينها (بين هذه العقائد والأصول) وإن كان من سبق الحوادث أن نقول بأن نتيجة الحرب تصلح للحكم على نصيب هذه العقائد والأصول من الدقة أو على مكانتها من العلم العسكري؛ لأن نتيجة الحرب ـ أي حرب ـ تتأثر بعوامل أخرى ليست في الحسبان.

وأبرز ما سنلقاه في هذا الجزء من التاريخ لرواد الاستراتيـچية الحديثة الصراع الذي قام بين الهجوم والدفاع، والقيمة الحقيقية للتحصينات

الضخمة من الحديد والأسمنت في مواجهة التطور في مقذوفات المدفعية وإزاء الاستحداث في تحركات الجند واستخدام المدرعات التي تحمل الأسلحة والجنود خلف دروع من الصلب.

كان ليدل هارت يتزعم العقيدة الدفاعية، وهي عقيدة قد أملتها على بعض الأمم الحاجة الملحة للاقتصاد في الدم وتحديد منطقة المناورة للقوات المتضادة، وبنى الفرنسيون كتل الصخر والحديد التي أسموها ماچينو وأقامت تشيكوسلوفاكيا المناطق المحصنة على حدودها المشتركة مع ألمانيا ثم ضاع هذا كله في تسوية مشكلة السوديث قبيل الحرب العالمية الثانية ونظمت بولندة بل وحتى روسيا المواقع المحصنة على أن تعاون الأسلحة المقاتلة في زيادة عمق وسعة المناطق المحصنة، كان التفكير في ضرورة الاستناد إلى الحديد والأسمنت يسيطر على كل الأفكار حتى في الدول التي كان كل تخطيطها يقوم على الهجوم، وبنى الألمان الدعاية المضللة التي أسموها خط سجفريد، بل وانتشرت في العالم مناطق محصنة كثيرة مثل طبرق والبردية في برقة (الإيطالية) ومثل مطروح في غرب مصر.. بل وخط (إيدين) الذي عرف فيما بعد باسم خط العلمين، كان الناس يفكرون في «الدفاع» قبل أن تبدو فعلاً الحاجة إلى «الدفاع».

وفي طوال هذا كانت المدرسة «الهجومية» ـ المدرسة التي يدعو أصحابها للعامل الهجومي كالأصل الأساسي لأصول الحرب ـ في كل مكان من العالم ـ حتى في أمريكا أبعد الدول عن الاشتراك في خضم الصراع الأوروبي ـ يقولون بأن «الدفاع لن يكسب الحرب»!!.

ولم يكسب الدفاع الحرب ـ ما في هذا من شك؛ ولكن لا يمكن القول بأنه لم يعد من مكان «للدفاع»، أو أن «الدفاع» لم يعد أصلاً من أصول

الحرب، فالدفاع مرحلة من مراحل المعركة الهجومية في لحظة ما لإعادة التنظيم أو لاستكمال العتاد.

وهذه المعركة التي تتحدث عنها هنا ليست المعركة في صورتها المبسطة عندما نقرأ صفحات كتاب من كتب التدريب للوحدات الصغرى من الفصيلة إلى مجموعة اللواء ومع هذا فإن كل معركة مهما كانت القوة المشتركة فيها تمر فيها لحظات يقف فيها الجانب المهاجم للدفاع، ولكن يجب أن يستهدف الدفاع دائمًا استعادة العامل الهجومي، فالدفاع الهجومي في الحرب العالمية الثانية عند ستالينجراد وعند العلمين وفي غيرهما هو الذي حول إلى حد بعيد من مسير الحرب ومكن من استعادة الحلفاء للعامل الهجومي.

وهكذا نجد في هذا الكتاب الثالث من «رواد الاستراتيـجية الحديثة» إضمامة من الدراسات التي تقدم ألوانًا مختلفة من الأشخاص وما لهم من آراء ونظريات، ولكنها في جملتها تقدم معًا جانبًا من قصة تطور الاستراتيـجية، وبالتبعية تاريخًا لمجموعة متقاربة من «رواد الاستراتيـجية الحديثة».

وتبقى بعد ذلك مرحلة واحدة ليصل بنا الحديث إلى العصر الذي نعيش فيه ـ وموعدنا بها الكتاب الرابع إن شاء الله.

عبد الفتاح إبراهيم

عميد أركان حرب

الرابع من أكتوبر سنة ١٩٦٠

الفصل الحادي عشر

دلبروك:

المؤرخ العسكري

بقلم جوردون كريج

كان هانز دلبروك ـ الذي تتصل حياته اتصالاً وثيقًا بتاريخ الإمبراطورية الألمانية الثانية ـ مؤرخًا عسكريًا؛ على أن هذا ليس كل شيء بالنسبة للرجل، فلقد عنى بتفسير الشئون العسكرية لتتضح معمياتها لأفراد الشعب الألماني، كما كان ناقدًا مدنيا ناقش كل تعاليم هيئة أركان الحرب الألمانية وخرج من نقاشه وجدله بنظريات في صميم العلم العسكري.

والوقع أن ما أسهم به دلبروك في الفكر العسكري ليستحق التنويه والذكر، ولم يكن كتابه «تاريخ فن الحرب» دليلاً على الأستاذية وحسب، بل كان موردًا خصبًا تستمد منه المعلومات القيمة عن النظريات العسكرية في عصره.

وكانت تعليقاته على الشئون العسكرية التي نشرت في صفحات «الكتاب السنوي البروسي» مساهمة قيمة منه في التثقيف العسكري للشعب الألماني ثم عاون هذا الكتاب الناس أثناء الحرب العالمية الأولى على التخصيص في تفهم بواطن المشكلات التي تواجه هيئة أركان الحرب الألمانية، كما مكنت كتاباته النقدية التي ناقش فيها تعاليم القيادة الألمانية العليا والتي كتبها أثناء الحرب ثم في الفترة التي تلتها مباشرة من التنبيه والحث على إعادة تقدير طابع التفكير الاستراتيجي الذي ساد الجيش

الألماني منذ أيام مولتكة(*).

وقد أكد القادة العسكريون الألمان أهمية الدروس التي يمكن استخلاصها من التاريخ الحربي، كان هذا صحيحًا على التخصيص في القرن التاسع عشر، وكانت فكرة كلاوزيـڤتز المثالية تدريس الحرب بوساطة الأمثلة التاريخية، وجعل مولتكة وشليـڤـن دراسة التاريخ العسكري إحدى مسئوليات هيئة أركان الحرب العامة[١]، ولكن لكي يوجه التاريخ لصالح ولخدمة الجندي وجب أن يكون التسجيل العسكري دقيقًا وأن تخلو الحوادث القديمة حوادث الماضي من الخطل والخطأ وسوء الإدراك خلوها من الأساطير والخرافات التي نمت معها وتزاحمت من حولها، وكان الفضل كل الفضل لنفوذ وتأثير ليبولت ڤون رانك(**) أن أسهم العلماء الألمان طوال القرن التاسع عشر في استخلاص حقائق التاريخ من الشوائب التي لحقت بها.

والواقع أن الأسلوب العلمي الحديث لم يستخدم للانتفاع بالدراسات العسكرية القديمة حتى كتب دلبروك كتابه «تاريخ فن الحرب»؛ وكان هذا الاستخدام (هو) الدور الرئيسي الذي أسهم به دلبروك، ولكنه ـ مع هذا ـ لم يكن مساهمته الوحيدة، فعلى مدى القرن التاسع عشر اتسعت الأسس الحكومية لتضم كل جديد لم تعرفه من قبل، وبدا صوت الشعب في العالم الغربي بعامة يسمع متزايدًا في كل فرع من فروع الادارة الحكومية، ولم

(*) راجع الكتاب الثاني ص١١٨ ـ ١٦٨ .

(١) راجع الفصل الثامن من الكتاب الثاني ص١٨٧ و ١٨٨ .

(**) ليبولت ڤون رانك مؤرخ ألماني «١٧٩٥ ـ ١٨٨٦» «المترجم».

يعد من الممكن إبقاء السيطرة علي الشئون العسكرية حقًا خالصًا لطبقة صغيرة حاكمة؛ وكان الصراع المرير في بروسيا عام ١٨٦٢ والذي دار حول الميزانية العسكرية دليلاً على أن رغبات الأهلين وممثليهم في الهيئات التشريعية بالنسبة لمسائل الإدارة العسكرية يجب أن تعطي تقديرًا جديًا في المستقبل، كما وضح بأنه من الضروري ـ لسلامة الدولة بل ولإمكان الإبقاء على التعاليم العسكرية ـ يجب أن يعلم أفراد الشعب وأن تتوافر لهم المعرفة إلى الحد الذي يمكنهم من تفهم ومناقشة المشكلات العسكرية، وتبعًا لهذا بدأ التفكير في أن المطبوعات العسكرية التي تصدرها هيئة أركان الحرب العامة يجب الانتفاع بها في محيط أوسع من محيط قصرها على الأفراد العسكريين في الجيش وحدهم ومع هذا فإن كتابات العسكريين المحترفين، الكتابات التي وقفت على دراسة الحروب والحملات العسكرية، كانت من ناحية عامة أكثر فنية في طابعها وأسلوبها من أن يمكن الانتفاع بها في هذا القصد، قصد إعداد الشعب وتعليمه.

كانت هناك حاجة ملحة إلى تبسيط الدراسات العسكرية إلى المستوى الشعبي[1]، وقد أحس دلبروك بهذه الحاجة، وحاول أن يفعل شيئًا في هذا السبيل، واعتبر بأن واجبه في كل كتاباته أن يفسر ويشرح المسائل العسكرية للشعب الألماني، إلا أن أبرز فترات حياته والتي عمل طوالها في هذا القصد كانت أيام الحرب العالمية الأولى عندما كان يكتب في صفحات «الحوليات البروسية» Preussische Jahrbucher تعليقًا شهريًا عن سير الحرب موضحًا ـ

(١) راجع:

Hans Delbrück, «Etwas Kriegsgeschichtliches».

Preussische Jahrbücher, LX (١٨٨٧), ٦٠٧.

على أساس المادة المتوافرة له ـ استراتيـچية القيادة الألمانية العليا واستراتيـچية خصوم ألمانيا، ولكن دلبروك تحول فيما بعد ـ وبخاصة في السنوات الأخيرة من حياته ـ إلى ناقد له أثره في نقد التعاليم العسكرية والتفكير الاستراتيـچي في عصره، وقد أوضحت له دراساته للعصور التي سبقته الصلة الوثيقة بين السياسة والحرب في كل عصر، كما علمته أن «الاستراتيـچية العسكرية» و «الاستراتيـچية السياسية» يجب أن تسيرا جنبًا إلى جنب.

كان كلاوزيـڤتز قد أكد حقيقة أن «للحرب قواعدها الخاصة بها، ولكن ليس لها منطقها الخاص بها وحدها»، كما أكد أيضًا في حديث مكرر غير مملول أن الحرب: «استمرار لسياسة الدولة مع استخدام وسائل وأساليب أخرى».

ولكن عقيدة كلاوزيـڤتز قد نسيها أولئك الذين ذكروا جدله (كلاوزيـڤتز) ونقاشه لتحرير القيادة العسكرية من العوائق السياسية التي تحد من ميدانها[١].

وقد رجع دلبروك إلى عقيدة كلاوزيـڤتز وجادل في سبيل ضرورة اتفاق ومسايرة إدارة الحرب والتخطيط للاستراتيـچية مع أهداف سياسة الدولة، كما ناقش لتأكيد أنه عندما لا يكون التفكير الاستراتيـچي مرنًا، وعندما لا تتوافر له كفاية ذاتية، فإن هذا النقص يؤدي إلى الدمار السياسي مهما أمكن الوصول إلى نجاح تكتيكي براق.

وقد برزت في كتابات دلبروك طوال سني الحرب شخصية الناقد

(١) راجع الفصلين الخامس والثامن بالكتابين الأول والثاني من رواد الاستراتيـچية الحديثة.

وطغت على شخصية المؤرخ، وعندما اقتنع بأن التفكير الاستراتيـچـي للقيادة الألمانية العليا يتناقض تمامًا مع الاحتياجات السياسية للدولة وقف في مقدمة الداعين إلى مفاوضة الحلفاء لإقرار السلام. وعندما بدأ مجلس الريشستاغ بعد الحرب العالمية الأولى يبحث أسباب انهيار ألمانيا سنة ١٩١٨ كان دلبروك أعنف نقاد استراتيـچية لودوندورف، وكان نقده مستمدًا بالطبيعة من النظريات والأسس التي خرج بها من دراسته للتاريخ.

- ١ -

ونستطيع أن نمر سريعًا بتفاصيل حياة دلبروك(١)، وقد أجمل هو هذه التفاصيل في عبارة مختزلة موجزة سة ١٩٢٠ في قوله: «نشأت سليل مجموعة عمل أفرادها طوال حياتهم في الدوائر الحكومية والأوساط العلمية؛ وكنت ـ عن طريق أمي ـ من أسرة عاشت في برلين، شهدت الحرب ضابطًا في فرق الاحتياطي وعشت لخمس سنوات في بلاط الإمبراطور فردريك عندما كان وليا للعهد وكنت من رجال البرلمان، وعملت محررًا لمجموعة Preussische Jahrbücherوبذلك كنت بين رجال الصحافة ثم عملت أستاذًا في الجامعة».

ولد دلبروك ببلدة بيرجن في نوفمبر سنة ١٨٤٨ لأب يعمل قاضيًا

(١) كتب دلبروك تاريخًا موجزًا لحياته في:

Über die Glaubwürdigkeit Lamberts von Hersfeld (Bonn, ١٨٧٣) ٧٨, Die Geschichte der Kriegskunst im Rahmen der politischen Geschichte (Berlin, ١٩٠٠ - ١٩٢٠) i, vii f, and krieg und politik (Berlin, ١٩١٨ - ١٩٢٠), iii ٢٢٥ ff.

راجع أيضًا: j. ziekursch in Deutsches biographisch (jahrbuch ١٩٢٩) .

ويقدم Richard H. Bauer دراسة قيمة لحياة دلبروك في الكتاب الذي حرره Bernadotte Schmitt ووسم بعنوان Some Historians of Modem Europe طبع شيكاغو سنة ١٩٤٢ ص١٠٠ ـ ١٢٧.

للمنطقة، وكانت أمه ابنة أستاذ الفلسفة في جامعة برلين، على أنه كان بين أسلافه مشرعون وعلماء لاهوت وأكاديميون؛ تلقى العلم بمدرسة إعدادية في جريفز وولد، ثم التحق بعد هذا بجامعات هيدلبرج وجريفزوولد وبون، وقد كشف عن شغف مبكر بدراسة التاريخ، وحضر محاضرات نوردين، وشيـڤر وسيبل(*)، وثلاثتهم تأثروا إلى حد بعيد بتوجيهات «رانك» للبحث العلمي، وكان تأثير رانك واضحًا في البحث الذي قدمه دلبروك لنيل درجة الدكتوراة، والذي كان نقدًا وتقويمًا محطمًا بدرجة كبيرة لكتابات مؤرخ ألماني في القرن الحادي عشر(١)، وقد أوضح دلبروك أن هذه الكتابات التي تقبلها المؤرخون منذ بعيد على أنها تسجيل دقيق فريد في بابه ليست في الواقع أكثر من مجرد سرد لا يوثق به ولا تقوم أدلة على صحته، وقد كشف دلبروك بهذا التحقيق العلمي عن فطنته وعن الطاقة التي توافرت له في النقد العلمي والتي كانت الظاهرة البارزة في انتاجه الفكري فيما بعد.

وكان دلبروك معنيا طوال طلبه للعلم بمشكلات السياسة، وكان متحمسًا للدفاع عن الوحدة الألمانية، ولم يقتنع حتى سنة ١٨٧٠ بأن سياسة بسمارك ستمكن من تحقيق هذه الوحدة(٢)، على أنه في غمرة اقتناعه بأن

(*) كارل ڤون نوردن Noorden مؤرخ، ولد عام ١٨٣٣ وتوفي سنة ١٨٨٣، أشهر كتبه «تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر» عمل أستاذًا بالجامعة من عام ١٨٧٧ حتى وفاته.

شيـڤر Schafer مؤرخ وكاتب ورسام.

هنريش ڤون سيبل Sybel مؤرخ، ولد عام ١٨١٧ وتوفي عام ١٨٩٥، كان مديرًا لأرشيف الحكومة البروسية مند سنة ١٨٧٥ ثم رقي إلى وظيفة مستشار ملكي، واختير عضوًا في المجلس النيابي البروسي لبعض الوقت «المترجم».

(١) Über die Glaübwurdigkeit Lamberts Von Hersfeld (Bonn ١٨٧٣).

انظر أيضًا Richard H. Bauer في نفس المرجع لكتاب Schmitt هامش صفحة ١٠١ .

(٢) Krieg und Politik, III, ٢٢٦.

الحرب ضد فرنسا واقعة لا محالة، وأنه من غير الممكن تجنبها.

في غمرة هذا تطوع لخدمة الجيش سنة ١٨٦٧، وشهد حرب سنة ١٨٧٠ / ٧١ بين ضباط الجيش العامل، ولكنه نقل إلى الاحتياطي حيث بقي حائزًا رتبة عسكرية في الاحتياطي حتى سنة ١٨٨٥ .

وتولى دلبروك من سنة ١٨٧٤ إلى سنة ١٨٧٩ التدريس للبرنس ڤالديمار ابن ولي العهد البروسي، ولم يمكنه عمله هذا من أن يرتبط بصلات وثيقة مع أعضاء بلاط فردريك فحسب، بل ومكنه أيضًا من أن يصل إلى أعماق المشكلات السياسية لعصره.

ولكنه بقي في ذلك الوقت مخلصًا لما اختطه لنفسه في فجر حياته من أن يكون مؤرخًا، وفي سنة ١٨٨١ نجح في الحصول على وظيفة في جامعة برلين فكانت هذه بداية حياة أكاديمية ناجحة استمرت حتى سنة ١٩٢٠؛ وبالرغم من أن بحوثه ومحاضراته شغلت أغلب وقته فإن دلبروك وجد الوقت الذي مكنه من القيام بدور إيجابي في السياسة فكان في سنة ١٨٨٢ وحتى سنة ١٨٨٥ عضوًا في برلمان بروسيا، ثم عضوًا بمجلس الريشستاغ بين سنة ١٨٨٤ وسنة ١٨٩٠، ولكنه في حياته البرلمانية كان أقرب إلى أن يكون مراقبًا يلاحظ كل ما يدور من حوله أكثر من أن يكون مساهمًا نشطًا في المناقشات البرلمانية؛ ذلك لأنه كان يعتبر نفسه «طالب علم في الميدان السياسي»[١].

وبالإضافة إلى هذا اللون من النشاط العلمي والسياسي كان دلبروك محررًا صحفيًا له مكانة وشهرة، عمل محررًا «لمحفوظات الدولة»

(١) نفس المرجع راجع الهامش السابق .

Staatsärchiv المجموعة الرسمية السنوية للوثائق الدبلوماسية، كما عمل محررًا «لمصنف تاريخ أوروبا» Europâischer Geschichtskalender، وهي نشرة سنوية تعرض حوادث العام السابق لصدورها كل مرة، وفي سنة ١٨٨٣ عين ضمن هيئة تحرير الحوليات البروسية Preussische Jahrbücher ولكنه بعد سنة ١٨٩٠ كان هو المحرر الوحيد لهذه الدورية القوية، وعلى صفحاتها كتب دلبروك تعليقاته العسكرية أثناء الحرب العالمية الأولى وفي السنوات التي تلتها، وكان يهاجم بعنف مادة معاهدة ڤرسايل التي نصت على «مسئولية الحرب».

على أن دلبروك حتى قبل أن يبدأ حياته بجامعة برلين فإنه وجه انتباهه وعنايته إلى دراسة التاريخ العسكري، وقد قرأ في أثناء «مناورات» الربيع سنة ١٨٧٤ ـ عندما كان لا يزال في خدمة الاحتياطي ـ كتاب روستوف «تاريخ المشاة»، وقد تحدث فيما بعد عن هذه المطالعات على أنها هي التي رسمت طريق حياته.

ولكن دلبروك في الواقع لم يتجه جديًا إلى دراسة صناعة الحرب حتى سنة ١٨٧٧، ففي تلك السنة أعطى فرصة إتمام وتكملة الأوراق والمذكرات التي خلفها چينسيناو وراءه، والتي كان چورچ هينريك بيرتز قد بدأ إتمامها، وعندما انغمر دلبروك في دراسة تاريخ حرب التحرير اصطدم بما بدا له أنه خلاف أساسي في التفكير الاستراتيـچـي بين نابليون وچينسيناو من جانب، وبين الأرشيدوق شارل وويلنجتون وشوارزنبرج(*) وغيرهم من الجانب الآخر، وقد ازداد هذا الخلاف وضوحًا عندما تابع دلبروك تحقيقاته

(*) فردريك تشارلس شوارزنبرج ، قائد عسكري وكاتب له دراسات في فنون الحرب ولد ومات بقيينا في السبعين من عمره (١٨٠٠-١٨٧٠) .

متعمقًا في دراسة حياة چينسيناو نفسه، هذه الدراسة التي كتبها بعد المقدمة التي وضعها للمذكرات(١)، وقد أحس دلبروك، تبعًا لوضوح هذا الخلاف في التفكير الاستراتيـچـي أن استراتيـچية القرن التاسع عشر من وجهة عامة تخالف تمامًا، بل وإلى حد بعيد، استراتيـچية القرن الثامن عشر؛ وقرأ دلبروك كتابات كلاوزيـڤتز لأول مرة، وناقش ما قرأه طويلاً مع الضابط الملحقين ببلاط فردريك، وفي ضوء هذه المناقشات ازدادت رغبته في البحث، وازداد إصراره على ضرورة الكشف عن العوامل الأساسية الرئيسية للعمليات الاستراتيـچية والحربية.

وكانت أولى محاضراته في جامعة برلين عن «حملة سنة ١٨٦٦» ولكنه اتجه بتفكيره بعد هذا إلى الماضي فألقى أولاً بعض المحاضرات عن «تاريخ فن الحرب منذ بداية النظام الاقطاعي»، ثم تعمق في بحوثه حتى وصل إلى الفترة بين الحروب الفارسية وبين سقوط روما واضمحلالها وقد بدأ بدراسة منظمة لمصادر الدراسات في التاريخ القديم والمتوسط، ونشر سلسلة من الدراسات عن الحروب الفارسية وعن استراتيـچية بركليز وصولون(*)، وعن تكتيكات «المانيبل» الروماني(**)، وعن التعاليم

(١) H. Delbrück, Das Leben des Feldmarschalls Grafen Neidhardt von Gneisenau (Berlin, ١٨٨٢).

(*) بركليز Pericles خطيب أثينا المفوه وسياسيها الأشهر كان رئيس الحزب الديمقراطي ويعتبر عصره أزهي عصور الرومان، عاش بين سنة ٤٩٩ وبين سنة ٤١٩ قبل ميلاد السيد المسيح. (معجم لاروس ص ١٥١٦).
صولون Cleon أثيني من أهل أثينا، شجاع طموح كان مليئًا بالزهو، اصطدم ببراسيداس Brasidas في أمـڤيبوليس، ولكنه قتل هو ومنافسه في المعركة سنة ٤٢٢ قبل الميلاد. «معجم لاروس ص١٢٣٢».

(**) المانيبل Maniple قسم من تشكيل «اللـچيون» الروماني ويصل عدد أفراده بين ٦٠ =

العسكرية للرواد الألمان، وعن الحرب بين السويسريين والبورجونديين كما درس استراتيـجية فردريك الأكبر ونابليون. وفي نفس الوقت شجع طلابه على إعداد دراسات تفصيلية لفترات زمنية خاصة، ومن هذه المحاضرات والدراسات أخرج دلبروك كتابه «تاريخ الحرب في إطار التاريخ السياسي الذي ظهر الجزء الأول منه سنة ١٩٠٠[١].

- ٢ -

وقد اعتبر كتاب «تاريخ فن الحرب» منذ أن صدر المجلد الأول منه نموذجًا للنقد الذي يوجه في ثورة غضب، ولم يتقبل الباحثون الأسلوب الذي أخذ به دلبروك بخناق هيرودوت بخشونة، وهاجم علماء دراسات القرون الوسيطة الجزء الخاص بأصول النظام الاقطاعي في كتاب دلبروك، وغضب العلماء الإنجليز لاستهانة دلبروك بحروب الوردتين، وعندما طبع الكتاب طبعات جديدة أضيفت إليه على هوامشه بعض آراء مخالفة لما كتبه المؤلف في متن كتابه لتخفيف غضب الأكاديميين، ولكن الكتاب بقى في

=وبين ١٢٠ جنديًّا ـ معجم ديبستر ص ٨٩٣ .

(١) Geschichte der Kriegskunst im Rahmen der Politischen Geschichte (Berlin, ١٩٠٠).
والكتاب في سبعة مجلدات تعتبر الأربعة الأولى منها هي التي كتبها دلبروك فعلًا، وقد كتب دانييل Emil Daniels المجلدين الخامس (١٩٢٩) والسادس (١٩٣٢)، أما المجلد السابع الذي صدر سنة ١٩٣٦ فكتبه داثييل بالاشتراك مع أوتوهينتز Otto Haintz وسنعرض في دراستنا هذه إلى المجلدات الأربعة الأولى وحدها، وكل إشارة إليها تعني الإشارة لصفحات الطبعة الأولى منها، وقد صدرت طبعة ثانية للمجلدين الأول والثاني سنة ١٩٠٨ كما صدرت طبعة ثالثة للمجلد الأول سنة ١٩٢٠، على أن ما جرى في الطبعتين الثانية والثالثة من تصحيحات أو إضافات لا توجد خلافًا رئيسيًا بين هاتين الطبعتين وبين الطبعة الأولى.

مجمله لا تقلل من قيمته هذه المهاجمات، بل ونال تقدير وثناء قراء مثل الـچنرال جرونر Groener[*] وزير الحرب في حكومة جمهورية ڤيمار، ومثل فرانزميهرنج الناشر الاشتراكي العظيم، وقد أشار الأول إلى أن الكتاب يعتبر في بساطه (وحيدًا في بابه)[١] وأشار الثاني إلى أن الكتاب «أقوى دراسة أبرزتها الكتابات التاريخية لألمانيا البرجوازية في القرن الحديث»[٢].

ويناقش دلبروك في المجلد الأول من المجلدات الأربعة التي كتبها، يناقش فن الحرب في المدة من حروب الفرس إلى ذروة الفن عند الرومان في حكم يوليوس قيصر، وفي المجلد الثاني ـ الذي عني فيه أكثر ما عنى بالمجتمع الألماني في فجر تاريخ ألمانيا ـ يناقش دلبروك اضمحلال التعاليم العسكرية الرومانية، كما يناقش التنظيم العسكري للإمبراطورية البيزنطية وأصول النظام الاقطاعي، ووقف دلبروك المجلد الثالث على اضمحلال وقرب زوال تكتيكات واستراتيـچية العصر الوسيط، ثم يختتم هذا المجلد

(*) جرونر، ويلهلم جرونر قائد ألماني ولد في لودڤيسبرج (وورتمبرج) سنة ١٨٧٦ وتوفي سنة ١٩٣٩، أنهى دراسته بكلية أركان الحرب سنة ١٩٠٢، وقد برهن على أنه من أمهر رجال التنظيم العسكري، اشترك في العمليات برومانيا سنة ١٩١٦، وفي ديسمبر سنة ١٩١٦ ولاه هندنبرج أمر التعبئة الصناعية لألمانيا، كان أركان الحرب للقوات في أكرانيا، وفي أكتوبر سنة ١٩١٨ تولى عمل الـچنرال لودندورف، عمل في فجر أيام الجمهورية مساعدًا لهندنبرج في الأعمال الخاصة بتسريح الجيش الألماني، تولي وزارة النقل من سنة ١٩٢٠ إلى سنة ١٩٢٣ وعمل لبعض الوقت في وزارة موللر. «المترجم»

(١) Wilhelm Groener, "Delbrück und die Kriegswissenschaften" in Emil Daniels and Paul Rühlmann, ed, Am. Webstuhl der Zeit, eine Erinnerurgsgabe Hans Delbrüch dem Achtzig jahrigen dargebracht (Berlin, ١٩٢٨). p. ٣٥.

(٢) Franz Mehring, "Eine Geschichte der Kriegskunst". Die Neue Zeit (Erganzungsheft, No. ٤. ١٦ October ١٩٠٨) p. ٢.

(الثالث) بإحياء التكوين التكتيكي للحروب السويسرية ـ البورجوندية، ويتابع المجلد الرابع سرد قصة تطور الأساليب التكتيكية وتطور التفكير الاستراتيـجـي حتى عصر نابليون.

وفي الرواية التي كتبها براوست Proust(*) يقول ضابط صغير:

«إن أبسط الحقائق والحوداث هي وحدها العلائم الخارجية للفكرة التي تجيء في السرد الذي يقدمه مؤرخ عسكري، وهذه وحدها هي التي يجب أن تحلل وهي وحدها التي تلقى بالضوء على الأفكار الأخرى، ومثلها في هذا مثل الرق الذي يمحي ما عليه من كتابة ليمكن الكتابة عليه من جديد ثانية».

والواقع أن هذه الكلمات تقدم وصفًا منطقيًا دقيقًا لنظرية دلبروك في التاريخ العسكرى، فقد كان معنيًا بالآراء والاتجاهات العامة أكثر من عنايته بالتفاصيل الدقيقة التي ملأت صفحات كتب التاريخ التي سطرت في العصور السابقة؛ وفي مقدمته للمجلد الأول من كتابه أوضح صراحة أنه لا يستهدف كتابة تاريخ كامل تفصيلي لفن الحرب، وقد أشار إلى أن مثل هذا العمل من الضروري أن يتضمن التفاصيل عن أشياء كثيرة مثل: «التدريب وأوامره وتعليماته، فن استخدام الأسلحة، العناية بالخيول، وأخيرًا كل الموضوعات المتعلقة بالشئون البحرية والمسائل التي ليس فيها أي جديد أستطيع أن أذكره أو التي لا أستطيع أن ألم بها وأن أتفهمها».

وقد وضح الغرض من التاريخ الذي كتبه دلبروك من العنوان الذي

(*) Proust, The Guermantes Way.

وسم به كتابه، فقد كان تأريخًا لفن الحرب في إطار التاريخ السياسي[١].

لكل سلاح؛ ودراسة تكتيكات الحرب الحديثة تزود المؤرخ بوسائل أخرى يستخدمها في بحثه؛ لأنه بدراسته للحملات الحربية الحديثة يستطيع (المؤرخ) أن يحكم على طاقة وسرعة السير للجندي. وأن يحكم على طاقة حمل الجواد العادي، وعلى قدرة الحشود الكبيرة من الجنود على المناورة؛ وأخيرًا فإنه كان من الممكن غالبًا استكشاف المعارك التي تعتبر التقارير الواردة عنها صحيحة تبعًا لأنه قد تكررت فيها بدقه الظروف والملابسات التي جاءت في معارك سابقة.

وقد حدثت معارك الحروب البورجوندية السويسرية ـ التي توافرت التسجيلات الدقيقة عنها ـ ومعركة مراتون[*] ـ التي كان هيرودوت المرجع الوحيد للحديث عنها ـ حدثت بين الفرسان ورماة السهام في جانب وبين المشاة الذين يحملون أسلحة القتال يدا بيد في الجانب الآخر، وفي هذه وتلك كان النصر من نصيب المشاة. ولهذا فإنه يمكن أن نخرج من معارك جرانسون مورتين ونانسي[**] بنتائج ختامية تطبق بالنسبة لمعركة مارتون[٢]،

---

(١) Geschichte der Kriegskunst, I, p. xi.

(*) مراتون Marathon قرية في بلاد الإغريق القديمة على الساحل الشرقي في منطقة (أتيكا)، وكان بجوارها السهل الذي حدثت فيه المعركة سنة ٤٩٠ قبل الميلاد حيث هزم الإغريق بقيادة ملتيادس الفرس تحت قيادة دارا، وقد عدا عداء إغريقي من مراتون إلى أثينا لإخطار الأهلين بالنصر، ومات الرجل بعد أن أتم رسالته، ويطلق الاسم على السباق لمسافة ٢٠ ميلًا و ٣٨٥ ياردة تخليدًا لذكري العداء القديم.

(**) نانسي مدينة في شمال فرنسا سكانها ١١٣٠٠٠ كإحصاء سنة ١٩٤٦.

(٢) استخدام دلبروك هذا الاصطلاح الأخير في حديثه الأول من الحروب الفارسية في كتابه: Die Perserkriege und die Burgunder Kriege: Zwei Combinierte Krigsgeschichtliche =

وقد أطلق دلبروك على المزيج الذي تتركب منه كل هذه الوسائل اسم «النقد الموضوعي»[١] Sachkritik .

وقد لا تكون بنا حاجة هنا إلى أن تتحدث إلا عن القليل من وسائل التطبيق، وقد حصل دلبروك على الكثير من النتائج الطيبة بتحقيقه لعدد الجنود الذين اشتركوا في كل من الحروب الكبيرة في الماضي، وعلى سبيل المثال فإن هيرودوت قد قدر جيش الفرس الذي قاتل ضد الاسبرطيين في القرن الخامس قبل الميلاد بأربعة ملايين، وأشار دلبروك إلى أن هذا العدد لا يمكن الوثوق به بحال ما «ذلك لأنه تبعًا لنظام السير عند الألمان فإن الفيلق الذي يتكون من ثلاثين ألف جندي يغطي وحده ـ دون جملة الأمتعة والعتاد والتموين ـ مسافة تصل إلى ثلاثة أميال، وإذن كان من الضروري أن يصل طول قول جيش الفرس إلى ٤٢٠ ميلاً، أي أنه عندما تصل المقدمة إلى حواف ترموبيل[*] Thermopyloe تكون المؤخرة قد خرجت لتوها من سوسه[**] Susa على الضفة الأخرى لنهر الدجلة[٢].

(Berlin, ١٨٨٧). =

(١) Geschichte der Kriegskunst, I. Introduction.

(*) ترموبيل ممر جبلي في شرق بلاد اليونان، كان مسرح القتال سنة ٤٨٠ ق. م حيث هزمت قوات اسبارطة بقيادة ليوتيادس قوات الفرس بقيادة أجزرسيس ـ معجم ويبستر ص١٥١٣.

(**) سوسه ـ مدينة في غرب إيران (لا تزال أطلالها قائمة) كانت عاصمة أرض إيلام Elam ورد اسمها في التوراة «شوشان» معجم ويبستر ص ١٤٦٩، وكانت أرض إيلام تفصل الإمبراطورية الأشورية عن الخليج العربي ويبستر ص٤٨٥ (المترجم).

(٢) نفس المرجع ١ ص ١٠.

وحتى لو كان من الممكن تفسير مثل هذا الحديث غير المعقول الذي ذكره هيرودوت، فالواقع أنه لم يكن بين ميادين القتال التي حدثت فيها كل المعارك القديمة الميدان الذي يتسع لجيش بهذا العدد الذي ذكره هيرودوت؛ بل أن سهل مراتون «سهل صغير إلى حد أن ضابطًا من الضباط أركان الحرب البروسيين كتب عنه عندما زاره من خمسين سنة من أنه لا يتسع إلا بصعوبة لتدريب لواء بروسي واحد»[١].

وقد قدر دلبروك ـ على أساس الدراسات الحديثة عن تعداد سكان اليونان القديمة ـ قدر قوة جيش الأغريق الذي واجه اجزرسيس باثني عشر ألف جندي، فقد كان جيشًا من المدنيين الذين دربوا على القتال بضغط الـڤالاناكس ولم يكن قادرًا على تكتيكات المناورة، وعلى نقيض هذا كان جيش الفرس جيشًا من المحترفين، ولم تذكر حتى المصادر الإغريقية جرأة جنوده، «فإذا صدق كلا الأمرين، تعداد جيش الفرس (على ما قدره هيرودوت) وشجاعة جنوده، لبقي هذا الانتصار المتتابع الذي كان نصيب الإغريق في كل مرة مسألة غير مفهومة ولا يمكن تفسيرها، ومن هنا كان أحد الأمرين فقط هو الذي يمكن أن يكون صحيحًا؛ ذلك هو أن الفرس لم يفكروا في الأفضلية على حساب الكم بل على حساب النوع»[٢]، وهنا ينتهي دلبروك بأن الفرس كانوا أبعد ما يمكن عن هذا العدد الذي ذكره هيرودوت، وأنهم كانوا أقل عددًا من الأغريق طوال الحروب الفارسية الإغريقية.

---

(١) محاضرتان ألقيتا في جامعة لندن طبع لندن سنة ١٩١٣ ص ٢٤.

(٢) H. Delbrück, Numbers in History Geschichte der Kriegskunst, I, ٣٩.

على أن العدد الذي ذكره هيرودوت في حديثه عن الجيش الفارسي كان مثار الشك منذ وقت طويل قبل دلبروك، ولهذا فإن نقد دلبروك له لا يعتبر نقدًا أصيلاً فيه ابتداع وتجديد، ولكن الابتداع الحقيقي جاء في إسهامه بالمناقشة المنطقية والدراسة العميقة للتسجيلات العددية للجيوش التي خاضت غمار الحروب من الحروب الفارسية حتى حروب نابليون، ولهذا فإنه في مناقشة لحملات قيصر في بلاد الغال أوضح بجلاء أن قيصر في تقديراته للقوات التي وقفت تجاهه قد عمد إلى المبالغة لأسباب سياسية.

والواقع أن قيصر يذكر القوات التي وقفت تسد طريقه بأنها ٣٦٨٠٠٠ من السويسريين، كما ذكر أنهم كانوا يحملون معهم تموينهم لثلاثة شهور.

ويرى دلبروك أن هذه خرافة تستحق الامتهان والتسفيه، والشيء الذي دعم من حديثه ما ذكره قيصر عن التموين الذي كان السويسريون يحملونه معهم، ذلك لأننا لو قدرنا أن السويسريين كانوا يحملون تموينهم على عربات نقل لاحتاجوا إلى ٨٥٠٠ عربة من عربات النقل لحمل تموين هذا الجيش الكبير، ومن هذه الحملة وحدها نستطيع أن نؤكد الخرافة. فمن المستحيل أن يتحرك «قول» هذه حاله فيه ٨٥٠٠ عربة نقل تجرها الخيول أو الثيران على الطرق في ضوء ما نعرفه عن حال الطرق في ذلك العصر(١).

* * *

فإذا ما انتقلنا إلى دراسة غزو قبائل الهون لوسط أوروبا نجد دلبروك

(١) نفس المرجع ـ ١ ـ ص٤٢٧ .

يعارض ما يقال من أن آتيلا Attila(*) كان يتولى أمر جيش تعداده سبعمائة ألف مقاتل، وقد استند دلبروك في معارضته لهذا التقرير من دراسته للصعاب التي واجهها مولتكة عند تحريكه جيشًا من خمسمائة ألف مقاتل سنة ١٨٧٠، ويقول دلبروك: «لقد كان تحريك نصف مليون جندي مع وجود الخطوط الحديدية والطرق البرية والبرق وهيئة أركان الحرب عملية من الصعوبة بمكان فكيف كان آتيلا يستطيع أن يقود سبعمائة ألف جندي من ألمانيا فيعبر الرين إلى فرنسا ثم ينحدر إلى سهل شالون، مع إدراكنا للصعاب التي أجهدت مولتكة في تحريك نصف مليون جندي على ذات الطريق، إن أحد الرقمين هو بلا شك الذي يثبت الإسراف والمبالغة في الرقم الآخر(١).

إن تحقيقات دلبروك عن الأعداد لهي أكثر أهمية وأبعد مدى من مجرد حديث في التاريخ القديم، ***والواقع*** أن تصحيح الأساطير يعاون على تجنب الخروج باستنتاجات زائفة غير صحيحة، وهذا التصحيح له أثره وأهميته في عصر كان الجيش الألماني يعمل طواله لاستخلاص الدروس من التاريخ، ومما لا شك فيه أن للأعداد أهميتها الكبيرة في الحرب وفي دراسة الحرب(٢).

وأشار دلبروك إلى أن «التحركات التي يمكن أن تنفذها قوة مكونة من ألف جندي لتعتبر واجبًا صعبًا مجهدًا بالنسبة لقوة أخرى تتكون من

(*) آتيلا "Attila" (الأب الصغير) ("Atta") (تعني والد) ملك الهون عاش بين سنة ٤٠٦ وسنة ٤٥٣ بعد ميلاد عيسى - عليه السلام - وتاريخ مولده تحيطه الشكوك. معجم ويبستر ص٩٥ (المترجم).

(١) Numbers in History, p. ١٨.

(٢) General Groener, Am Wdbstuhl der Zeit, p. ٣٨.

عشرة آلاف جندي، كما تعتبر عملاً فنيًا دقيقًا مليئًا بالمخاطر لو وصلت القوة إلى خمسين ألفًا، فإذا وصلت القوة إلى مائة ألف كانت عملاً مستحيلاً لا يمكن تنفيذه»[١].

ولهذا فلا يمكن استخلاص أي دروس ذات قيمة من دراسة المعارك القديمة ما لم يتوافر تقدير دقيق لتعداد القوات التي أسهمت في كل منها.

على أنه كان «للنقد الموضوعي» أوجه نفع أخرى غير هذا، فقد تمكن دلبروك، بهذه الدراسات النقدية أن يعيد تصوير مراحل المعارك وتفاصيلها في تنظيم منطقي، وكان لنجاحه في هذا التصوير تأثير كبير على القسم التاريخي في هيئة أركان الحرب الألمانية، وقد عنى الـچنرال جرونر بتحقيقات دلبروك لنظام السير المائل، هذا التنظيم الذي جعل عملية التطويق عملية ممكنة مستطاعة[٢].

على حين أنه من المعروف أن الوصف الفني الذي قدمه دلبروك لحركة التطويق في كانِّي Cannea قد أثر إلى حد بعيد في نظريات الكونت شليـڤـن[٣]، ولكن لا شك أن دراسة دلبروك لمعركة مراثون ـ والتي هي النموذج الجيد لابراز مهارته في إعادة بناء تفاصيل المعارك القديمة ـ توضح في تصوير جيد

(١) Geschichte der Kriegskunst, I, v.

(٢) Am Webstuhl der Zeit, p. ٣٨.

نظام السير المائل في المعركة استخدمه ابامينوندا الطيبي Epaminondas لأول مرة في التاريخ وقد طبق فردريك الأكبر نفس الأصول في لوثين سنة ١٧٥٧ راجع الحديث عن ابامينوندا في كتاب: Geschiche der Kriegskunst I, ١٣٠ – ١٣٥.

(٣) Geschichte der Kriegskunst, I, ٢٨١ - ٣٠٢

Graf Schlieffen, Cannae (Berlin, ١٩٢٥), p. ٣

راجع أيضًا الفصل الثامن (الكتاب الثاني) رواد الاستراتيـچية.

اعتقاده بأنه: (لو عرف تسليح وأساليب القتال للجيوش المتضادة، ثم عرف بعد ذلك طبيعة الأرض والتي لها أهمية كبيرة على سير المعركة، فإنه ولا شك يستطيع أن يعيد تصوير سير المعركة من وجهة عامة)(١).

كان جيش الإغريق في (مراتون) يتكون من مشاة ثقيلي التسليح يتشكلون في «ڤالاناكس» بدائي محدود الطاقة للمناورة، ومن ثم اقتصرت تحركاته على تحركات أمامية بطيئة، وكان في مواجهته جيش آخر أقل منه عددًا ولكنه يتكون من خيالة ورماة السهام جيدي التدريب، وقد كتب هيرودوت أن الإغريق كسبوا المعركة بالقيام بالاقتحام عبر سهل مراتون لمسافة ٤٨٠٠ قدم فسحقوا قلب المحط الفارسي؛ وقد أشار دلبروك إلى أن هناك استحالة بدنية في هذا، فتبعًا لكتاب التدريب الألماني الحديث لا يستطيع الجندي الذي يحمل عتاده كاملاً أن يعدو لأكثر من دقيقتين ولمسافة بين ١٠٨٠و ١١٥٠ قدمًا، ولم يكن الأثينيون أخف عتادًا من الجندي الألماني الحديث وأنهم كانوا يواجهون عبئين آخرين:

أولهما: أنهم لم يكونوا جنودًا محترفين، بل كانوا مدنيين تجاوز أغلبهم حد السن للتجنيد للجيوش الحديثة.

وثانيهما: أن الـڤالاناكس حشد متقارب الصفوف من الجنود إلى حد أن التحركات السريعة من أي نوع كانت تعتبر مستحيلة.

(١) Geschichte der Krieskunst, II, ٨٠.

وقد استخدم دلبروك هذا الأسلوب ليس فقط في دراسة معركة مراتون بل ولإعادة تصوير معركة تويتوبورجر ڤالد Teutoburger Wald (تويتوبورجر ڤالد سلسلة حية لشرق ويستـڤاليا هزم فيها الألمان الرومان سنة ٩ بعد الميلاد، معجم ويبستر ص١٥٠٧) (المترجم).

وفي ضوء هذين العبئين الإضافيين على عاتق الأثينيين فإن محاولة القيام باقتحام بهذه الكتلة من الـڤالاناكس ولمثل هذه المسافة لمحاولة تحول التشكيل النظامي إلى مجموعات من الغوغاء غير المنظمين يستطيع الفرس المحترفون أن يمزقوهم دون ما جهد(١).

ولقد كان من الواضح أن التكتيكات التي وضعها هيرودوت مستحيلة، بل وتكون أكثر استحالة عندما نذكر أن الـڤالاناكس الإغريقي كان ضعيفًا في جناحيه، ومن ثم فإن خروجه للميدان المكشوف يمكن فرسان الفرس من الإحداق به وتحطيمه، على أنه قد وضح لدلبروك بدرجة أكبر أن المعركة لم تحدث قط في سهل مراتون نفسه بل في وادي صغير للجنوب الشرقي منه، حيث حمى الإغريق جانبهم بالتلال والغابات ومن ثم كانوا بمنجاة من حركة تطويق يقوم بها العدو.

قد تعطلا عن الاشتباك لأيام، توضح أن ملتيادس Miltiades(*) القائد

(١) يزعم أولريك ڤون ويلا موتيز لدعم قصة هيرودوت أن الإلهة أرتيمسيس منحت الإغريق القوة للقيام بهذا الاقتحام، وعرض في مناقشته نقدًا عنيفًا للعلماء والباحثين الذين قللوا من المعونة العسكرية التي أسهمت بها الإلهة؛ على أن رفض دلبروك لتقبل هذا التفسير أدى إلى مناقشة عنيفة لا بينه وبين ويلاموتيز بل مع كرومايير الذي هب لمعاونة ويلاموتيز، وقد دارت هذه المعركة الكلامية على صفحات المجلة التاريخية:

Hestorische Zeitschrift Preussische Jahrbücher (CXXI, ١٥٨f)

وعلى صفحات التقويم البروسي، وكالكثير من الدراسات التي عارض فيها دلبروك آراء غيره من الباحثين تركت المناقشة الجانبين المشتركين فيها خصومًا حتى النهاية.

(*) ملتيادس (ملتيادا) قائد أثيني، كان أحد العشرة الذين وقع الاختيار عليهم ليتولى أحدهم قيادة جيش أثينا ضد الفرس، نصح بانتظار الفرس في مراتون، وقد أدى هذا إلى نجاحه في الانتصار على الفرس وإعادة الاستيلاء على مجموعة جزر سيكلاديز Cycledes في بحر ايجه ولكنه أخفق في إعادة الاستيلاء على بيروس، جرح في المعركة ومات بأثينا=

الأثيني تخير موقعًا قويًا مكنه من اتخاذ الوضع التكتيكي للجيش الأغريقي. ويعتبر الموقع بوادي (پرانا) Brana الموقع الوحيد الصالح لهذه المعركة فضلاً عن أن موقع پرانا يسيطر على الطريق الوحيد إلى أثينا، وكان من الضروري ليصل الفرس إلى أثينا أن يهاجموا جيش ملتيادس أو أن تضيع عليهم كل الثمار التي حصلوا عليها من قبل، وقد تخيروا مهاجمة الموقع؛ وهنا يتضح التفسير المنطقي للمعركة، فإن الفرس برغم قلة عددهم وبرغم عدم قدرتهم على استخدام تكتيكات التطويق والدوران حول الأجناب اضطروا للقيام بهجوم أمامي.

وفي اللحظة الحاسمة تحول ملتيادس من الدفاع إلى الهجوم وسحق قلب الخط الفارسي واكتسح الميدان كله[(١)].

والواقع أن «تاريخ فن الحرب» لا يزيد ـ بالنسبة للقارئ العادي، كغيره من المؤلفات الكثيرة التي سبقته ـ عن مجرد مجموعة مقتطفات عن المعارك، ولكن هذه العناية التي بذلها دلبروك لإعادة تصوير المعارك في تجسيم واضح ملموس كانت وسيلة ضرورية لتحقيق الغرض الأساسي الذي استهدفه في كتابه، فقد أحس دلبروك أن الباحث بدراسته للمعارك الرئيسية يستطيع أن يحصل على صورة جيدة لتكتيكات العصر، وبذلك يستطيع أن ينتقل لتحقيق وبحث المشكلات الأوسع والأعم[(٢)]، ذلك لأنه للمعارك الرئيسية أهميتها ليس فقط لتكشف لنا طبيعة العصور التي حدثت فيها، بل في أنها تعتبر النقاط الأساسية في قصة تقدم وتطور الفن العسكري،

=سنة ٤٨٩ ق. م.

(١) Geschichte der Kriegskunst. I, ٤١ – ٥٩.

(٢) نفس المرجع ج١ ـ ص٤١٧ .

أو بمعنى أدق هي نقاط التحول في مراحل هذا التطور المتتابع الحلقات لتقدم الفن العسكري.

ونستطيع أن نقول بأن دلبروك ـ يشبه في صورة ما الضابط الصغير الذي قدمه بروست في رواياته ـ كان يؤمن بأن معارك العصور القديمة هي «المرجع الذي تشتق منه وتستند إليه دراسته لمعارك العصر الحديث»، وأنه بإعادة تجسيم المعارك الفردية يستطيع متابعة التاريخ الحربي ومن ثم مكنه نقده الموضوعي من تطوير مناهجه الثلاثة الرئيسية، هذه المناهج التي أعطت عمله معنى ووحدة وتماسك لم توجد كلها في أي مؤلف سابق عرض لنفس هذا الموضوع الدراسي، وبخاصة في دراسة تطور الصور التكتيكية من عصر الفرس إلى عصر نابليون، ودراسة العلاقة المتداخلة بين الحرب والسياسة في التاريخ، وفي تقسيم الاستراتيجية إلى صورتين اثنتين أساسيتين.

وقد اعتبر وصف دلبروك لتطور التشكيلات التكتيكية واحدًا من أبرز ما أسهم به من دراسات في الفكر العسكري[١]، فلقد عني دلبروك بالكشف عن أسباب السيادة العسكرية للرومان في العالم القديم، وقد انتهى في بحثه لمعرفة سبب هذه السيادة إلى أن نجاح الرومان إنما يستند إلى كمال تشكيلاتهم التكتيكية، والذي كان التطور التدريجي من الـڤالاناكس

(١) F. J. Schmiet, Konrad Molinski and Siegried Mette, Hans Delbrueck: der Historikar und Politiker (Berlin, ١٩٢٨) p. ٩٦

Eugen Von Frauenholz, Entwicklungsgeschichte des deutschen Heerwesens, II, p. VII.

F. J. Schmiet, Konrad Molinski and Siegried Mette, Hans Delbrueck: der Historikar und Politiker (Berlin, ١٩٢٨) p. ٩٦.

Eugen Von Frauenholz, Entwicklungsgeschichte des deutschen Heerwesens, II, p. VII.

الإغريقي البدائي إلى التشكيل التكتيكي المنسق الذي استخدمه الرومان والذي جمع «الطابع الضروري لمراحل تطور الحرب القديمة»[١].

وقد ناقش دلبروك في تحوله إلى دراسات العصر الحديث أن إحياء التشكيلات التكتيكية ـ والتي لا تعتبر مخالفة لتشكيلات الرومان ـ في الحروب السويسرية / البورجندية ثم تطورها إلى الكمال في عصر نابليون، هو الذي أعطى التاريخ الحديث هذه الوحدة الحالية التي له.

وكانت معركة «كانّي»[٢] Cannac حيث تغلب القرطاجنيون بقيادة هانيبال على الرومان في أكمل معركة تكتيكية لا مثيل لها من قبل، نقطة التحول في تاريخ صناعة الحرب القديمة.

وهنا يعرض دلبروك لمناقشة: كيف استطاع الرومان أن ينتعشوا من هذه الهزيمة، وأن ينتصروا على القرطاچـنيين وأن يحققوا السيادة على كل العالم القديم؟

والواقع أن الإجابة عن هذا السؤال إنما تكمن في تطور الـڤالاناكس، وفي «كانّي» تشكل مشاة الرومان في كتلة واحدة تماثل تلك التي كسبت معركة مراتون، وكان الضعف الأساسي للـڤالاناكس هو الذي ألقى بالجيش الروماني بين ذراعي هانيبال، فإن الجانبيين المعرضين وعدم قدرة مؤخرة الرومان القيام بالمناورة مستقلة عن الجيش الروماني كله بسبب عدم استطاعة الرومان منع خيالة القرطاچـنيين من القيام بتكتيكات التطويق؛ ولكن حدثت في السنوات التي تلت كاني عدة تغييرات أساسية في تشكل

(١) Geschichte der Kriegskunts, II, ٤٣.

(٢) نفس المرجع ج١ هامش ص ٣٣٠ .

الرومان للمعركة، فقد جمع الرومان الـﭬالاناكس أولاً في كتلة واحدة، ثم قسموه إلى قولات Treffen، وعادوا فزادوا من تقسيمه إلى أقسام تكتيكية صغيرة يمكن في بعض الأحوال أن تتشابك متصلة ببعضها فتتكون عن هذا كتلة متحدة متماسكة لا تخترق، كما يكن في أحوال أخرى أن تغير من طابع تشكيلها في مرونة كاملة، فتتقسم وتتوزع، وتدور في هذا الاتجاه أو ذاك[(١)].

وقد يبدو هذا التطور للمحدثين ممن يدرسون صناعة الحرب شيئًا طبيعيًا إلى حد أنه لا يكاد يستحق الملاحظة ولا أن يثير الانتباه، ومع هذا فإن تحقيقه أو تنفيذه كان من الصعوبة بمكان، وكان الرومان وحدهم دون كل الشعوب القديمة هم الذين استطاعوا أن يحققوا هذا النجاح وهم لم يستطيعوا هذا إلا نتيجة لتجارب استمرت لمائة عام تغير الجيش فيها من مدنيين إلى محترفين، ونتيجة لتطبيق الضبط والربط الجيد الذي كان خاصية وميزة النظام الروماني[(٢)].

ولقد غزا الرومان العالم يوم ذاك، لا لأن جنودهم كانوا أشجع من خصومهم، بل لأنهم توافرت لهم ـ نتيجة للضبط والربط ـ وحدات تكتيكية أقوى[(٣)].

وكان الألمان وحدهم هم الذين استطاعوا النجاة من غزو الرومان، ولقد استطاعوا هذا بالمقاومة التي مكن منها الضبط والربط الطبيعي المتوارث في نظمهم السياسية وتبعًا لأن «القول» الألماني المقاتل

(١) نفس المرجع ـ ج١ ص٣٨٠ .
(٢) نفس المرجع ـ ج١ ص٣٨١، انظر أيضًا ج١ ص٢٥٣، فقد كان الرومان هم أول من أدرك تمامًا معنى قوة النظام والضبط والربط.
(٣) نفس المرجع ج٢ ص٤٣ .

Gevierthaufe كان مجموعة تكتيكية لها خطرها[١]، وبلا شك أن الألمان قد تعلموا ـ في مسير حروبهم مع الرومان ـ كيف يقلدون تجمع أو تكتل اللـچيون الروماني، وبذلك استطاعوا أن يوجهوا «قولاتهم» لتقوم بالمناورة منفصلاً بعضها عن بعض، أو أن يجمعوها في كتلة واحدة تبعًا للظروف[٢].

ومع اضمحلال الدولة الرومانية وتحول الإمبراطورية إلى الوحشية (البربرية) انتهى التقدم التكتيكي الذي أمكن تحقيقه منذ أيام ملتيادس Miltiades، فقد أضعفت الفوضى السياسية التي تبعث حكم سيـڤيري Severi ضبط وربط الجيش الروماني وقللت تدريجيًا من كمال تشكيلاته التكتيكية[٣]، وفي نفس الوقت لم يعد من الممكن ـ بسبب انضمام الكثيرين من المتبربرين إلى صفوف الجيش الروماني الاستمرار على استخدام تشكيل المعركة المجتمع المتماسك والذي تم تخطيطه على مر القرون، ولقد أوضح التاريخ أن للمشاة الميزة على الخيالة لو نظمت الوحدات المترجلة في وحدات تكتيكية قوية، ولكن مع اضمحلال الدولة الرومانية ومع استمرار تحول التكتيك من سيء إلى أسوأ بدأت الإمبراطوريات المتبربرة في الغرب ـ كما بدأ في جيش چوستنيان ـ تميل إلى استبدال وحدات المشاة المترجلة بقوات راكبة ثقيلة التسليح[٤] ومع تفضيل هذا الاتجاه انتهت الأيام التي كانت تكتيكات المشاة هي التي تقرر نتائج المعارك ودخلت أوروبا عصرًا

(١) نفس المرجع ج٢ هامش ص٤٥ .

(٢) نفس المرجع ج٢ هامش ص٥٢ .

(٣) نفس المرجع ج٢ ص٢٠٥، وهذا الفصل هو الفصل الأساسي في المجلد الثاني من الكتاب وقد وسم بعنوان:

Niedergang und Auflösung des römischen Kriegswesens.

(٤) نفس المرجع ج٢ هامش ص ٤٢٤ .

طويلاً سيطر فيه تعداد وحدات الخيالة الثقيلة التسليح حتى ليكون التاريخ الحربي وقفًا على الفرسان ذوي الدروع[١].

ولقد اتهم دلبروك بإصراره وتعضيد فكرة أن تطور الفن العسكري قد توقف تمامًا عند اضمحلال روما، وأنه بدأ يتابع سيرته الأولى من جديد مع عصر الإحياء (عصر النهضة)[٢]، ***والواقع*** أن لهذا الاتهام نصيبه من الحقيقة فإن العامل الفعال في كل الحروب منذ أيام شرلمان إلى ذروة قتال المشاة في الحروب السويسرية/ البورجوندية كان الجيش الاقطاعي، ولم يكن هذا الجيش في رأي دلبروك تشكيلاً تكتيكيًا فقد كان يتوقف على خاصية القتال في المحارب الفرد، ولم يكن يتوافر في الجيش الاقطاعي أي أثر للضبط والربط، ولا وحدة للقيادة، ولا تباين له أثره في التسليح، ولم يحدث في طوال هذا الأمد من السنين أي تقدم تكتيكي، ويبدو أن دلبروك كان تواقًا لأن يتمشى مع حديث مارك توين في كتابه Connecticut Yankee من أننا: «عندما نصل إلى مرحلة تصوير النتائج فإننا لا نستطيع أن نميز بين قتال وقتال، ولا أن نعرف من الذي كان يضرب ومن الذي كان يتلقى الضربات» صحيح أن الفرسان الإنجليز قد ترجلوا في معركة كريسي Crecy، وخاضوا غمار معركة دفاعية، وأن الفرسان المترجلين مرة أخرى في اجينكورت Agincourt قد قاموا بالهجوم مترجلين، ولكن هذا مجرد حوادث منفصلة، ولم تكن بحال ما تقديرًا مبكرًا لتطور المشاة الحديثة[٣].

(١) نفس المرجع ج٢ ص٤٣٣ .

(٢) T. F. Tout in English Historical Review, XXII (١٩٠٧), ٣٤٤ – ٣٤٨.

(٣) Geschichte der Kriegskunst, III, ٤٨٣.

ويمكن الرجوع إلى كتاب Tout لمناقشة نقد عميق لآراء دلبروك عن صناعة الحرب في القرون الوسطى.

وقد ولدت المشاة المستقلة، المنفصلة، القادرة على العمل وحدها، ولدت من جديد بين السويسريين في القرن الخامس عشر: ونقابل في معارك لوپن Laupen، وسمباخ Sempach(*)، وجرانسون Granson، ومورتن Murren، ونانسي Nancy مشاة مترجلين في تشكيلات يمكن مقارنتها بالـڤالاناكسي واللـچيون(١)؛ وقد شكل حاملوا الفؤوس والبلط السويسريون أنفسهم في وحدات تشبه القولات الألمانية(٢) Geviethaufe، وقد استطاعوا في حروبهم ضد البورجونديين أن يطبقوا تكتيكات التجمع التي استخدمها الليـچيون الروماني؛ ففي سمباخ على سبيل المثال تقسم السويسريون إلى قسمين: إحدهما احتل موقعًا دفاعيًا لتثبيت قوات العدو الراكبة على حين قام القسم الثاني بتوجيه ضربة قاضية على جنب العدو(٣).

وكان إحياء التشكيلات التكتيكية ثورة عسكرية تقارن بتلك التي جاءت بعد معركة «كانِّي»، وكان هذا الإحياء ـ لا إدخال الأسلحة النارية ـ هو الذي قضى على حروب الإقطاع، ففي كل من معارك مورتن وجرانسون ونانسي استخدمت الأسلحة الحديثة ولكن لم يكن لهذا الاستخدام تأثير في نتيجة المعركة(٤).

ومع العودة إلى الوحدة التكيتكية للمشاة على أساس أنه في الوحدة الحاسمة في الحرب بات الجنود الراكبون مجرد قوات راكبة لها نفعها، ولكنها

(*) سمباخ في منطقة «لوسرن» اشتهرت بالنصر الذي حققه السويسريون على النمسويين.

(١) راجع الفصل الأول من الكتاب الأول (رواد الاستراتيـچية الحديثة) وراجع أيضًا Geschichte der Kriegskunst, III, ٦٦١.

(٢) نفس المرجع ج٣ ص٦٠٩ .

(٣) نفس المرجع ج٣ ص٥٩٤ .

(٤) نفس المرجع ج٤ ص٥٥ .

لا تزيد عن اعتبارها جزءًا إضافيًا ملحقًا بالجيش، وقد ناقش دلبروك هذا التطور كما ناقش تطور المشاة الحديثة في الجيش العامل المحترف في المجلد الرابع من كتابه، وأكمل مناقشته بحديث خرج فيه إلى أن الثورة الفرنسية هي التي مكنت من قيام الثورة في فن القتال (التكتيك)[١].

وهذه العناية التي يوجهها دلبروك لمناقشة البروز الفجائي للتشكيلات التكتيكية لا يعطي طابع الاستمرار لدراساته للتاريخ العسكري فحسب، بل ويمكن أيضًا من تصوير الرأي (المذهب) الذي اعتبره دعامة كتابه، ألا وهو: «الرابطة القوية بين السياسة والحرب»؛ ولقد أشار دلبروك بأنه في كل فترة من فترات التاريخ كان تقدم السياسة وتطور التكتيك يرتبطان وثيقًا، «ولقد تطور الـڤالاناكس الإغريقي في حكم الملوك المقدونيين في حال تختلف تمامًا عن تطور الـڤالاناكس الروماني في الجمهورية الرومانية الأروستقراطية، حيث تطورت تكتيكات الجماعة تبعًا للتغير الدستوري؛ ومرة ثانية قاتل «قول المائة» الألماني ـ تبعًا لطبيعة تكوينه ـ في أسلوب وبنظام يختلف عن قتال الجماعات الرومانية»[٢].

وعلى سبيل المثال هزم الجيش الروماني في «كانِّي» لضعف تكتيكاته: ولكن الحقيقة التي يجب ألا تغفل أن الجيش الروماني بالإضافة إلى ضعف تكتيكاته كان مكونًا على أساس مدنيين أكثر من أن يكون مكونًا من جنود محترفين، هذا فضلاً عن أن دستور الدولة كان يقضي بأن تنقسم القيادة بين القنصلين[٣].

(١) راجع الفصل الثالث.

(٢) Geschichte der Kriegskunst, II, ٤٢٤.

(٣) نفس المرجع ج١ ص٣٠٥.

ومعنى هذا أنه كان للقنصلين حق توجيه وقيادة القوات المسلحة، وقد وضحت في السنوات التي تبعت «كانِّي» الحاجة لتوحيد القيادة، وفي سنة ٢١١ قبل الميلاد ـ بعد تجارب سياسية متباينة الأهداف والسمات ـ عين ب. س. شيبيو[*] قائدًا عامًا للجيوش الرومانية في إفريقية مع ضمان بتوليه هذا المنصب طوال الحرب، وكان هذا التعيين اختراقًا مباشرًا لدستور الدولة كما أنه كان بداية اضمحلال التعاليم والمبادئ الجمهورية، وهنا تبدو بوضوح العلاقة بين السياسة والحرب.

يقول دلبروك «وأهمية الحرب الفينيقية Second Punic War[**] في سجل تاريخ العالم أن روما قد بدأت تحولاً داخليًا زاد من إمكانياتها العسكرية بدرجة كبيرة»[١] ولكنه كان في نفس الوقت يغير من الطابع العام للدولة.

وكما كان العامل السياسي مبرزًا في كمال التكتيكات الرومانية فمن الممكن أن نفسر تفتت التشكيلات التكتيكية بدراسة معنى بها للتعاليم

(*) شيبيو أحد أفراد أسرة قديمة من الأسر الرومانية والتي كان فيها الكثيرون من رجال الدين، وللأسرة سجل حافل في تاريخ الدولة الرومانية الغربية.

(**) الحروب الفينيقية Punic War، الحروب بين روما وقرطاجنة والتي جاءت في ثلاث مراحل:

١ ـ ٢٦٤ ـ ٢٤١ قبل الميلاد. ٢ ـ ٢١٨ ـ ٢٠١ قبل الميلاد. ٣ ـ ١٤٩ ـ ١٤٦ قبل الميلاد.

وفي الحرب الأخيرة تم النصر النهائي لروما، والكلمة أصلًا من كلمة Phoenisian أي «فينيقية» نسبة إلى الفينيقيين السكان الأصليين لقرطاجنة، واستمرت اللغة الفينيقية لغة التخاطب في أجزاء من الإمبراطورية الرومانية الغربية حتى سنة ٥٥٠ بعد الميلاد.

(١) نفس المرجع ج١ ص٣٣٣ .

السياسية للإمبراطورية في عصر متأخر: فلقد كان للاضطراب السياسي والاقتصادي في القرن الثالث تأثير مباشر على التعاليم العسكرية الرومانية إذ «دمرت الحرب الأهلية المستمرة الدعامات القوية التي أبقت الجيش الروماني متماسكًا، ولم تكن هذه الدعامات غير الضبط والربط الذي أبقى لتشكيل اللـجيون قيمته وأهميته»[١].

ولم يضمن دلبروك كتابه «تاريخ فن الحرب» أي نقاش عام للعلاقة بين السياسة والحرب، ولكنه في تحركه وتنقله من مرحلة تاريخية إلى مرحلة تاريخية أخرى هَيَّأَ وضع الدراسات الخالصة للعسكرية في النطاق العام للدراسة كلها، مصورًا الارتباط الوثيق بين التعاليم السياسية وبين التعاليم العسكرية، وموضحًا كيف أن التغير في أحد النطاقين (الميدانيين) يؤدي بالضروري إلى تغير مماثل في الميدان الآخر.

وأوضح دلبروك أن الكلمة الألمانية Gevierthaufe إنما هي التعبير العسكري للتنظيم القروي (التنظيم الذي يقوم على أساس القرية) للقبائل الألمانية، كما أوضح كيف سببت حياة المجتمع الألماني اختفاء هذا التشكيل القبلي، وانتهاء استخدامه كوحدة تكتيكية[٢]، كما بين كيف أمكن تحقيق انتصارات السويسريين في القرن الخامس عشر نتيجة لاندماج العناصر الديمقراطية والعناصر الأرستقراطية في مختلف المجتمعات، ونتيجة اتحاد وانغمار نبلاء الأقاليم في جماهير الفلاحين[٣]، وكما أوضح كيف أن العامل السياسي في الثورة الفرنسية والذي كان نشوء فكرة الدفاع عن الوطن الأم

(٢) نفس المرجع ج٢ ص٢٠٩ .
(٢) نفس المرجع ج٢ ص٢٥ ـ ٢٨ .
(٣) نفس المرجع ج٣ ص٦١٤ .

قد أثار حمية جمهرة الجنود إلى الحد الذي مكن من تطور تكتيكات جديدة تلائم طابع العصر[(١)].

على أن الناس كانوا قد تقبلوا مبدأ ارتباط السياسة والحرب كحقيقة واقعة حتى قبل عصر دلبروك ولكن كان من الضروري أن تدرس هذه الحقيقة من كل زاوية وأن تصور بوساطة الحوادث الجارية، وكان الدور الهام الذي قام به دلبروك أنه صور في أسلوب متتابع منتظم العلاقة بين العامل السياسي والعامل العسكري في كل عصر.

وكانت أهم النظريات العسكرية التي خرج بها دلبروك قوله بأن الاستراتيـچية العسكرية يمكن أن تنقسم إلى قسمين أساسيين، وهذه النظرية التي صاغها دلبروك قبل طبع كتابه «تاريخ فن الحرب» بوقت طويل قدمها مجملة في أكثر من مكان من المجلدين الأول والرابع من كتابه[(٢)].

وقد آمنت غالبية المفكرين العسكريين في عصر دلبروك ـ بتأثير كتاب كلاوزيـڤتز «في الحرب» ـ بأن الغرض من الحرب هو التدمير الكامل لقوات العدو، وأن «المعركة» التي تحقق هذا الغرض هي بالتبعية نهاية كل استراتيـچية؛ وقد اقتنع دلبروك نتيجة لبحوثه الأولى في التاريخ العسكري بأن هذا اللون من التفكير العسكري لم يكن مقبولاً من وجهة عامة دائمًا، وأنه في عصور طويلة من التاريخ سيطرت على الميدان استراتيـچية تباين هذه تمامًا، وقد أدرك دلبروك أن كلاوزيـڤتز نفسه قد اعترف بإمكان وجود أكثر من نظام من النظم الاستراتيـچية، وفي مذكرة كتبها كلاوزيـڤتز سنة

(١) نفس المرجع ج٤ ص٤٧٤ .

(٢) نفس المرجع ـ ج١ ص١٠٠، ص٣٣٣ ـ ٣٦٣، ٤٢٦ ـ ٤٤٤ .

١٨٢٧ قال بأن هناك أسلوبين متضادين تمامًا لتوجيه الحرب وإدارتها: أحدهما يقوم على الإفناء الكامل للعدو، أما الثاني فهو الحرب المحدودة التي يكون فيها هذا الإفناء مستحيلاً إما بسبب الأهداف السياسية، وإما بسبب أن الجذب السياسي الذي أدى إلى الحرب صغير، أو بسبب أن الوسائل العسكرية لا تكفي لتحقيق هذا الإفناء(١).

ولم يعش كلاوزيـڤتز طويلاً بالقدر الذي يمكنه أن يقوم بأكثر من أن يقرر وجود هذين القسمين للاستراتيـچية، وقد تقبل دلبروك هذا التقسيم، وراح يفسر المبادئ التي تضمنتها كل من هاتين الصورتين من صور الحرب.

وقد أطلق دلبروك على الصورة الأولى - والتي وقف عليها كلاوزيـڤتز كتابه «في الحرب» أسماها «استراتيـچية الإفناء» Niederwerfungsstrategie والهدف الوحيد لهذه الاستراتيـچية الوصول إلى المعركة الحاسمة، وكان على القائد أن يقدر أَمِنَ الممكن أن يقاتل هذه المعركة؟ أي أن يقاتل «باستراتيـچية الإفناء» في حال معينة محددة.

وأطلق دلبروك على النوع الثاني «استراتيـچية الإجهاد» Ermattungsstrategie ويتميز هذا اللون من الاستراتيـچية عن اللون الأول، بأن لاستراتيـچية الإفناء «قطب» واحد هو «المعركة» على أن لاستراتيـچية الإجهاد قطبين هما: «المعركة» و «المناورة»، وتجيء بين هذين القطبين قرارات الاتجاه العام للحركة.

ولا تكون المعركة في «استراتيـچية الإجهاد» هي الهدف الوحيد، بل

(١) راجع الفصل الخامس من كتاب «رواد الاستراتيـچية الحديثة» ج١ - الحديث عن استراتيـچية الإفناء.

تكون المعركة واحدة من الوسائل الكثيرة المتعددة المتساوية التأثير للحصول على النتائج أو الأغراض النهائية للحرب. ثم إنها ليست أكبر أهمية من احتلال الأرض أو من تدمير المحصولات وتعطيل التجارة والحصار الاقتصادي؛ ثم إن هذه الصورة الثانية من صور الاستراتيـچية ليست مجرد صورة أخرى تباين الصورة الأولى، وليست كذلك بأقل أهمية منها في مراحل معينة من التاريخ كانت هي الصورة الوحيدة التي يمكن استخدامها بسبب العوامل السياسية أو بسبب صغر حجوم الجيوش؛ هذا عدا أنها (استراتيـچية الإجهاد) تفرض على القائد واجبًا له ذات الصعاب التي تفرضها استراتيـچية الإفناء، ومع النقص في الموارد المحدودة فإن القائد باستخدامه لاستراتيـچية الإجهاد يجب أن يقرر أفضل وسيلة لتحقيق الغرض الذي يستهدفه، أن يقرر متى يقاتل ومتى يقوم بالمناورة؟ متى ينفذ قانون «الجرأة والمغامرة» ومتى ينصت لأوامر مبدأ «الاقتصاد في القوة»؟؛ ومن هنا يكون القرار في الواقع قرارًا موضوعيًا، والسبب الرئيسي لهذا أنه لا يمكن في أي وقت أن تكون كل الظروف والأحوال ـ وبخاصة ما يجري في معسكر العدو ـ معروفة تمامًا وبدقة وأن تتوافر المعلومات عنها ـ من مصادر موثوق بها.

والواقع أن القائد يجب بعد أن يقدر بعناية كل الظروف: الهدف من الحرب، القوات المتضادة، التيارات السياسية، شخصية قائد جيش العدو، الحكومة، الشعب المعادي المضاد، الشعب الذي ينتسب إليه القائد نفسه، بعد دراسة هذا بعناية يقرر القائد ما إذا كان من الأفضل خوض غمار المعركة أم لا.

ويستطيع القائد أن يصل إلى قرار بضرورة تجنب أي معركة كبيرة مهما

كان الثمن، ويستطيع أيضًا أن يقرر الاشتباك في المعركة كلما سنحت الفرصة، وبذلك لا يكون من فرق بين تقديره هذا وبين التقدير الناتج عن استراتيـچية ذات قطب واحد(١).

وكان الاسكندر، وقيصر، ونابليون من بين كبار القادة القدامي الذين ا شتهروا باستراتيـچية الإفناء، ولكن في مقابلة هذا كان كل كبار القادة على السواء في مناصرتهم لاستراتيـچية الإجهاد، وقد ذكر دلبروك في مقدمة سادة استراتيـچية الإجهاد أسماء: بركليز، وبيلسارياس، والنشتايين، وچوستاف أدولف، وفردريك الأكبر(*).

وقد عرض دلبروك لسيل عارم من النقد لوضعه اسم فردريك الأكبر بين المجموعة الثانية، وكان أعنف ناقديه من مؤرخي هيئة أركان الحرب الذين يعتقدون بأن استراتيـچية الإفناء هي الاستراتيـچية الوحيدة الصحيحة، وأن فردريك الأكبر كان الرائد الذي سلك نابليون السبيل بوحيه وعلى هديه.

وقد أجاب دلبروك على هذا النقد بأن التمسك بوجهة النظر هذه إنما يعني الإساءة إلى فردريك؛ لأنه لو كان فردريك حقًا من الاستراتيـچيين

---

(١) H. Delbrück, Die Strategie des Prikles elaütertdurch die Strategie Friedrichs des Grossen (Berlin, ١٨٩٠), ٢٧ - ٢٨.
وفي هذا الكتاب قدم دلبروك أفضل توضيح استطاعه لصورتي الاستراتيـچية.

(*) والنشتاين Wallenstein or Waldstein (البرت ڤينيلاس أوف والنشتاين) دق فريد لاند قائد ألماني ولد سنة ١٥٨٣ في هيرمانس، قتل في ايجا Ega سنة ١٦٤٣، قام بدور كبير في حرب الثلاثين السنة.
بيلسارياس من قادة الإمبراطورية الرومانية الشرقية عاش من سنة ٥٠٥ إلى سنة ٥٦٥ بعد الميلاد. معجم ويبستر ص١٣٥. (المترجم).

الذين انصرفوا إلى استراتيـچية الإفناء لما كان من الممكن أن نفسر كيف أن فردريك ـ وتحت امرته ستون ألف جندي ـ رفض أن يهاجم جيشًا مهزومًا لا يزيد تعداد جنوده على خمسة وعشرين ألفًا، أو أن نفسر كيف أنه أيضًا في سنة ١٧٤٥ فضل بعد انتصاره العظيم في هوهنفريدبرج» Hohenfriedberg أن يعود ثانية إلى «المناورة»(١).

ولو كانت «استراتيـچية الإفناء» هي الفيصل الوحيد للحكم على خاصيات القائد لبدا فردريك في صورة باهتة لا قيمة لها(٢)، ومع هذا فإن عظمة فردريك إنما تكمن في أعطاف حقيقة أنه مع إدراكه بأن موارده ليست كبيرة بالقدر الذي يكفي لتمكينه من القيام بخوض غمار المعركة في كل فرصة فإنه كان قادرًا على استخدام مبادي استراتيـچية أخرى ليكسب الحروب التي يخوضها.

ولم يقنع ناقدو دلبروك بحججه وبالنقاط التي أثارها في جدله، وانضم لناقديه كولمار ڤون ديرجولتز، وفردريك ڤون برناردي(*) وبدأت حرب على الورق استمرت لعشرين سنة أو ما يزيد(٣).

---

(١) Preussische Jahrbücher CXV (١٩٠٤) ٣٤٦٨f.

(٢) كتب دلبروك في كتابه Strategie des Perikles
مفاخرًا بأنه قد أوضح أن تطبيق مثل هذا «الفيصل» للحكم على حملات فردريك الأكبر ليثبت أن فردريك قائد من الدرجة الثالثة ولهذا فقد اتهم Prussian Landtag بالعمل لتقليل قيمة بطل قومي.

(*) كولمار ڤون دير جولتز: من قادة الجيش الألماني وخدم في إعداد الجيش التركي، وكان برتبة المشير مع قيامه بأعمال ياور ومستشار عسكري للسلطان العثماني، وله عدة مؤلفات أهمها «فن إدارة الحرب» وقد ترجم إلى العربية ونشرته وزارة الحربية والبحرية بالقاهرة سنة ١٩٥٠ من ترجمة العميد حامد نيازي.

(٣) نجد كل هذه المساجلات مع بيان الصحف التي نشرت بها مفصلة في: =

ولم يجهد دلبروك الذي يحب الجدل والمناقشة ولم يكل من الرد على ناقديه ودحض حججهم وتأكيد نظرياته وإثباتها بالدليل والبرهان، ولكن نظريته عن «استراتيـجية الإجهاد» لم يتقبلها الضباط الذين دربوا على تقاليد نابليون ومولتكة والذين آمنوا بأفضلية الحروب الحاسمة القصيرة الأمد.

ولكن النقاد العسكريين قد أخطأوا تمامًا إدراك عمق وأهمية نظرية دلبروك الاستراتيـجية، ولقد أوضح التاريخ أنه لا يمكن أن تكون نظرية استراتيـجية واحدة، صحيحة صالحة لكل عصر، فعلى مثال كل مراحل صناعة الحرب ارتبطت الاستراتيـجية وثيقًا بالسياسة وبالحياة وبقوة الدولة وفي حروب شبه جزيرة اليونان: الحروب البيلوبونيزية(*) Peloponnesian

Geschichte der Kriegskunst IV, ٤٣٩ - ٤٤٤=

راجع أيضًا كتاب ڤون برناردي Denkwürdigkeiten aus meinem Leben

طبع برلين سنة ١٩٢٧ الصفحات ١٢٦ ــ ١٣٣ ـ ١٤٣، على أن أهم نقد لنظرية دلبروك الاستراتيـجية كان نقد أوتو هنتز Otto Hintze في كتابه:

Delbrück, Clausewitz und die Strategie Friedrichs des Grossen Forsuchungen Zur Brandenburglichen und Preussischen Geschichte XXX III (١٩٢٠) ١٣١ – ١٧٧

ويعترض هنتز على الفواصل الحادة التي يرسمها دلبروك بين استراتيـجية عصر فردريك وبين استراتيـجية عصر نابليون، ويعتبر أن فردريك كان في فترة ما يطبق «استراتيـجية الإفناء» وفي فترة أخرى يطبق «استراتيـجية الإجهاد»، ويناقش هنتز أيضًا تفسيرات دلبروك لنوايا كلاوزيـڤتز كما فعل هـ. روسينسكي H. Rosinski في كتابه: Historische Zeitschrift

راجع أيضًا إجابة دلبروك على كتاب هنتز:

Forschungen zur Brandenburgischen und Preussischen Gechichte XXXIII (١٩٢٠) ٤١٢ - ٤١٧.

(*) الحروب البيلوبونيزية نسبة إلى المسرح الذي دارت به في شبه الجزيرة الجنوبي لبلاد اليونان أسفل خليج كورنيث، وحدثت الحروب بين أثينا وإسبارطة لمدى طويل غطى سبعًا وعشرين سنة بين ٤٣١ ـ ٤٠٤ قبل الميلاد وانتهت الحروب بانتصار اسبارطة، وكان شبه الجزيرة مواطن الحضارة الميسونية Mycenean وحضارة إسبارطة القديمة.

Wars كان ضعف أثينا السياسي، بمقارنته بالضعف السياسي للعصبة التي واجهتها، هو الذي قرر صورة الاستراتيـچية التي اتبعها بركليز، ولو أنه حاول أن يتبع مبادئ استراتيـچية الإفناء كما فعل صولون فيما بعد لكانت النتيجة الحتمية هزيمته آليا(١).

وقد أثرت العلاقات السياسية المتوترة بين الإمبراطورية الرومانية والفرس في صياغة استراتيـچية حروب بليساريوس Blisarius في إيطاليا: «وهنا كانت السياسة هي التي توجه الحرب وهي التي ترسم الاستراتيـچية التي تتبع فيها»(٢)؛ ومرة أخرى «تقررت استراتيـچية حرب الثلاثين السنة Thirty Years War تبعًا للعلاقات السياسية المتعقدة والدائمة التغير» واضطر قادة كـچوستاف أدولف ـ الذي لا جدل في شجاعته وجراءته ـ إلى خوض غمار حروب محدودة(٣).

ولم تكن المعارك التي كسبها فردريك هي التي جعلت منه قائدًا عظيمًا، بل كانت فطنته السياسية وتنسيقه بين استراتيـچيته وبين السياسة الواقعية هما سبب هذه العظمة التي وصف بها وجرت من اسمه مجرى الأصل.

والواقع أنه لا يمكن أن يكون لأي أسلوب استراتيـچـي كفاية ذاتية: بل إن مجرد محاولة هذا تفصلها تمامًا عن القرينة السياسية التي تربطها بها، ويكون رجل الاستراتيـچية (الاستراتيـچـي) في هذه الحال، عاملاً مهددًا للدولة.

(١) Geschichte der Kriegskunst,I, ١٠١ f.

(٢) نفس المرجع ج٢ ص٣٩٤ .

(٣) نفس المرجع ج ٤ ص ٣٤٦ .

ويبدو أن الانتقال من الحروب الأسرية إلى الحروب الأممية، أي الانتقال من الحروب بين الأسر الحاكمة إلى الحروب التي تقف الأمم فيها موقف التضاد بعضها من بعض، وكذلك انتصارات سنة ١٨٦٤، ١٨٦٦، ١٨٧٠، وزيادة إمكانيات الحروب الأممية في العصر الحديث، يبدو أن هذه كلها إنما تثبت أن استراتيـجية الإفناء هي الصورة الطبيعية للحرب في العصر الحديث.

ويبدو أن دلبروك نفسه عاد في سنة ١٨٩٠ ـ برغم إصراره على نسبية الاستراتيـجية ـ فآمن بأن هذه حقيقة[١] ومع هذا ففي السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر تحولت جيوش الحقبة السادسة من القرن التاسع والتي قامت على ضغط حشد الجموع، تحولت إلى جموع بالملايين Millicnenheer، هذه الجموع التي خاضت غمار الحرب العالمية الأولى.

فهل لا يكون هذا التحول هو الذي جعل استخدام استراتيـجية الإفناء مستحيلاً وأرغم على العودة إلى مبادئ بركليز وفردريك؟

وهل لا تعتبر الدولة وكأنها تواجه خطرًا كبيرًا محققًا ما دامت هيئة أركان الحرب ترفض أن تعترف بوجود طريقة تبادلية وأسلوب آخر للحرب؟

لقد كان هذان السؤالان ـ اللذان وضحا في كل كتابات دلبروك ـ على كل شفتين عندما بدأت ألمانيا الحرب العالمية الأولى.

ـ ٣ ـ

ولما كان دلبروك أخصائي ألمانيا المدني الأول في الشئون العسكرية كان

(١) Strategie des Perikles, Chapter,I.

لكتاباته العسكرية في سني الحرب ١٤ ـ ١٩١٨ ـ تقديرها الكبير: وهو كمعقب عسكري لم تكن مصادره للمعلومات أفضل في صورة ما؛ مما توافر لغيره من كتاب الصحف والدوريات من مصادر، وكان مثلهم أيضًا مرغمًا على أن يعتمد على البلاغات الرسمية التي تصدرها هيئة أركان الحرب، وعلى المقالات والدراسات والقصص التي تنشرها الصحف اليومية عن سير الحرب، وعلى التقارير التي ترد من الدول المحايدة؛ فإذا كانت تقديراته للحرب قد امتازت بسعة التصور ودقة الفهم مما لا يتوافر عادة للمعقبين المدنيين فإن هذا يرجع إلى درايته بأصول الحرب الحديثة وإلى عمق تفهمه لها نتيجة لدراساته للتاريخ، وفي تعليقاته الشهرية التي كان ينشرها في Preussishe Jahrbücher يمكن أن نجد عرضًا للمبادئ التي رسمها ووصفها في كتاباته ومؤلفاته التاريخية، وبخاصة ما جاء عن نظريته في الاستراتيـچية وفي تأكيده للعلاقة التي تربط بين الحرب والسياسة(١).

وتمشيا مع استراتيـچية شليـڤـن اندفع الجيش الألماني في البلـچيك سنة ١٩١٤ بقصد تحطيم المقاومة الفرنسية في وقت قصير ليمكن نقل

(١) جمعت المقالات التي كتبها دلبروك في Preussische Jahrbücher في ثلاثة مجلدات وسمت بعنوان «الحرب والسياسة» Krieg und Politik (برلين ١٩١٨ ـ ١٩١٩)، وقد أضاف دلبروك للصورة الأصلية التي ظهرت بها المقالات لأول نشرها، أضاف بعض الملاحظات مع مجمل طريف لكل منها؛ وقد جاء أحسن نقد دراسي لكتابات دلبروك عن الحرب في المقال الذي كتبه الـچنرال ارنست بكفنك Ernest Buchfinck والتي وسمت بعنوان:

"Delbrücks Lehre, das Heer und der Weltkrieg", in Am Webstuhl der Zeit pp. ٤١ - ٤٩.

راجع أيضًا مقال م. ڤون هوبوهم M. Von Hobohm

"Delbrück, Clausewitz und die Kritik des Weltkrieges", Preussische Jahrbücher, CLXXXI (١٩٢٠), ٢٠٣ - ٢٣٢.

الضغط كله ضد روسيا، كان هذا التخطيط .. «استراتيـچية الإفناء» في أقوى صورها، وقد شعر دلبروك نفسه في الشهر الأول للحرب أن لهذه الاستراتيـچية نصيبها من الصحة، وكان دلبروك كأغلب الذين يتبعون دراساته لا يشعر بخوف من المقاومة الفرنسية، ذلك لأنه لن يكون للسياسة الفرنسية غير المستقرة إلا التأثير الضار الوبيل على التعاليم الفرنسية العسكرية، «فمن المستحيل أن يتوافر لجيش تولى أمره اثنان وأربعون وزيرًا في ثلاث وأربعين سنة، كفاية مع خاصية تنظيمية لها قيمة»(١).

ولم يشعر دلبروك بأن انجلترا قادرة على متابعة المقاومة فإن تطورها السياسي في الماضي لن يمكنها من تعبئة أكثر من قوة رمزية، فلقد كانت انجلترا تعتمد دائمًا على جيوش محترفة صغيرة العدد، وسيكون من المستحيل الاتجاه إلى التجنيد العام وسيكون هذا مستحيلاً من الناحيتين السياسية، والسيكلوچية: «إن كل شعب وليد تاريخه وماضيه، ولا يستطيع الشعب أن يتخلص من هذا بأكثر مما يستطيع الرجل أن يتخلص مما اكتسب في فتوته وشبابه»(٢).

وعندما توقفت حركة الاندفاع الألمانية عاجزة عن إدارك هدفها على مرمى حجر من هذا الهدف، وبدأت الفترة الطويلة لحرب الخنادق شعر دلبروك بثورة استراتيـچية لها أهميتها الكبيرة، فلما استمر هذا الموقف الحرج في الغرب وبخاصة بعد الفشل في ڤردون، ازداد اعتقاد دلبروك بضرورة

---

(١) Krieg und Politik. المجلد الأول ص٣٥ .

(٢) توضحت وجهات نظر دلبروك عن ضعف انجلترا كقوة عسكرية بدرجة كبيرة في مقال نشر في شهر إبريل سنة ١٩١٦ .
راجع: Krieg und Politik, I, ٢٤٣ - ff.

تعديل تفكير القيادة الألمانية العليا.

***

كانت الأوامر ـ على الأقل في الغرب ـ القيام بالدفاع وكان لهذه الحقيقة طابعها المميز؛ ذلك لأنه منذ بعيد قبل الحرب كان للهجوم الصدارة على غيره من مبادئ الحرب، وكان الإصرار على الهجوم والحديث عنه والتدريب عليه أبرز الصور في النظرية الاستراتيـچية التي تحتضنها وتكفلها هيئة أركان الحرب الألمانية[(١)].

وكان من الواضح إذ ذاك أن مجريات الأمور في الجبهة الغربية تكاد تشبه مجرياتها في عصر «استراتيـچية الإجهاد» «ومع أن هذه الحرب ـ الحرب العالمية ا لأولى ـ قد جاءتنا بالكثير مما هو جديد إلا أنه من الممكن أن نجد فيها عددًا من الأقيسة التاريخية، فعلى سبيل ا لمثال: تقدم الاستراتيـچية الفردريكية بما تستخدم من مواقع دفاعية لا تخترق مع المزيد من المدفعية ومع تحصينات الميدان ومع القرارات التكتيكية السريعة وعمليات الانسحاب (البعيدة المدى) الطويلة، وكل هذا هو نموذج لا يمكن الخطأ في إدراك أنه يماثل الصورة العامة للحرب اليوم، حرب المـــــواقع والتي تستندإلى محاولةإجهادالعدوالمهاجم Stellungs - und Ermattungskrieg)[(٢)]؛ وهكذا لم يعد من الممكن في الغرب الاعتماد على المعركة الحاسمة ومن ثم يجب على ألمانيا أن تجد وسائل أخرى لتفرض رغبتها على العدو.

وفي ديسمبر سنة ١٩١٦ كان دلبروك يشير إلى أنه: «مهما كان الموقف

---

(١) نفس المرجع ج٢ ص٢٤٢ .

(٢) نفس المرجع ج٢ ص١٦٤، راجع أيضًا ج٢ ص١٧ .

العسكري في جانب ألمانيا فمن النادر أن تستطيع ألمانيا ـ مع استمرار الحرب ـ الوصول إلى المدى الذي يمكنها في بساطة من إملاء شروط السلم على الحلفاء[١]، فمن «غير المحتمل» إن لم نقل: «من المستحيل» أن تحقق الأسلحة الألمانية نصرًا كاملاً ساحقًا، ولكن هذا لا يعني أن ألمانيا لن تتمكن من كسب الحرب، فإن موقعها للداخل (أي على القطر لا على المحيط) لم يجعلها تفصل بين خصومها فحسب، بل وعاونها على الاحتفاظ بقوة المبادأة، وكانت قوتها من المناعة إلى الحد الذي ييسر لها إقناع أعدائها بأنها لا تقهر، وعلى حين أن الدفاع القوي الذي تقوم به ألمانيا في الغرب يفت من عزيمة الحلفاء فإن القيادة العليا قد حزرت فائدة القاء أقوى وحداتها تجاه أضعف الحلقات في حلف الغرب، أي ضد: روسيا وإيطاليا فإن الحشد الهجومي ضد روسيا سيكمل تحطيم معنويات جيوش القيصر كما قد يسبب قيام الثورة في سان بطرسبرج، ثم إن الهجوم الألماني/ النمسوي ضد إيطاليا لن يكون له التأثير المعنوي الكبير في انجلترا وفرنسا فحسب، بل ولربما يهدد مواصلات فرنسا مع شمال إفريقية[٢].

وكان دلبروك يعتقد يوم ذاك أن الاستراتيجية الألمانية يجب أن توجه لتحطيم الحلف الغربي، ومن ثم يعزل انجلترا وفرنسا. على أنه من الأهمية أيضًا ألا ينضم إلى الدول الغربية حلفاء جدد؛ ولهذا كان دلبروك دائمًا يعارض بقوة استخدام الغواصات استخدامًا واسع النطاق، وكان محقًا في خوفه من أن هذا الاستخدام سيسبب اشتراك الولايات المتحدة في

(١) نفس المرجع ج٢ ص٩٧ .

(٢) E. buchfinck, "Delbrücks Lehre, das Heer und der Weltkrieg" Loc. cit, p. ٤٨.

الحرب[١].

فإذا نظرنا إلى آخر ما في الدراسة التحليلية خاصًا بكسب ألمانيا الحرب، فإنه من الضروري ـ لتحقق ألمانيا هذا ـ أن توضح تفهمًا تامًا للحقائق السياسية الواقعية المؤثرة في الصراع العسكري، ولما كانت الحرب في الغرب قد تحولت إلى «حرب إجهاد» لا «حرب إفناء» فقد ازدادت أهمية العوامل السياسية، «فالسياسة هي العامل المحدد للعمل، ثم هي العامل الذي له السيادة على غيره وليست العمليات الحربية بأكثر من وسيلة من الوسائل التي تستخدمها السياسة»[٢]، ومن ثم يجب أن توجه الاستراتيـچية السياسية لإضعاف عزيمة شعبي فرنسا وانجلترا.

***

وقد شعر دلبروك منذ أن بدأت الحرب أن ألمانيا قد قاست الأمرين ـ في الميدان السياسي ـ نتيجة ضعف استراتيـچـي حقيقي .. «ونحن بسبب سياستنا القصيرة النظر، بصبغ المناطق البولندية والدانيماركية من بروسيا بالطابع الألماني، اكتسبنا أمام العالم شهرة لا على أننا حماة الدول الصغيرة بل أننا مضطهدوها»[٣] فإذا ما أكد سير الحرب من هذه الحقيقة اكتسب أعداء ألمانيا تشجيعًا معنويًا يمكنهم من القضاء على أمل ألمانيا في النصر الكامل.

***

وتحول دلبروك للتاريخ وراح يناقش تاريخ نابليون كمثل يصلح

---

(١) Krieg und Politik, l, ٩٠, ٢٢٧ ff, ٢٦١.

(٢) نفس المرجع ج٢ ص٩٥ .

(٣) نفس المرجع ج١ ص٣ .

لتحذير الزعماء السياسيين الألمان، فإن الانتصارات الساحقة التي حصل عليها مكنت في نفس الوقت من تقوية عزيمة خصومه ومهدت الطريق لهزيمته، «ولعل الله – سبحانه وتعالى – يحول دون اتباع ألمانيا سبيل السياسة النابوليونية، فإن أوروبا تقف متحدة متماسكة في صمودها أمام ألمانيا، ولن تخضع ولن تستسلم للسيادة والسيطرة التي تريد أن تفرضها عليها دولة واحدة»(١).

وقد آمن دلبروك بأن غزو البلچيك كان ضرورة استراتيچية(٢)، ولكنه كان في نفس الوقت تحركًا غير محدود الطالع، ذلك لأنه أكد الشك في أن ألمانيا تهدف لابتلاع الدول الصغيرة؛ وقد بقي دلبروك من سبتمبر سنة ١٩١٤ حتى نهاية الحرب يطالب بأن تصدر ألمانيا بيانًا رسميا تنكر فيه اعتزامها ضم البلچيك إلى أراضيها عندما تنتهي الحرب، فإن انجلترا لن تقبل الصلح ما دامت تقدر خطر احتلال ألمانيا للساحل الغربي في الفلاندرز، والخطوة الأولى لإضعاف مقاومة الدول الغربية، هي إيضاح أن ألمانيا لا أطماع إقليمية لها في الغرب: وأن أهدافها في الحرب « لا تتعارض بحال ما من حرية وسيادة غيرها من الشعوب»(٣).

ولربما تكون أحسن السبل لإقناع الدول الغربية بأن ألمانيا لا تستهدف السيادة على العالم، أن تبدو ألمانيا دائمًا في مظهر الدولة التي لا تعترض قط على قيام مفاوضات للصلح، وقد وقف دلبروك في جانب مثل هذه الخطوة

(١) راجع Krieg und Politik ج١ ص٥٩ وكذلك المقال الموسوم بعنوان Das Beispiel Napoleons نفس المرجع ج٢ ص١٢٢ .
(٢) نفس المرجع ج١ ص٣٣ .
(٣) نفس المرجع ج٢ ص٩٧.

منذ أن قام الحلفاء بالهجوم المضاد الناجح على المارن في سبتمبر سنة ١٩١٤؛ وقد آمن بأن الحرب جاءت نتيجة للاعتداء الروسي، ولم يجد من سبب لتتابع فرنسا وبريطانيا القتال ضد الدولة الوحيدة (التي تحمي أوروبا وآسية ضد سيادة «المسكوف»[١]، فلما أن طال أمد الحرب ازداد إيمانًا بأن الرغبة الصادقة للمفاوضات قد تكسب لألمانيا نصرًا لا يمكن أن تحققه الأسلحة وحدها.

فلما اشتركت الولايات المتحدة في القتال تنبأ بهزيمة ألمانيا ما لم يستخدم السياسيون الألمان سلاح المفاوضات، ومن ثم تحمس دلبروك للتوصية التي أقرها الريشستاغ بالصلح في يوليو سنة ١٩١٧[٢]، إذ أحس أن المفاوضات تضعف من مقاومة الغرب بأكثر مما يمكن أن يضعفها هجوم ألماني جديد في الجبهة الغربية.

ولم يتطرق الضعف ـ ولا للحظة واحدة ـ إلى إيمان دلبروك بأن الجيش

(١) نفس المرجع ج١ ص١٨ .

(٢) أقر مجلس الريشستاغ التوصية بالصلح بأغلبية ٢١٢ صوتًا ضد ١٢٦ صوتًا، وقد جاء هذا القرار في الفقرة التالية:

«إن مجلس الريشستاغ يطالب بالسعي للوصول إلى تفاهم سلمي وتهادن مستمر دائم بين الشعوب، وأن صور الاضطهاد والتعسف الإقليمية والسياسية والاقتصادية والمالية لتناقض وتضاد مثل هذا السلم، ويعارض مجلس الريشستاغ أي مشروع يستهدف فرض حواجز اقتصادية أو يوجد كراهية بين الشعوب بعد الحرب، ويجب ضمان حرية البحار، وسيمهد، السلم الاقتصادي وحده، الأرض للتعاون والصداقة بين الشعوب، ويعمل الريشستاغ إيجابيا لإيجاد تنظيم دولي للقضاء وإقامة العدل بين الدول؛ ولكن ما دامت حكومات دول الأعداء تتباعد متنكرة لمثل هذا السلم، وما دامت تهدد ألمانيا وحليفاتها بالغزو والسيطرة، فمن الضروري أن يقف الشعب الألماني متحدًا صامدًا وأن يقاتل حتى يمكن تأمين حقوق ألمانيا وحليفاتها، ومع هذا الاتجاه لن يمكن أن تقهر ألمانيا».

الألماني أفضل جيش في العالم، ولكنه رأى أن هذه الأفضلية ليست بالقدر الكافي، وقد بقي طوال سنة ١٩١٧ يكرر الحديث في موضوع واحد ويدور حول فكرة واحدة: «من الضروري أن ننظر وجهًا لوجه إلى حقيقة أن العالم كله يتجمع في كتلة واحدة ضدنا، وإن حاولنا أن نخترق السجف لندرك الأسباب الأساسية لهذا الحلف العالمي فإننا ولا شك سنكبو وسنتعثر في دوافع الخوف من سيادة ألمانيا على العالم كله، وسنجد أن الخوف من الطغيان أو الاستبداد الألماني واحد من أقوى العوامل التي تزيد من قوة العدو»[1]؛ وإلى أن يكن التغلب على هذا الخوف سيظل الموقف كما هو، ولن يتحقق هذا إلا باستراتيـجية سياسية تقوم على أساس إنكار الأطماع الإقليمية في الغرب، وعلى أساس الرغبة الصادقة في المفاوضة للصلح.

ولما كان دلبروك يرى أن مجرى الأمور في هذه الحرب الحالية يمكن أن يقارن في صورة ما بمجرياتها في القرن الثامن عشر كان تقدير قيمة كبيرة للمراحل السياسية للحرب يتمشى تمامًا مع مبادئ استراتيـجية الإجهاد التي استخدمها فردريك الأكبر.

والواقع أن الجيش الألماني عندما اتجه إلى ميدان القتال سنة ١٩١٤ فإنه كان يلقى بكل ما يتوافر له من جهد ليكسب المعركة الحاسمة، ولكنه فشل، وهنا كان في استطاعة دلبروك أن يضع العمليات الحربية في المرتبة الثانية فهي لم تعد في حد ذاتها نهاية، بل وسيلة، فإذا ما فشل محترفوا السياسة الألمان أولاً في اقناع الدول الغربية بأن ألمانيا جادة في رغبتها في الصلح كان الهجوم الألماني الجديد في الغرب الوسيلة لوضع حد لهذا التردد من جانب

(١) راجع:

Krieg und politik, II, ١٨٧

الحلفاء؛ إن مثل هذا التنسيق بين الجهد الحربي والبرنامج السياسي، هو وحده الذي يستطيع أن يصل بالحرب إلى نهاية ناجحة.

وفي غمرة رغبة دلبروك بالوصول إلى استراتيـچية سياسية يكون لها أثرها في إضعاف مقاومة العدو، لم يلبث أن أحس بالخيبة فقد وضح له في سنة ١٩١٥ أن قسمًا كبيرًا من الرأي العام الألماني كان يعتبر الحرب وسيلة للحصول على أرض جديدة، ليس فقط في شرقي أوروبا، بل وفي غربيها أيضًا.

وعندما طالب دلبروك بإصدار تصريح يؤكد اعتزام ألمانيا الجلاء عن البلـچيك عند انتهاء الحرب هوجم بعنف واتهمته «دوتش تاجسيتنج» Deutsche Tageszeitung «أنه يتلقى الوحي من أعدائنا في البلاد الأجنبية»(١) .

ولم تقلل تطورات الحرب من الرغبة في الكسب عن طريق السلب والاغتصاب، وكان لحزب«الوطن الأب» Vaterlandespartei ـ أهم الجماعات التواقة لكسب أراض جديدة ـ نفوذ كبير في الحكومات التي حكمت ألمانيا على التوالي، ولهذا فإن الحكومة الألمانية لم تمتنع فحسب عن إصدار أي تصريح خاص بالبلـچيك والجلاء عنها، بل ولم توضح الحكومة قط موقفها من مفاوضات الصلح، وعندما نوقشت التوصية الخاصة بالسلم سنة ١٩١٧ هدد هندنبرج ولودندورف بالاستقالة لو قام الريشستاغ بهذا الإجراء، فلما أن مرت التوصية بأروقة مجلس الريشستاغ مفككة كان نفوذ القيادة الألمانية العليا كبيرًا إلى حد أن الحكومة لم تجسر قط على أن تجعل

(١) راجع: R. H. Lutz «سقوط الإمبراطورية الألمانية» مطبوعات مكتبة هوڤر عن الحرب ـ الكتاب رقم ١ ص٣٠٧ .

هذه التوصية دعامة سياستها، وهكذا، فإنه نتيجة لما أطلق عليه «أزمة يوليو سنة ١٩١٧»، تشجعت الدول الغربية على الاعتقاد بأن محترفي السياسة في الريشستاغ ليسوا مخلصين فيما يدعون إليه، كما آمنت الدول الغربية بأن زعماء ألمانيا مازالوا يتطلعون ويستهدفون محاولة السيادة على العالم.

وقدر دلبروك أزمة يوليو سنة ١٩١٧ تقديرًا أعمق وأبعد مدى، فقد أوضحت الأزمة إجداب دوائر الحكومة الألمانية وعجزها عن إبراز من يصلح للزعامة السياسية، على حين كانت السلطات العسكرية تبدي اتجاهًا متزايدًا نحو السيطرة على تشكيل سياسة الحكومة وصياغتها.

ولم يكن الحزب العسكري الألماني معروفًا قط في النطاق السياسي ولم تعرف لأفراده خبرة سياسية ولا قدرة على معالجة المسائل السياسية، ولقد عاشوا في الماضي يخضعون لنصيحة رئيس الدولة وتوجيهاته السياسية، وقد كيف چينسيناو وجهات نظره لتتمشى مع وجهات نظر هاردنبرج، وكذلك مولتكة فإنه ـ برغم تردده أحيانًا ـ قد أحنى رأسه لقرارات بسمارك العسكرية، ولكن الآن ـ في خضم أعظم أزمة تواجهها ألمانيا تعمل السلطات العسكرية للسيطرة على كل شيء دون أن يكون بين أفرادها رجل واحد يتوافر له تفهم صحيح للضروريات السياسية للعصر الحديث.

وكان هندنبرج ولودندورف ـ مع كل ما توافر لهما من مواهب عسكرية ـ يفكران فقط في ضوء تحقيق نصر عسكري حاسم على الدول الغربية، يفكران في معركة إفناء تلقي بالدول الغربية مترنحة بين أيديهما، ومع تزايد الشعور باليأس كتب دلبروك: «لقد واجهت أثينا نكبة في الحروب البيلوبونوزية بسبب أنه لم يتوافر لها من يخلف بركليز، ونحن في ألمانيا لدنيا الكثير من الرجال من طراز صولون، وكل من يؤمن بالشعب

الألماني يجب أن يثق بأنه ليس في ألمانيا عظماء الاستراتيـچيين فحسب، بل ويثق بأنه بين أبنائها السياسيون الموهوبون الذين يحتاج إليهم العصر ليتسلموا مقود توجيه السياسة الخارجية»(١)؛ ولكن هؤلاء السياسيين لم يتوافروا قط، وإن توافر الرجال من طراز صولون.

وبالتبعية راقب دلبروك بداية الهجوم الألماني في الغرب لسنة ١٩١٨ دون أن تتوافر له أي ثقة به، وقد كتب يوم ذاك: «من الواضح أنه لا يمكن إحداث أي تغيير في المبادئ التي عرضتها هنا منذ بداية الحرب، ومن ثم فقد بقي الانقسام والتوزع واضحًا في أهدافنا للحرب في الغرب»(٢) .

وقد أكد دلبروك أن الاستراتيـچية ليست شيئًا مجردًا وحده فهي لا يمكن أن تنفصل عن الاعتبارات السياسية: «وكان من الضروري أن يصحب الهجوم الاستراتيـچـي العظيم وأن يدعم ويعضد بهجوم سياسي مماثل يوجه ضد الجبهة الداخلية لأعدائنا بنفس الطريقة التي عمل بها هندنبرج وجنوده في الخطوط الأمامية»؛ ***والواقع*** أنه لا يمكن تقدير ماذا كانت تكون النتيجة لو أن الحكومة قد أعلنت فقط قبل بدء الهجوم بأربعة عشر يومًا عن رغبتها في مفاوضات الصلح؛ على أن يتم الجلاء عن البلـچيك عقب انتهاء هذه المفاوضات، صحيح أنه لربما كان لويد چورج وكليمانصو يعتبران هذا العرض يوم ذاك على أنه دليل الضعف، ولكن اليوم وهذا الهجوم الألماني يتقدم «هل كان من الممكن أن يظل لويد چورج وكليمانصو على هذا الاعتقاد الخاطئ إطلاقًا لا، إنني أشك في هذا ومن

(١) Krieg und Ploitik, III, ١٢٣.

(٢) نفس المرجع ج٣ ص٦٣ .

الممكن أننا كنا إذ ذاك نجلس حول منضدة المؤتمر»[١] .

وأحس دلبروك ـ أنه بسبب الفشل في تنسيق الاتجاهات السياسية والعمليات العسكرية للحرب ـ فإن هذا الهجوم سيؤدي في الغالبية إلى نجاح تكتيكي ولا أكبر من هذا، ولن تكون له أهمية استرتيجية كبيرة، ومع أنه لم يشك في أن هذه آخر مغامرة للاستراتيـچيين أصحاب نظرية استراتيـچية الإفناء، إلا أن الانهيار الفجائي الكامل لألمانيا قد أدهشه، وفي عدد نوفمبر سنة ١٩١٨ من دورية «الحوليات البروسية» Preussische Jahrbucher قدم لقرائه اعتذار غريبًا ليبرر هذا فقال: «لست أدري كيف تنكبت في الخطأ إلى هذا الحد البعيد، ومع أن الصورة كانت تبدو سيئة للغاية منذ أربعة أسابيع، فإنني لم أقطع الأمل قط في أن الجبهة ستظل ـ مهما اهتزت ـ متماسكة، وإننا سنرغم العدو على طلب الهدنة وأننا سنحمي حدودنا».

وقد أضاف إلى هذا جملة واحدة تصور ما أحس به من مسئولية قبل الشعب الألماني كمعقب عسكري كانت أحاديثه دائمًا موضع الثقة والاعتبار فقال: «وأعترف أنني كنت أحيانًا أكتب كلمات تعبر عن ثقة بالموقف أكثر مما كنت أحس به في داخلية نفسي، ولقد سمحت لنفسي في أكثر من مناسبة أن أخدع باللهجة المليئة بالثقة التي كانت في البلاغات والتقارير الصادرة من الجيش والأسطول».

ولكن برغم هذا الخطأ في التقدير، برغم مجانبته الصواب في حكمه فإنه يفخر بحقيقة واحدة هي أنه كان يقول دائمًا بأن من حق الشعب الألماني أن يعرف الحقيقة مهما كانت سيئة، وقد حاول هو في دعوته المستمرة

---

(١) نفس المرجع ج٣ ص٧٤ .

للاعتدال السياسي أن يوضح للألمان الطريق إلى النصر[(١)] .

وبهذه الروح أيضًا كتب دلبروك عرضًا كاملاً ودراسة نقدية عميقة للعمليات العسكرية في المرحلة الأخيرة من الحرب وكتب هذا في تقريرين إضافيين سنة ١٩٢٢ قدمهما للجنة الفرعية الرابعة التي شكلها مجلس الريشستاغ لبحث أسباب هزيمة ألمانيا وانهيارها سنة ١٩١٨، وعندما أدلى دلبروك بأقواله أمام اللجنة كرر ما كتبه في صفحات« الحوليات البروسية»، وإن كان قد استطاع ـ بسبب إلغاء الرقابة ـ أن يذكر الكثير مما لم يكن يستطيع أن يذكره إبان الحرب مع قيام الرقابة على الصحف[(٢)] .

وقد وجه دلبروك أعنف نقده ضد لودندورف الرجل الذي وضع تخطيط هجوم سنة ١٩١٨ وتولى تنفيذ هذا التخطيط بنفسه، وإن كان دلبروك قد اعترف بأن لودندورف أثبت كفاية عسكرية في شيء واحد: «أنه أعد الهجوم بعد أن درب الجنود جيدًا للقيام به، ثم أنه تخير الفرصة المناسبة التي مكنته من مفاجأة العدو، مما يدل على قدرته الفنية وعلى حيطته

(١) نفس المرجع ج٣ ص٢٠٣ ـ ٢٠٦ .

(٢) جاءت أقوال دلبروك كاملة في:

Das werk des Untersuchungsausschusses der Deutschen Verfassunggebenden Nationalversammlung und des Deutschen Reichstages ١٩١٩ - ١٩٢٦. Die Ursachen des Deutschen Zusammenbruchs Im Jahre ١٩١٨. (Vierte Reihe im Werk des Untersuchungsausschusses), III ٢٣٩ - ٢٧٣

وتوجد مختارات من تقرير اللجنة مع جزء صغير جدًا من أقوال دلبروك في كتاب R.H. Lutz بعنوان:

The causes of the German Collapse in ١٩١٨.

الكتاب الرابع من مطبوعات مكتبة هوڤر عن الحرب.

وحذره»[١].

ولكن لم تلبث كل هذه الفوائد التي جاءت بها الترتيبات الأولية التمهيدية في خضم عوامل الضعف الأساسية ونتيجة للأخطاء الجسيمة في التفكير الاستراتيـجـي، فلم يكن الجيش الألماني من بدء عملية الهجوم في وضع يمكنه من توجيه ضربة قاضية ضد العدو، ولم تكن تتوافر للألمان أفضلية عددية كبيرة، ولم يكن يتوافر للألمان احتياطي بالقدر الذي كان يتوافر للعدو، وكان عتاد الجيش الألماني أقل في الكم والنوع مما يتوافر للحلفاء.

ثم إن الجيش الألماني كان يواجه عوامل معطلة كثيرة بسبب نظام تموينه الخاطئ ولعدم توافر المختزن من الوقود لوحداته الميكانيكية، وكانت كل هذه الأوجه المضادة واضحة للقيادة العليا الألمانية قبل بدء الهجوم ولكنها أغفلتها[٢].

وقد حذر لودندورف أوجه الضعف هذه ليدرك استحالة أن يضرب العدو عند النقطة التي كان من الممكن عندها أن يحصل على أكبر نجاح استراتيـجـي.

وكانت نفس الكلمات التي استخدمها للتعبير عن هذا: «يجب أن تقدر قيمة التكتيكات بأكثر مما تقدر العمليات الخالصة للاستراتيـجية» وكان معنى هذا أنه قام بالهجوم عند النقاط التي يسهل عندها الاختراق، لا عند النقاط التي يمكن عندها تحقيق الهدف الذي قدره لهجومه؛ كان

(١) Die Uraschen des Deutschen Zusammenbruches, III Lutz, op. cit., p. ٩٠ .٣٤٥.

(٢) Die Ursachen des Deutschen zusammenbruches, III, ٢٤٦.

الغرض الاستراتيـچـي إفناء العدو، «ولتحقيق هذا الهدف ـ فصل الجيش الإنجليزي عن الجيش الفرنسي ثم طوى الإنجليز ـ كان الأفضل أن يتبع الهجوم مجرى نهر السوم، ولكن لودندورف مع هذا مد من جبهة الهجوم لأربعة أميال للجنوب بسبب وضوح ضعف العدو بخاصة هناك»(١)، وقد استطاع الجناح الدفاعي الذي يقوده هوتيير Hutier عند تلك النقطة ولكن نجاح قوات هوتيير عطل تطور الهجوم وذلك لأن تقدمها تجاوز تقدم جناح الهجوم الأساسي تحت قيادة بيلو والذي كان يعمل ضد آراس، «ولهذا فإنه عندما أوقف تقدم قوات بيلو اضطررنا إلى أن تتبع الخط الذي نجح فيه هوتيير، ومن ثم تغيرت خطة الهجوم ووضح خطر توزع قواتنا»(٢) .

وفي إيجاز فإن لودندروف ـ باتباعه الخط الأقل مقاومة ـ كان يبدأ سياسة مدمرة مرتجلة مخترقًا أول مبادئ استراتيـچية الإفناء، والذي اعترف هو نفسه بأن: (الاستراتيـچية التي لا تستتند إلى قرار مطلق ولا تستهدف إفناء العدو بل وتقنع بتوجيه الضربات فرادى حيثما اتفق، استراتيـچية هذه حالها قد تستطيع حقًا أن توجه الضربات حينًا في هذا الاتجاه وحينًا في اتجاه آخر ولكنها لا تحقق شيئًا، ولكن الاستراتيـچية التي تستهدف إرغام العدو على قرار خاص، وإملاء نوايانا عليه، يجب أن توجه ضرباتها على التوالي حيثما وجهت الضربة الأولى الناجحة).

«وبدلاً من اتجاه هذه الأسس الصحيحة عمل لودندورف وهندنبرج على أساس أنه يمكن عندما تبدو الصعاب المعطلة في قطاع ما أن توجه

(١) نفس المرجع ج٣ ص٢٤٧ .
(٢) نفس المرجع ج٣ ص٣٤٦ .

ضربات جديدة إلى قطاع آخر»[١]، ومن ثم فقد تولدت عن الهجوم الكبير سلسلة من الطعنات المنفصلة غير منسقة وبلا نتيجة.

* * *

وكان الخطأ الرئيسي للهجوم هو فشل القيادة الألمانية العليا في تقدير ماذا يمكن أن يحققه الجيش الألماني في حدود إمكانياته، ثم فشلها بالتبعية في أن تكيف استراتيـچيتها تبعًا لهذا، وهنا عاد دلبروك إلى الموضوع الرئيسي البارز في كل كتاباته كمؤرخ وكصحفي، لقد كان من الواجب أن تدرك القيادة الألمانية العليا من دراستها لموقف القوات المتضادة أنه لم يعد في الإمكان إفناء العدو، ولهذا كان من الضروري أن يكون هدف هجوم سنة ١٩١٨ إجهاد العدو إلى الحد الذي يجعله تواقًا لبدء مفاوضات الصلح.

وكان هذا مستطاعًا لو أن الحكومة الألمانية من جانبها قد أبدت رغبتها بوضوح في تقبل مثل هذه المفاوضات، ولو كانت الحكومة الألمانية قد صرحت علانية بهذا لكان الجيش الألماني قد حقق نصرًا استراتيـچيًا في بدء هجومه، ولكان من الممكن أن يسير الهجوم تبعًا لما يتوافر له من قوة، ولكان من السلامة أن يوجه الهجوم في النقاط ذات النفع التكتيكي، أي حيث يكون النجاح أيسر منالاً ذلك لأن أي انتصارات بسيطة كانت تضاعف التأثير المعنوي في عواصم العدو[٢].

لقد فشلت القيادة الألمانية العليا في سنة ١٩١٨ وخسرت الحرب بسبب أنها أهملت أهم درس في التاريخ: ألا وهو العلاقة بين السياسة

(١) نفس المرجع ج٣ ص٢٥٠ ـ ٢٥١ .
(٢) نفس المرجع ج٣ ص٢٥٣ .

والحرب.

وهنا يجب أن نرجع ثانية إلى هذه الكلمات الأساسية في تعاليم كلاوزيـڤتز من أنه «لا يمكن تقدير فكرة استراتيـچية دون أن يقدر معها الهدف السياسي»(١).

- ٤ -

كان المؤرخ دلبروك من ناحية عامة غير متطابق مع المجتمع الذي عاش فيه، كان زملاؤه المحترفون من المؤرخين كتاب الصحف، كما كان العسكريون الذين يحاول أن يعرض أعمالهم للقراء ينظرون إليه نظرات مليئة بالشكوك، وليس من الصعب إيضاح عوامل شك العسكريين، ذلك أنه ينشأ بالطبيعة في الواقع نتيجة للنظرة الساخرة التي ينظر بها المحترفون إلى الهواة، ولكن نظرات عدم الثقة التي ينظرها الأكاديميون إلى المؤرخين العسكريين إنما ترجع إلى ما هو أعمق وأبعد غورًا، وتنشأ هذه النظرة بخاصة في البلاد الديمقراطية من الاعتقاد بأن الحرب انحراف وتضليل في النظرية التاريخية، أو بمعنى أدق انحراف وتضليل في كتابة التاريخ، ولهذا فإن دراسة الحرب إذن لا تعتبر دراسة مثمرة ولا دراسة لائقة كيسة، ومما يستحق الذكر أن السير تشارلس أومن عميد الأحياء من المؤرخين العسكريين عندما عرض لحقل دراسته في الفصل الخاص بهذا من كتابه «في كتابة التاريخ» وسم هذا الفصل بعنوان «اعتذار للتاريخ العسكري».

ويشير السير تشارلس إلى أن المؤرخ المدني الذي يتعرض للشئون العسكرية يعتبر ظاهرة شاذة، ويوضح هذا في كتابه فيقول:

---

(١) نفس المرجع ج٣ ص٢٥٣ .

«إن مسجلي الحوادث ورواة الأنباء في سجلات الأديرة في العصور الوسطى، والمحدثون من كتاب التاريخ المتحررين كانوا متقاربين في تعريفهم لمعنى الحرب، ولم يذكروا عنها أكثر من أنها تثير مختلف صور الرعب، وأنها تسبب الكثير من الخسائر في الأرواح.

وقد عمد أفراد كلتا المجموعتين من مسجلي الحوادث ومن المؤرخين المحدثين إلى إخفاء جهلهم الشخصي أو كراهيتهم للموضوعات العسكرية باستهجان أهمية وخطورة هذه الموضوعات وأثرها في التاريخ»[١].

وهذا التحامل الذي استهجنه أومان أحس به دلبروك بدرجة كبيرة طوال حياته، ففي فجر شبابه وجه كل مواهبه لدراسة التاريخ العسكري، وقد وجد أفراد صناعته ينظرون إلى تخصصه على أنه شيء لا يستحق هذا النشاط الذي يبذله في التخصص، وعلى حين أن الأكاديميين البروسيين لم يكونوا على استعداد ـ كالمؤرخين الإنجليز المتحررين ـ ليعتبروا الحرب حادثًا غير طبيعي، فإنهم لم يقتنعوا أيضًا بأن الانغمار في دراسة الشئون العسكرية يؤهل الفرد للتقدير الجامعي مع ما يصحب هذا التقدم من زيادة في الكسب.

وتعطل وصول دلبروك لكرسي الأستاذية تبعًا لإصراره على أن لتاريخ الحرب نفس الأهمية التي للكشف عن النقوش الررومانية[٢] إن لم يكن أكثر: وبقي طوال حياته يجادل لإثبات شرعية حقل بحوثه ودراساته، وقد أكثر من الحديث في فجر حياته بأن الحاجة ملحة للمؤرخين «ليس فقط

(١) Sir Charles Oman, On the Writing of History (new York, n. d.) pp. ١٥٩ f.

(٢) Deutsches biographisches delbruck J. Ziekursch Jahrbuch (١٩٢٩).

للقيام بدراسة طارئة، بل بدراسة عميقة ـ دراسة احتراف ـ لتاريخ الحرب»[١].

وفي أواخر سني حياته بعد أن حصل على مركز موطد في الدوائر الجامعية، حمل حملة عنيفة في صفحات كتابه «تاريخ العالم» على أولئك الذين أصروا على الاعتقاد بأن «المعارك والحروب لا أهمية انتاجية لها في تاريخ العالم»[٢].

لقد كانت أهمية دلبروك في تاريخ الفكر العسكري موضع جدل كما كان نصيب مكانته الجامعية كذلك، وكان الكثير مما كشف عنه في نقده الموضوع مثار التحفظ أو الرفض على أساس أنه دراسات غير أصيلة، كما أن نظريته عن الاستراتيـجية لم يتقبلها من وجهة عامة العسكريون والمؤرخون، ولكن ما من شك في أن كتابه «تاريخ فن الحرب» سيبقى واحدًا من أجمل الأمثلة لتطبيق العلم الحديث على تراث الماضي ومهما عدل في التفاصيل في كتلة البحث ستبقى صامدة لا يهز شيء من كيانها.

ولما كان العصر عصرًا أمست فيه الحرب موضع عناية كل فرد، فإن الموضوع العام لأعمال دلبروك كمؤرخ وصحفي سيظل دائمًا تذكرة للناس وتحذيرًا لهم من أن لارتباط السياسة بالحرب اليوم نفس الأهمية التي كانت له في عصر بركليز، وأن التفكير الاستراتيـجـي الذي يظن صاحبه في نفسه كفاية ذاتية أو الذي يغفل عن الجانب السياسي للحرب لا يؤدي إلا إلى كارثة.

(١) preussische "etwas kriegsgeschichtliches" H. Delbruck Jahrbucher, LX (١٨٨٧) ٦١٠.

(٢) H. Delbrűck, Weltgeschichte (Berlin ١٩٢٤ - ١٩٢٨), I, ٣٢١.

حديث المراجع

الفصل الحادي عشر

دلبروك: المؤرخ العسكري

بقلم جوردون.ا. كريج

كان أول كتاب له أهميته بقلم دلبروك كتابه:

Das Leben des Feldmarschalls Grafen Neidhardt von Gneisenau (Berlin, ١٨٨٢).

وقد بقي هذا الكتاب الذي صدرت منه أربع طبعات التأريخ الكامل لحياة القائد البروسي، وقد قدم دلبروك في البداية مجملاً واضحًا لطريقته في معالجة التاريخ العسكري، وفكرته في أهمية إبراز المعارك الفردية، وكان هذا في كتابه:

Die Perserkrieg und die Burgunderkriege: zwei kombinierte kriegsgeshichtliche Studien (Berlin, ١٨٨٧).

على أننا يمكن أن نجد تقديمه ـ الذي سبق هذا ـ لنظرياته الاستراتيــچية في:

Die Strategie des Perikles erlâutert durch die Strategie Friedrichs des Grossen; mit einem Anhang ûber Thucydides und Kleon (Berlin, ١٨٩٠).

وكذلك في كتاب:

Friedrich, Napoleon, Moltke (Berlin, ١٨٩٢).

وفي سنة ١٩٠٠ صدر المجلد الأول من كتاب:

Geschichte der Kriegskunst im Rahmen der Politischen Geschichte.

كما صدر المجلد الثاني سنة ١٩٠٤ وصدر المجلدان الثالث والرابع سنة ١٩٠٧ وسنة ١٩٢٠ على التولي، كما صدرت سنة ١٩٠٨ طبعة ثانية من المجلدين الأول والثاني، وصدرت طبعة ثانية من المجلد الثالث سنة ١٩٢٠، وتضمنت هذه الطبعة للمجلد الثالث إضافات وورود على النقاد، وفيما عدا هذا فلا خلاف بين الطبعتين الأولى والثانية.

وينتهي المجلد الرابع من كتاب "Geschichte" وهو آخر ما كتب دلبروك بحديث عن حروب التحرير، وقد أكمل إميل دانييلز Emil Daniels الكتاب بإصدار المجلدين الخامس والسادس سنة ١٩٢٨ وسنة ١٩٣٢ على التوالي، وقدم في هذين المجلدين المدة بين حرب القرم والحرب الفرنسية/ البروسية، وفي سنة ١٩٣٦ صدر المجلد السابع وفيه عرض للحرب الأهلية الأمريكية والحروب الروسية اليابانية وحرب البوير، وكتبه دانييلز وأوتوهينتز Otto Haintz بالاشتراك معًا.

وكتاب دلبروك "Numbers in History" طبع لندن سنة ١٩١٣ فهو إعادة لطبع محاضرتين ألقاهما المؤرخ في جامعة لندن سنة ١٩١٣، وفي هذا الكتاب أجمل المؤرخ على ما يقول ـ المجلدات الثلاثة الأولى من كتابه: Geschichte der Kriegskunts وأكمل نظرياته الأساسية.

وقد جاءت دراسات دلبروك العسكرية القصيرة في «الحوليات البروسية» Preussische Jahrbücher وغيرها من المطبوعات، ومع هذا توجد أربع مجموعات لهذه المقالات يعتبرها دلبروك كبيرة الأهمية هي:

Historische und Politische Aufsatze (Berlin, ١٨٨٦ Scc. ed. ١٩٠٧)

وتحتوي على مقال هام بعنوان:

(Über die Verschiedenheit der Strategie Friedrichs und Napoleons)

Erinnerungen, Aufsatze und Repen (Berlin ١٩٠٢; third ed. ١٩٠٥).

وفي هذه المجموعة مقال يوضح عمل هيئة أركان الحرب في الحرب الدانيمركية لسنة ١٨٦٤ مع بحث قيم عن مولتكة.

وقد جمعت كتابات دلبروك طوال الحرب العالمية الأولى في ثلاثة مجلدات بعنوان Krieg und politik (برلين ١٩١٧ ـ ١٩١٩).

وأخيرًا صدرت مجموعة رابعة سنة ١٩٢٦ بعنوان:

Vor und nach dem Weltkrieg

وتتضمن أهم مقالات دلبروك التي نشرت بين سنة ١٩٠٢ وسنة ١٩١٤، وبين سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٢٥ .

ويمكن من المجموعات التي أشير إليها فيها قبل معرفة موقف دلبروك أثناء الحرب العالمية الأولى وكذلك من الكتيب الذي وسم بعنوان (Bismarks Erbe) طبع برلين سنة ١٩١٥، والذي كان أقوى ما كتب مطالبًا بمفاوضة الحلفاء للسلم.

أما خير نقد كتبه دلبروك عن استراتيـچية لودندورف في سنة ١٩١٨

قد طبع في:

Das Werk des Untersuchungsausschusses der Deutschen Verfassunggebenden Nationalversammlung und des Deutschen Reichstages ١٩١٩ - ١٩٢٦

Die Ursachen des Deutschen Zusammenbruchs im jahre ١٩١٨ (Vierte Reihe im Werk des Untersuchungsausschusses) (Berklin, ١٩٢٥).

كما نجد مختارات من وحي دلبروك في كتاب:

R. H. Lutz, ed., The Causes of the German Callapse im ١٩١٨, Hoover War Library Publications No. ٤ (Stanford, ١٩٣٤).

والكثير من الآراء الجديدة لدلبروك عن الحرب يوجد فقط في كتيبات صغيرة مثل:

Ludendorff, Tirpitz, Falkenhayn (Berlin, ١٩٢٠).

Ludendorff's Selbstportrat (Berlin, ١٩٢٢).

ويعتبر هذا الكتيب ردًا على كتاب لودندورف:

Ludendorff's Krigfuhrung und Politik (Berlin, ١٩٢٢).

Kautsky und Harden (Berlin, ١٩٢٠) and Der Stand Der Kriegsschuldfrage (Berlin, ١٩٢٥).

والكتيبان الأخيران يعنيان بمسألة المسئولية عن الحرب.

ومن الضروري أن يشتمل سجل مؤلفات دلبروك على:

Regierung und Volkswille (Berlin, ١٩١٤)

والكتاب سلسلة من المحاضرات عن الدستور والحكومة الأمبريالية.

وكذلك من الضروري إضافة المجلدات الخمسة التي جاءت بعنوان:

Weltgeschichte (Berlin, ١٩٢٤ - ١٩٢٨).

وقد ترجم الكتاب الأول عن (الدستور...) إلى الإنجليزية من قلم روى ماكلوي بعنوان:

Roy S. MacElwee, Government and the Will of the people (New York, ١٩٢٣).

ولم يكتب تأريخ كامل لدلبروك بعد، ويمكن أن نجد بعض التفاصيل عن حياته في المقدمات التي كتبت للمجلدات الأربعة الأولى لكتابه:

Geschichte der Krigskunst

وكذلك الفصل التمهيدي لكتاب Krieg und Politik

كما يمكن الرجوع إلى:

Johannes Ziekursch in Deutsches biographisches Jahrbuch (Bberlin, ١٩٢٩)

Friedrich Meinecke in Historische Zeitschrift CXL (١٩٢٩).

Richerd H. Bauer's article in Bernadotte Schmitt ed. Some Historians of Modern Europe (Chicago, ١٩٤٢). p. ١٠٠ - ١٢٧.

والمقال دراسة جيدة لحياة دلبروك وأعماله وإن كانت كتاباته

العسكرية قد نوقشت من وجهة عامة، كما يناقش (F.J. Schmidt) وأهميته كمؤرخ وكسياسي في كتابه:

Hans Delbruck: der Historiker und Politiker (Berlin, ١٩٢٨).

كما تناقش بعناية الآراء السياسية والعسكرية لدلبروك المؤرخ:

Am Webstuhl der Zeiti:eine Erinnerungsgabe Hans Delbruck dem Achtzigjahrigan von Freunden and Schulern dargebracht (Berlin, ١٩٢٨).

وهي مجموعة مقالات بقلم:

Gen. Groener, Paul Rohrbach, Emil Daniels, Buchfinck

وآخرين.

تراجع أيضًا الكتب التالية:

Arthur Rosenberg, "Hans Delbruck, der Kritiker der Kriegsgeschichte" Die Gesellschaft, VI (١٩٢١) ٢٤٥.

Franz Mehring, "Eine Geschichte der Kriegskunst" Die Neue Zeit, Erganzungsheft, No ٤ (October ١٦, ١٩٠٨) V. Marcu, Men and Forces of Our Times,

(طبع نيويورك ١٩٣١) ـ ص ٢٠١ مترجمًا بقلم .Eden & Ceder Paul

وكانت نظريات دلبروك عن الاستراتيـچية موضع الكثير من الكتابات الدراسية النقدية، وقد ذكر أهم ما ظهر منها قبل سنة ١٩٢٠ في:

Geschichte der Kriegskunst, Iv, ٤٣٩ - ٤٤٤

ونجد أحدث وأعمق تفهم وتقدير لدراسة نظريات دلبروك في الاستراتيـچية في:

Otto Hintze, "Delbruck, Clausewitz und die Sttategie Friedrichs des Grossen", Fforschungen zur Brandenburgischen und Preussischen Geschichte, XXXIII (١٩٢٠) ١٣١ - ١٧٧.

القسم الرابع

من الحرب العالمية الأولى..
إلى الحرب العالمية الثانية

الفصل الثاني عشر

تشرشل، لويدجورج، كليمانصو:

بقلم هارفي ا.دي ديرد

يفرض الطابع الديمقراطي للحكومة كما تفرض فلسفة الحياة نفسها مشكلات «المسئولية العسكرية والتنظيم والسيطرة»، وهي مشكلات لم يكن لها من وجود طوال حكم «الملكية» وذلك لسبب واحد هو أنه من النادر ـ في الدول الديمقراطية ـ أن تجتذب صناعة القتال أو حرفة حمل السلاح انتباه أفضل الرجال عقلاً وأمضاهم عزيمة وأوفرهم بارقة أمل في النجاح والتقدم، وقد لاحظ توكويـڤيل(*) في كتاباته عن الولايات المتحدة في مرحلة مبكرة من تاريخها أن «الجزء الأفضل من الأمة يعزف أفراده عن صناعة الجندية لأنها صناعة لا تشرف صاحبها، وهي لا تشرف صاحبها لأن الجزء الأفضل من الأهلين قد عزفوا عنها»[١]، ثم إن انفصال السلطات

(*) الكسيس شارل هنري موريس كليريل دو توكويـڤيل، مؤلف وسياسي فرنسي (١٨٠٥ ـ ١٨٥٩) ـ معجم ويبستر طبع ماكميلان سنة ١٩٥٦ . «المترجم».

(١) Alexis de Tocqueville, Democracy in America Translated by Henry Reeve, (London ١٨٨٩,) II, ٢٤٣.

وللكتاب طبعة أمريكية طبع نيويورك سنة ١٩٥٦ أصدرتها شركة Ventage Books راجعها فرنسيس بودين، وقدم لها وعلق عليها وأرخ للشخصيات الواردة بها فيليبس برادلي، والرأي الذي قدمه هارڤي دي ويرد هنا جاء في الفصل الثامن عشر للكتاب.

الفصل الذي وسمه بعنوان (حديث عن الشرف في الولايات المتحدة والمجتمعات الديمقراطية)، وكلمة (شرف) في الواقع لا تستخدم في نفس المعني في الإنجليزية والفرنسية، وقد علق الكاتب على الكلمة في مطلع الفصل بقوله أن الشرف يعني به في كتابه «التقدير للمجد» وأضاف أنه من الممكن أن نقول بأن رجلًا ما يتبع دائمًا قوانين الشرف، ومن الممكن=

ونظم الضبط والسيطرة والتوازن داخل المجتمع، أي التدابير اللازمة للحد من إمكان قيام حكم طغوائي، قد أوجدت عوائق معطلة في طريق الإدارة الناجحة للحرب، وقد ازدادت هذه العوائق مع ازدياد تعقد العمليات الحربية. وهكذا فإنه بينما العناصر المدنية المختارة في الدول الديمقراطية قد تجنب أفرادها الحياة العسكرية وعنوا فقط في تردد بالمشكلات العسكرية، فإن كل حرب عامة تشترك فيها هذه العناصر تجيء معها بصعاب جسيمة وتكشف لنا عن أوجه نقص بارزة في إدارتهم للحرب ما يوجب أن تصحب صور الإصلاح الكاسحة الواسعة النطاق ـ أو تتبع ـ هذه التجارب العسكرية التي هي الحروب[١] .

وقد استندت المسئولية الكبيرة للعنصر المدني في الدول الديمقراطية من ناحية السيطرة على الشئون العسكرية ـ على ما أشار ماديسون وغيره من المفكرين الأمريكيين الأولين ـ إلى واجب الحكومة لحماية الدولة[٢]، فليس من الممكن النزول عن السيطرة المدنية على الشئون العسكرية في الدول الديمقراطية دون تعريض سيادة الأهلين للخطر.

=أيضًا أن نقول بأن رجلًا ما قد فعل ما يتنافى مع شرفه، وفي هذا الفصل استخدم الكاتب الكلمة في المعنى الثاني.

(١) تتكشف هذه الاتجاهات بوضوح بالنسبة للولايات المتحدة في كتاب:

E. Upton's, The Military Policy of The United States (Washington ١٩٠٤). F. V. Green's The Revolutionary War and The Military Policy of The United States (New York, ١٩١١), and J. M. Palmer's, America in Arms: The Experience of The United States with Military Organization .((New Haven, ١٩٤١

(٢) E. M. Earle "American Military Policy and National Security" in Political Science Quarterly, LIII (١٩٣٨), ٤ – ٥.

ويوضح التطور التدريجي لسيطرة مجلس الكونجرس على السياسة العسكرية للولايات المتحدة وضرورة التصديق الدستوري على هذه السياسة إلى مرحلة إصدار قانون الدفاع الوطني سنة ١٩١٦، يوضح هذا كيف أن الحكومة الوطنية كانت تعمل مترددة دون رغبة تبعًا للسلطة وللمسئولية الملقاة على عاتق السلطة الدستورية الممنوحة للكونجرس (لتشكيل الجيوش وإمدادها بالعتاد)[١] .

وإذا كان للعناصر المدنية أن تسيطر على السياسة العسكرية فإن هذا يتطلب أن تذهب المسئولية ـ التي لا يمكن الفكاك منها ـ إلى مدى أبعد من مجرد المعاونة المالية والتشريعية، أي إلى مساهمة مباشرة ـ تقل أو تكثر ـ في السيطرة على العمليات الحربية نفسها، وهنا يطغى «المدني» على الجو التقليدي للجندي المحترف، ويتفتح ميدان فسيح لاحتكاك وتضاد «عسكري ـ مدني» بين المدنيين وبين العسكريين.

فإذا لم تكن الاعتبارات السياسية في حد ذاتها وحده قوية بدرجة كافية للإرغام على زيادة المساهمة المدنية في الشئون العسكرية كان على العوامل الأخرى ـ مثل الاتجاهات الفنية ـ أن تعمل لتحقيق وإدراك نفس الأغراض والأهداف، وقد لاحظ أوزوولد سبنجلر[*] أن «فن الحرب» قد تبع في تردد تقدم الصناعة حتى بداية العصور الحديثة، وفجأة استحثت الحرب كل الإمكانيات الآلية لخدمتها، وقد رأى سبنجلر علاقة وثيقة بين حقيقة أن

---

(١) H. White, Executive Influence in Determining Military Policy in the United States (Urbana, Illinois ١٩٢٥) pp. ٢٦ – ٥١.

(*) أوزوولد سبنجلر (١٨٨٠ ـ ١٩٣٦) فيلسوف ألماني اشتهر بنظريته عن التاريخ (ويبستر ص١٤٠١).

البارود قد جاء مع استخدام آلة الطباعة في وقت واحد تقريبًا وأن «الإصلاح» قد رأى «الشعارات» تتهادى مع مسير مدافع الميدان، وأن هذا المطر الغزير من النشرات السياسية قد جاء في نفس الوقت تقريبًا مع أول حشد للمدفعيه في «ڤالمي»[(١)] .

ومع ازدياد توثق العلاقة بين الحرب والتقدم الفني جاءت الثورة الصناعية التي مكنت من كساء وتسليح وإمداد حشد الجيوش التي أوجدتها الثورة الفرنسية، ومكنت الصناعة الآلية من الإبقاء على هذه الجيوش وتزويدها بحاجياتها، وجعلتها الخطوط الحديدية خفيفة الحركة بالقدر الذي لم يكن يحلم به إنسان، وقد قال أحد أولئك الذين شهدوا كل هذه التطورات: «لقد سببت التطورات الآلية ثورة بعيدة المدى في قواعد وأسس الإدارة للجيوش لا تقل عما جاء في البحر بالتحول من استخدام الشراع إلى استخدام البخار»[(٢)] .

وقد وضحت هذه الثورة في الحرب الإيطالية لسنة ١٨٥٩ ولكنها تكشفت دون أي خطأ في تقديريها سنة ١٨٦٢ في العمل الجريء الذي قام به هوبت Haupt بنقل فيلقين من جيش بوتوماك بالسكك الحديدية إلى ناشـڤيل[(*)] في أسبوع واحد، وعاونت السكك الحديدية مولتكة الكبير ليحشد أربعمائة ألف جندي على الحدود الفرنسية في ستة عشر يومًا سنة ١٨٧٠، ومكنت الخطوط الحديدية مولتكة الصغير ليحشد أربعة أضعاف

(١) Oswald Spengler, The Deeline of the West (New York, ١٩٢٦),II, ٤٦٠.

(٢) T.H. Thomas "Armies and the Railway Revolution" in War as a Social Institution (New York, ١٩٤١), p. ٨٨.

(*) ناشيفيل عاصمة ولاية تنيسي على نهر كمبرلاند سكانها ١٣٧٠٠٠ نسمة.

الحشد الذي قام به عمه في أقل من هذه المدة سنة ١٩١٤[١] .

وعلى حين أنه لم يكن من الواضح وضوحًا مباشرًا، فإن هذا «التزايد» للعلاقة بين الصناعة والعسكرية في القرنين التاسع عشر والعشرين قد تطلب «تزايد» مساهمة العناصر المدنية في المجتمع، مساهمة فعالة في الإعداد للحرب وفي إدارتها، وكان التنبؤ المبكر بهذا الطابع هو الذي وجه آنجلز ليسأل: «ترى من هم الذين نقلوا الانتصارات التي كسبتها الثورة الفرنسية إلى داخل الجيش وصفوفه؟ هل هم القادة؟ الواقع أن لا يد للقادة في هذا، بل كانت القوى المدنية هي التي فعلته»[٢] .

وقد قسم الأستاذ رايت Wright تاريخ صناعة الحرب إلى فترات مقبولة في الطابع التالي:

(أ) مرحلة استخدام الأسلحة النارية (١٤٥٠ ـ ١٦٤٨).

(ب) مرحلة الجيوش المحترفة وحروب الأسر المالكة (١٦٤٨ ـ ١٧٨٩).

(جـ) حروب الاستثمار المالي وحروب الاستعمار (١٧٨٩ ـ ١٩١٤).

(د) الحروب الشاملة (١٩١٤ ـ ١٩٤٢)[٣] .

وقد وجد في المرحلتين الأخيرتين اتجاه محدد نحو استخدام الآلات في الحرب، نحو زيادة حجم الجيوش، نحو صبغ السكان المدنيين بالطابع

(١) نفس المرجع ص٩٣ .

(٢) خطاب إلى ماركس تاريخه ٢٥ من سبتمبر سنة ١٨٥١ .

Der Bridfwechsel Zwischen Friderick Engels und Karl Marx, ١٨٤٤- ١٨٨٣ (Stuttgart, ١٩١٩), p. ٢٥٢.

(٣) Quincy Wright, A Study of War (Chicago, ١٩٤٢), I, ٢٩٤- ٣٠٠.

العسكري، نحو تأميم الجهود للحرب، ثم نحو زيادة عنف العمليات الحربية[١].

ومع أن إدارة الحرب في المراحل الأولى كانت عملاً إدارياً من عمل القادة وأمرآء البحر، فإن مشكلة توجيه كل موارد الأمة نحو هدف محدد كانت أوسع مدى من أن تتولاها طبقة واحدة من الزعماء، ومن ثم كان هذا مسئولية كل أفراد الشعب والحكومة[٢]، ومع ذلك فإن نقص اهتمام الزعماء المدنيين بالشئون العسكرية بالإضافة إلى ازدياد تقبل فكرة أن السلم هو الحال الدائمة الطبيعية للمجتمع قد جعل العناصر المدنية على غير أهبة ـ بالقدر الكافي ـ لتقبل الدور المتزايد النشاط للحرب، هذا النشاط الذي جعله التقدم الصناعي والفني أمرًا لا يمكن تجنبه.

ولما كانت الطاقة لإدارة الحرب ترتبط ـ ارتباطًا لا انفصام فيه ـ بطبيعة الحكومة نفسها، لم يكن من سبيل لأن تتجنب الحكومات الديمقراطية ـ الأقل تركيزًا (مركزية) لتنظيمها والأكثر إطلاقًا لأساليب السيطرة ـ التنكب في كثير من المضار عندما تقاتل ضد دول أكثر إحكامًا في تنظيمها وأقل ديمقراطية.

وقد وقفت فلسفة السلم التي آمنت بها بعض الديمقراطيات موقف التضاد من الخطى التي كانت تمكنها (هذه الديمقراطيات) من تعبئة وتوجيه جهودها العسكرية تبعًا للأسس التي فرضها التقدم الفني في العصر

---

(١) نفس المرجع ١ ص ٣٠٢ ـ ٣١٠.

(٢) Maj. Gen. Sir F. K. Maurice, Govermment and War (London, ١٩٢٦), p. ١٢٣.

وقد قال كليمانصو أيام الحرب العالمية الأولى:

"La guerre est une chose trop sérieuse pour qu'on la laisse diriger par les militaires".

الحديث، وهكذا فإنه على حين نظمت بعض دول القارة الأوروبية إداراتها المركزية لتوجه النشاط الحربي تبعًا للنموذج الذي قامت على أساسه هيئة أركان الحرب العامة البروسية ـ الألمانية تأخرت بريطانيا والولايات المتحدة عن القيام بهذا التنظيم حتى كان القرن العشرون، وكان خوف كل منهما من تكوين هيئة تدفعها للإنغمار في استعدادات معينة للحرب ـ ما تعتقد أنه أصلاً فيها (في الحرب) ـ كان هذا الخوف هو الذي حال دون إنشائهما لهيئة أركان الحرب العامة برغم ما وضح من نفعها[١]، ولهذا لم يكن في بريطانيا كما لم يكن في الولايات المتحدة هيئة للتخطيط وتنسيق العمليات لها ماضيها التاريخي ولها سلطاتها كما كان لهيئة أركان الحرب الألمانية العظيمة الشأن.

وكانت الحرب الأهلية الأمريكية مظهرًا دل على ما سيكون عليه طابع الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨، فلقد شهدت الحرب الأهلية الأمريكية استخدام الحشود الكبيرة من القوات، وشهدت استخدام الخطوط الحديدية والبرق، والسفن المدرعة، والمدفعية المحملة على عربات السكك الحديدية، والبالونات، والبنادق ذاتية التعمير، شهدت الخنادق وموانع الأسلاك الشائكة، وجعلت صناعات الشمال الأفضلية في جانب الشماليين بدرجة أكبر مما فعلت الجرأة والشجاعة والصفات العسكرية للجنوبيين، ومكنت الآلات مثل آلات الحصاد من إخلاء عمال الأرض للإنضمام للقوات المسلحة، ومكنت الشماليين في نفس الوقت من السيطرة

(١) التقرير السنوي لوزير الحربية (الأمريكي) ١٩٠٢ طبع واشنطون سنة ١٩٠٣ ص ٤٤ ـ ٤٩ راجع أيضًا:

Richard Burdon Haldane: an Autobiography (London, ١٩٢٩), pp. ٢١٢ - ٢١٣; and e. Root, Military and Colcnial Policy of the United States (Cambridge, Mass. , ١٩١٦), pp. ١٠٨- ١١٠.

على أسواق القمح في أوروبا ثم كانت كذلك من العوامل ذات الأهمية الكبيرة فيما انتهت إليه الحرب، وقد مكنت سرعة تطور نيران الأسلحة الحديثة من ارغام الجنود على الاختفاء في الخنادق(١)؛ فإذا لم يكن من الممكن الوصول في المراحل الأولية للحرب إلى قرارات حاسمة تبع هذا صراع مرير للإجهاد، وقد دعمت حرب البوير والحرب الروسية ـ اليابانية من هذه الدروس.

ومع هذا فإن الخطط العسكرية لهيئات أركان الحرب الأوروبية هي التي أكملت الحرب التقليدية حرب الحركة لتستطيع المناورة فيها أن تجيء بالقرار الحاسم، وفيما عدا اللورد كتشنر فإن كل الزعماء الرسميين كانوا يعتقدون بأن الحرب الأوروبية ستنتهي في شهور، وقد بقي هذا الاعتقاد يسود كل الدوائر حتى نهاية المارن (٦ ـ ٩ من سبتمبر سنة ١٩١٤) والتي تبعها الالتجاء لحرب الخنادق في الغرب.

وفي فجر سنة ١٩١٥ امتد خط الخنادق من البحر إلى سويسره فواجه المتقاتلون بوضع لا أجناب له لتطوى في الأسلوب العادي، ومن ثم كانت حرب الحركة غير مستطاعة بل ومستحيلة، ولم تلبث خطوط الخنادق المحروسة بالرشاشات الثقيلة والمدفعية أشبه بدروب ضيقة تحدها الأسلاك الشائكة، ويجب أن تدمر بعمليات المدفعية طويلة الأمد؛ وكانت هذه بدورها عاملاً من عوامل فقد المفاجأة، ومع ضياع أي فرصة لعامل الحركة ولعامل المفاجأة من الجبهة الغربية بدأت حرب مواقع لا بديل لها غير الهجوم الأمامي الغالي الثمن وغير الإجهاد المتواصل للمواقع الدفاعية(٢) .

(١) I. J. de Bloch, The Future of War (Boston ١٩١٤).

(٢) P.J. I. Azan, The War of Positions (Cambridge ١٩١٧). =

ـ ٢ ـ

وفي سنة ١٩١٥ كانت المواد هي العامل الحاسم في الحرب، وتجاوزت مطالب حرب الخنادق من كل أنواع العتاد الحربي والإمدادات كل التقديرات السابقة، ولم يلبث أن وضح بأن الزعماء العسكريين المحترفين لا يستطيعون تنظيم الموارد الأهلية بكفاية ومهارة في مثل هذا الصراع[١] بل قد تطلب هذا تعاونًا تامًا بين الزعماء المدنيين والعسكريين إلى درجة لم تكن معروفة من قبل في الحرب، ولما كانت الحرب العالمية الأولى حربًا تتقاتل فيها قوات متحدة متحالفة في ميادين فسيحة، فقد تطلبت تفكيرًا ونشاطًا مدنيًا لإدارتها.

وقد يستطيع المرء ـ مع المخاطرة بزيادة تبسيط الأمر ـ بأن يقول أن حرب (١٩١٤ ـ ١٩١٨) قد قدمت مشكلتين صعبتي الحل:

أولاهما: كيف يمكن الإعداد لحرب تقوم أساسيًا على المواد والعتاد.

وثانيتهما: كيف يمكن تنسيق المجهود الحربي في حرب حديثة الطابع تتقاتل فيها جيوش لعدة أمم متحالفة.

=ولدراسة أمثلة عن طبيعة عمليات حرب الخنادق سنة ١٩١٦ يرجع إلى كتاب:

J. E. Edmunds, Military Operations, France and Belgium, ١٩١٦ (An Official History of the Great War) (London, ١٩٣٢), vol. I.

(١) في ٣١ ديسمبر سنة ١٩١٤ بعث السير چون فرنش قائد الجيش الإنجليزي في فرنسا بطلبات الذخيرة اللازمة لقواته بمعدل اعتبر إذ ذاك عاليا وهو: ٥٠ طلقة لكل مدفع عيار ١٨ رطل يوميًّا، ٤٠ طلقة لكل مدفع عيار ٤.٥ بوصات هاوتزر، ٢٥ طلقة لكل مدفع عيار ٤.٧ بوصات؛ وفي سبتمبر سنة ١٩١٥ كانت الحملة البريطانية في فرنسا تستهلك يوميا ٢١.٠٠٠ طن من الذخيرة، راجع:

Sir Douglas Haig's Despatches (London, ١٩٢٠), p. ٣٣٣.

وكان من الواضح أن هذين الواجبين يمكن في ضوء طبيعة الأشياء أن ينفذا بوساطة عنصر مدني بحال أفضل مما ينفذا بوساطة عنصر عسكري، ووجدت حتى الإمبراطورية الألمانية وهي الدولة الملكية نظام الحكم أنها لن تستطيع متابعة حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ دون المعاونة الفعالة من جانب العناصر المدنية، وكان في مقدمة المدنيين الذين قاموا بهذه المعاونة في ألمانيا الدكتور وولتر راثيناو Walther Rathenau(*) مدير شركات للكهرباء والصناعات الكيميائية مثل:

Electrochemische Werks, the Allgemeine Elektrizitats Gesellschaft

ومائة أخرى من الشركات والمصانع، وكان هذا الرجل قد أشرف على كثير من الإنشاءات الكبيرة في كثير من بلاد العالم، ومكنته درايته بأسس الصناعة وخبرته الواسعة بالبلاد والناس خارج ألمانيا من أن تتوافر له نظرة أوسع مدى مما يمكن أن يتوافر للضابط أركان الحرب العادي، وقد رأى الدكتور راثيناو أن الحرب في الواقع عملية ضخمة من عمليات الحركة والإمداد والإطعام والعناية بعدد كبير من الرجال يشتركون في القيام بواجب تدميري لا إنشائي، ورأى أن الحرب الحديثة تستخدم المواد بدرجة أكبر وأسرع مما كانت تستخدمها الحروب السابقة، فلما أن قضت معركة المارن على آمال ألمانيا في نصر سريع في الغرب رأى راثيناو حاجة ألمانيا في الاحتفاظ بالمواد الخام وتنظيم استهلاكها على أساس حرب طويلة الأجل.

وقد عبر الأستاذ شوتويل Shotwell عن هذا بقوله:

(*) وولتر راثيناو رجل من رجال الصناعة والسياسة الألمان ولد سنة ١٨٦٧ واغتيل سنة ١٩٢٢ بيد مجهول.

«وبدلاً من أن تبدو لعيني راثيناو قولات من الجنود تتقدم إلى مسرح الحرب لتتصادم كان يرى أبنية ذات مداخن طويلة تمتد بين برلين ونهر الرين وقد اشتعلت النيران داخل أفرانها، وراحت المداخن الطويلة تنفث الدخان من أفواهها إلى عنان السماء، كانت هذه الأبنية ذات المداخن العالية في تقدير راثيناو هي العامل الحاسم في الحرب الحديثة»(١) .

ولم يكن راثيناو هو الصناعي أو الاقتصادي الوحيد الذي عرف حقيقة الموقف وأبصر (الكتابة التي على الحائط)، ويقال أن ارثر ديكس Dix قد بعث بمذكرة إلى مولتكة سنة ١٩١٤ موضحًا له الحاجة إلى هيئة أركان حرب اقتصادية، ويقال أن مولتكة قد بعث إليه برد جاء فيه: «لا تضايقني بحديث عن الاقتصاد إنني أشغل تمامًا بتوجيه الحرب»(٢) .

وكان راثيناو أكثر نجاحًا مع الـچنرال ڤالكنهاين الذي كان وزيرًا للحرب سنة ١٩١٤ ثم خلف مولتكة بعد هزيمته في المارن، فقد أقنع ڤالكنهاين بأن التعبئة الجيدة والاستهلاك المنسق للمواد الخام هما العاملان اللذان يمكنان من متابعة الحرب بنجاح، وبإنشائه إدارة أطلق عليها اسم Kriegsrohstoff-Abteilun مع هيئة مكتب تمهيدية من ثلاثة من الضباط أركان الحرب بدأ العمل يسير ومع الأيام كانت هذه الإدارة تقوى وتتسع أعمالها إلى أن كانت في سنة ١٩١٨ أكبر إدارات وزارة الحرب(٣) .

(١) J.T. Shotwall, What Germany Forgot? (New York, ١٩٤٠), p. ٢٠.

(٢) منقولة من كتاب «الاستراتيـچية الكبري للمحور».

Axis Grand Strategy, Edited by l. Farago et al. (New York, ١٩٤١) p. ٤٩٩.

(٣) أحسن مرجع لدراسة تاريخ راثيناو وأعماله كتاب:

H. Kessler: Walther Rathenau sein Leben und sein werk (Berlin ١٩٢٨).

ويعتبر عمل راثيناو بالاشتراك مع عمل الدكتور ڤريتز هابر[*] Fritz Haber (الذي مكنته مهارته في الهندسة وصناعة الكيمويات من إعداد مطالب ألمانيا للمفرقعات شديدة الانفجار بعد أن أوقف استيراد ما تحتاجه من قنوات شيلي بسبب الحصار البحري البريطاني)، من أهم العوامل التي مكنت ألمانيا من المقاومة لأربع سنوات طوال ضد حلف قوى أفضل في الموارد والرجال.

ومع هذا فإن ما حققته الصناعة الألمانية من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٨ كان مخيبًا لآمال راثيناو ولم يمنع إنهيار ألمانيا والدرس الذي يمكن الخروج به من هزيمة ألمانيا، هو الحاجة إلى ضرورة توافر سيطرة كاملة بدرجة أكبر على الصناعة والموارد بما فيها القوى البشرية في أي حرب قادمة تشنها ألمانيا للثأر.

وقد درست «اقتصاديات الحرب» بعناية في ألمانيا في الفترة التي تبعت الحرب العالمية الأولى، وحتى قبل أن تنتهي الحرب العالمية الأولى رأى راثيناو أن تغييرات عظيمة في البناء الاقتصادي الاجتماعي لألمانيا وشيكة الوقوع[١]؛ وكانت هذه التغييرات إلى اتجاه ألمانيا نحو دولة اشتراكية في السلم وإلى سلطة عسكرية مطلقة في الحرب، لقد جمعت دروس الحرب العالمية الأولى وتبلورت صورتها لدى هيئة أركان الحرب الاقتصادية التي

(*) ڤريتز هابركيميائي ألماني (١٨٦٨ ـ ١٩٣٤) ولد في برسلاو، نبغ في الصناعات الكيمائية وقد استطاع أن يخترع استخراج النشادر صناعيًّا للمفرقعات معجم لاروس ١٩٤٧ ص١٤٢٩ .

(١) راجع مناقشة وجهات نظر راثيناو في كتاب:

A. T. Lauterbach "Roots and Implications of the German Idea of Military Society" in Military Affairs, V (Spring ١٩٤١), ٥ - ٨.

كونها وتولى رياستها الـچنرال چورچ توماس وكانت هذه الهيئة هي القوة الدفاعة وراء المشروع الذي اشتهر به جيرنج «مشروع السنوات الأربع»[١] .

وقد جاهد في بريطانيا عدد محدود من الرجال أمثال لويد چورچ ونستون تشرشل لحل المشكلات العسكرية والصناعية والسياسية التي نجمت عن قيام حرب المواد والموارد (١٩١٤ ـ ١٩١٨)، وكان هؤلاء يعملون في بلد ديمقراطي برلماني في مواجهة كل العوامل المعطلة التي يوجدها النظام الديمقراطي في إدارة الحرب، ومن هنا كانت مساهمتهم في التفكير والتوجيه للحرب تستحق العرض في صورة أكثر تفصيلاً وإفاضة مما قدمت به أعمال راثيناو.

ولم تكن للويد چورچ سابق دراية أو تجربة بالحرب، فقد شغل بالعمل في المشكلات الاجتماعية والقانونية والسياسية، وكان تشرشل قد حضر دراسة وفترة تدريب قصيرة بسند هرست كما خدم في القوات العسكرية بالهند، وقد أدى به هذا إلى عمله كمراسل حربي ومؤرخ وسياسي وقد بدا لويد چورچ أثناء حرب البوير كناقد يقف موقف التضاد من الاستعمار، فلما انتهت الحرب قاده شغفه بالتشريع الاجتماعي إلى معاوضة الميزانيات العسكرية والبحرية[٢] .

وعلى النقيض كان تشرشل معنيًا بالشئون البحرية بعد سنة ١٩١١، وأحس في نفسه القدرة ليكتب مذكرة للجنة الدفاع الإمبراطوري عن سير

(١) نوقشت في كتاب:

G. Thomas, Wehrwitschaft (Berlin, ١٩٣٩).

(٢) The War Memories of David Lioyd George (London ١٩٣٣ - ١٩٣٧), I, ١٠.

سيشار للكتاب فيما بعد بكلمتي «لويد چورچ» فقط.

الغزو الألماني لفرنسا الذي كان محتملاً أيام أزمة أغادير(١)(*)، وقد تورط الرجلان في حوادث حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨، كان لويد چورچ وزيرا للمالية، وكان تشرشل أمير البحر الأول ووزيرًا للبحرية سنة ١٩١٤ وعندما جاءت الحرب في سنة ١٩١٤ فسر تشرشل اختصاصاته كأمير البحر الأول في الامبرالية في أوسع مدى مستطاع، وقد كتب عن هذا: «لقد تقبلت المسئولية كاملة لتحقيق نتائج ناجحة، وبهذه الروح توليت الإشراف العام على كل ما نفذ وما اقترح تنفيذه، وإلى أبعد من هذا توافرت لي سلطة كاملة لا حد لها في اقتراح وتنفيذ كل ما يتطلب تنفيذه تصديق وزير الأسطول وحده»(٢).

(١) W. S. Churchill, the World Crisis ١٩١١ - ١٩١٤ (London ١٩٢٣), pp. ٥٨ - ٦٢. The four volume Series: The World Crises ١٩١١ - ١٩١٤, The World Crisis ١٩١٥, and The World Crises ١٩١٦ – ١٩١٨).

سيشار للكتاب فيما بعد بكلمات (تشرشل المجلدات ١ ـ ٤).

(*) أغادير مدينة مراكشية كانت في وقت ما ميناء لها أهميتها على أساس أنها آخر ميناء بحري على الساحل المراكشي، قللت أهميتها ثورة سنة ١٧٧٣ ونهضة ميناء (موجادور)، أما أزمة أغادير، والتي كادت تؤدي إلى حرب أوروبية في نطاق واسع في أغسطس سنة ١٩١١ فعلى ما يقال كانت متوقعة قبل أن تستكمل حلقاتها، وقد تطورت الأزمة كما يلي:

كانت معاهدة الجيسيراس Algeciras التي وقعتها سنة ١٩٠٦ كل الدول الكبرى بما فيها ألمانيا قد أوكلت إلى فرنسا وأسبانيا إقرار نظام في مراكش المضطربة على ما قيل يوم ذاك، وقد ظن أن هذه المعاهدة ستضع حدًّا للمسألة المراكشية، ولكن فجأة وصلت ميناء أغادير سفينة حربية ألمانية هي السفينة باتثار واستبدلت فيما بعد بالطرادة برلين، وطلب الامبراطور غليوم «بمكان تحت الشمس».

وقد استمرت المفاوضات طويلًا بين الدولتين وانتهت بموافقة ألمانيا النزول عن مطالبها باحترام حق سلطان مراكش وأعطيت ألمانيا في مقابل هذا بعض أجزاء من الكونغو الفرنسي.

معجم افريمانز المجلد الأول ص١٥٧ .

(٢) نفس المرجع ص٢٥٩ .

واستطاع تشرشل ــ بطبيعة استعداده لتقبل المسئولية ولتوافر الإدراك الحسي فيه، ثم للغته القوية الواضحة ـ من أن يعمل بسرعة وسط أعضاء مجلس الوزراء البطيء العمل كما تعمل «البيومة بين الصيل».

وجاء به مركزه إلى اتصال مباشر بكل مراحل الحرب، ولم يقنع بإدراة الأعمال البحرية بل جازف بالانغمار في ميدان الاستراتيجية العسكرية كذلك، وفي الخامس من سبتمبر سنة ١٩١٤ كتب مذكرة إلى اللورد كتشنر مقترحًا نقل فيلقين روسيين بطريق البحر من أركانجل(*) إلى أوستند لضرب مواصلات الألمان(١) واشترك بنصيب في أعمال الدفاع عن انتورب، وألح لتنفيذ مشروع للحصول على حلفاء في البلقان(٢) وبذلك تحول رجل مدني يتولى رياسة إدارة حكومية ليكون في صورة ما رجلاً من هيئة أركان الحرب وأن يكون هذا تطوعًا منه.

وقد أدرك ونستون تشرشل ولويد چورچ أهمية توقف الحركة في فرنسا سنة ١٩١٥ تبعًا لقيام حرب الخنادق، ولكنهما انتهيا بتفكيرهما إلى رأيين بينهما خلاف بسيط، فقد نظر تشرشل للمشكلة في بساطة ممثلة في استعادة المناورة، وكانت «مدافع الماكينة» الرشاشات الآلية التي تطل من أعلى الخنادق مشكلة تقف كل العقائد العسكرية تجاهها دون أن تستطيع شيئًا ما، وقد كتب تشرشل يقول:

(إن المعارك تكسب بالذبح والتقتيل والمناورة، وكلما ازداد استخدام

(*) أركانجل Archangel ميناء بحري على البحر الأبيض في شمال روسيا تعداد سكانها ١٩٤٠٠٠) والميناء عاصمة منطقة تمتد في الشمال على المحيط القطبي يصل تعداد سكانها ١.١٩٩.٠٠٠ واسم الميناء بالروسية Arkhangelsk.

(١) نفس المرجع ج١ ص ٢٩٣ .

(٢) نفس المرجع ج١ ص ٣٩٠، ج٢ ص٢ .



ونستون تشرشل (١٨٧٤ ـ   )

القائد «للمناورة» ارتفعت مكانته وقلت عمليات الذبح والتقتيل في معاركه).

(إن النظرية العسكرية التي جاءت «بمعركة الإجهاد» إلى مركز الصدارة إنما تتضاد وتتعارض مع كل صور التاريخ، وكان من الضروري أن يرفضها كل كبار القادة في العصور القديمة لو كانت قد جاءت إلى الوجود في أيامهم).

«إن كل المعارك التي اعتبرت أبرز أمثلة الفن العسكري والتي أقامت دعامات الدول وأقامت صروح شهرات القادة كل هذه المعارك كانت معارك للمناورة، وفي كل من هذه المعارك كان العدو يجد نفسه وقد انهزم بأسلوب مُستحدث بخدعة غريبة أو بطعنة سريعة من اتجاه أو في اتجاه غير متوقع وفي كل هذه المعارك كانت خسائر المنتصرين قليلة، وكان تكوين القائد الكبير لا يتطلب منطقًا جيدًا وتصورًا واسعًا فحسب، بل وأن يتوافر فيه عنصر الشعوذة Legerdemain وأن تتوافر فيه أيضًا لمسة أصيلة شريرة هي التي تجعل العدو حائرًا لا يمكن أن يقدر ما سيحدث، ومن ثم فإنه ينهزم حتى قبل الاشتباك جديًا في المعركة».

ولما كانت تتوافر للقادة العسكريين المواهب التي تمكنهم من ضمان النصر ومن الاقتصاد في إزهاق الأرواح وتقليل الخسائر، بلغت الجندية مرتبة عالية من الشرف، ولو كانت كل صناعتهم قد بقيت لا تزيد شيئًا على تبادل إزهاق الأرواح وإحصاء الرءوس في النهاية لبقيت هذه الصناعة لا تلقى شيئًا من تقدير البشرية ولظلت في مستوى منخفض بين الصناعات».

«من الضروري التغلب على الخطر الآلي (خطر مدفع الماكينة وخطر

الطوربيد)، وبمجرد أن يتم هذا فإن الأسطول القوي والجيوش القوية ستستطيع استعادة حقوقها الطبيعية بالمناورة، وإلى أن يتم هذا فإن الأساطيل والجيوش ستظل تتابع الخطأ وستظل تحتمل الخسائر الفادحة»[١].

ووصل تشرشل في ختام بحثه المنطقي إلى أن حل المشكلة يقبع في أعطاف وضع رقيقة من الصلب بين السفينة وبين الطوربيد، وبين صدر الجندي وبين رصاصات الرشاش الآلي، ورأى أن يفلت من هذا التوقف للعمليات في فرنسا بفتح مسارح جديدة للحرب في الشرق الأوسط وفي البلقان.

ولم يشغل لويد چورچ نفسه بمراحل الحرب حتى كان قد ا نتهى من الخطى المالية التي جعلها الانتقال من السلم إلى الحرب ضرورية، ثم بدأ عقله النشط يكشف التنظيم العسكري والبرنامج الذي كانت وزارته تموله، وقد قاده ما استكشفه أكثر وأكثر ـ إلى الدور المباشر للاستعدادات وأخيرًا قاده إلى إدارة الحرب نفسها.

لقد بدت الحرب له كمعركة مواد، ودله أسلوبه التفكيري إلى أن سياسة التحصيل والحيازة لوزارة الحرب تعطل منها الأساليب الرجعية التقليدية، ولم يلبث أن نظر نظرة شك للقيادة العسكرة البريطانية التي زادت واتسع نطاقها مع الحرب، وقد وجد أنه في مطلع الحرب كانت كل عمليات الإمداد حتى عقود حياكة ثياب الجنود تتركز في وزارة الحرب[٢]، وكان لورد فرنش أول قائد للحملة البريطانية في فرنسا كما كان خليفته هيج من الخيالة، وكان كتشنر ضابطًا من المهندسين، وقد شعر لويد چورچ بأنه

---

(١) نفس المرجع ج٢ ص٥، ٦، ٧ .

(٢) لويد جورج ج١ ص١٢٤ ـ ١٢٥ .

ليس في هؤلاء فضلاً عن أن القليلين جدًا في أوروبا هم الذين تتوافر لهم دراية باحتياجات الإمداد لحرب الخنادق[١] .

لقد كان هيج وخليفته بطيئين في إدراك التطورات التي لحقت بالأسلحة، ومن ثم فإنهما لم يستطيعا إدراك ما سببته هذه التطورات (في الأسلحة) من تغييرات لا يمكن تجنبها ـ في الأساليب والوسائل، ولقد رفضا في البداية ما تطلبه وحدات المدفعية من القنابل شديدة الانفجار (ش/ ف) تفضيلاً منهما للقنابل «الشرابنل»، على أن لويد چورچ لم يوجه اللوم لوزارة الحرب لفشلها في إعداد كفايتها من الذخائر والعتاد للقوات الكبيرة التي كان من الضروري أن تسهم في الحرب، ولكنه اتهم رجالها بالقصور العقلي لفشلهم في التقدير المبكر لما يجب توقعه من تطورات وما يتطلبه هذا من إنتاج لمختلف أنواع الذخائر[٢] .

وقد اعتبرهم لويد چورچ مسئولين لفشلهم في إدراك أن حرب القرن العشرين هي إلى حد بعيد صراع بين الكيمويين والصناع، وعندما ألح في أكتوبر سنة ١٩١٤ بضرورة زيادة طاقة مصانع الأسلحة تقاعس المدير العام

---

(١) نفس المرجع ج١ ص١٢٦، كان بين هؤلاء الشواذ القليلين رجل واحد حالت رتبته الصغيرة دون أن تلفت آراؤه الأنظار هو الكولونيل مايير من الجيش الفرنسي.

La France Militaire, December ١٥, ١٩٣٨.

(٢) لويد جورچ ج١ ص١٢٩، وجد الفرنسيون الذين كانوا أحسن استعدادًا من الإنجليز للإمدادات في سنة ١٩١٤، أن البرنامج الذي وضعوه قبل الحرب غير كاف بدرجة كبيرة، نفس المرجع ج١ ص١٥٢ / ١٥٣ وعلى حين أن كل الجيوش الألمانية استهلكت في حرب ١٨٧٠ / ٧١ ما جملته ٨١٧.٠٠٠ طلقة من ذخيرة المدفعية استهلكت الجيوش الفرنسية في سنة ١٩١٨ وحدها ٨١.٠٠٠.٠٠٠ طلقة (تقرير فرع الإحصاء في هيئة أركان الحرب الأمريكية رقم د ـ ٢ ـ ١٥٣).

للمهمات في الانتفاع من المبالغ التي رصدت لهذا على أساس أن المصانع لم تطلب معاونة لزيادة طاقتها[(١)]، وبقيت وزارة الحرب تؤمن بما آمنت قبل الحرب من أن المصانع الحربية وحدها وكذلك عدد قليل جدًا من المصانع الأخرى يمكن الوثوق به لانتاج معدات حربية يعتمد عليها.

وفي مذكرة تاريخها الثاني والعشرين من فبراير سنة ١٩١٥ أشار لويد چورج إلى أن الأمل الكبير في نجاح الحلفاء إنما يرجع إلى السيادة والأفضلية التي لهم في الموارد الصناعية[(٢)] فإذا ما أمكن تحقيق الاستخدام السريع الكامل لهذه الموارد وأمكن تنسيق جهود الحلفاء كان النصر على دول الوسط[(*)] مؤكدًا مضمونًا.

وقد كرر لويد چورج تأكيده لضرورة تعبئة كل الموارد الصناعية للإنتاج للحرب، وقد واجهت مقترحاته لتحسين الموقف الخاص بالذخائر عدة عراقيل وسلسلة من الاعتراضات العسكرية، واستمرت هذه العراقيل وتتابعت هذه الاعتراضات حتى كانت الهزة السياسية التي أعقبت حملة الدردنيل في سنة ١٩١٥؛ وكانت النتيجة تشكيل وزارة للذخائر يتولاها لويد چورج نفسه.

❊ ❊ ❊

وجاءت آراء تشرشل عن جنود حرب الخنادق وعن نقص التنسيق لجهود الحلفاء، في مذكرة له قدمها لرئيس الوزراء بتاريخ ٢٤ من ديسمبر

(١) لويد جورچ - ج١ ص١٣٣ .

(٢) نفس المرجع ج١ ص١٦٨ .

(*) . Central Powers دول الوسط، اصطلاح كان يعني به ألمانيا والنمسا والمجر.

سنة ١٩١٤، وقد كتب في مذكرته هذه:

«أظن بأنه من الممكن التيقن من أنه لن يتوافر لأي من الجانبين القوات الكافية ليخترق خطوط الجانب الآخر في مسرح القتال بالميدان الغربي، ودون محاولة الوصول إلى وجهة نظر نهائية فإنني أشعر بأن أوضاع كلا الجانبين المتضادين لن تتغير تغيرًا حاسمًا وإن كان ـ مما لا شك فيه ـ أن الآلاف من الرجال سيذهبون ضحية إرضاء الفكر العسكري من هذه الناحية».

«ومع افتراض صحة وجهات النظر هذه، تبرز مسألة: كيف يجب أن نستخدم قوتنا العسكرية المتزايدة، هل لا توجد وسيلة أخرى غير أن نرسل جنودنا ليقضموا الأسلاك الشائكة في الفلاندز؟، ثم ألا يمكن أن نجعل العدو يحس بدرجة أكبر ومباشرة بضغط قواتنا؟ وإذا كان من المستحيل اختراق الجبهات الحالية أو كان هذا مستطاعًا بثمن غال لا معوض له فهلاً من الواجب أن نستخدم ما يتوافر لنا من قوات جديدة في جبهات قتال أخرى، وأن نمكن الروس بدورهم من أن يفعلوا هذا أيضًا؟

«إن عمليات الحلفاء تسير في الغالبية مستقلة منفصلة عن بعضها، لهذا فإنه من الممكن أن نضع التخطيط من الآن لعلميات في شهري إبريل ومايو مما يمكن من أن تسنح الفرصة للوصول بالحرب إلى مرحلتها الحاسمة في البر والبحر، من الضروري ألا ننحرف (بعيدًا عن الهدف)، ومن الواجب أن نقدر الآن ـ ولا تزال أمامنا فسحة من الوقت، مدى وطبيعة ما نريد أن نخوض غماره من قتال في أوائل الصيف، من الضروري أن ننسق عملنا مع عمل حلفائنا وبخاصة روسيا، من الواجب أن نصنع مشروعات لهجوم ناجح مستمر وأن نكون على أتم أهبة بهذا التخطيط البديل عندما تفشل

الهجمات المباشرة الأمامية (بالمواجهة) على الخطوط الألمانية في فرنسا والبلـچيك، وأخشى أن أقول إنها ستفشل»[١] .

وعندما بدأ بأنه لا سبيل إلى خطة تبادلية مباشرة ورط تشرشل الأسطول في هجوم على الدردنيل، هذا الهجوم الذي سبب فشلاً بحريًا في ١٨ من مارس سنة ١٩١٥، كما أدى إلى محاولة غير ناجحة كثيرة الخسائر بوساطة الجيش للاستيلاء على شبه جزيرة غاليبولي، وقد أثار هذا الفشل إلى تضاد عنيف بين وزير البحرية وبين مستشاريه الأخصائيين من رجال صناعة البحر، وانتشر الاتهام في نطاق واسع بأن تشرشل قد أغفل نصيحة الأميرال لورد چون ڤيشر، الذي استقال احتجاجًا على الخسائر الفادحة الناجمة عن محاولة الدردنيل.

وهكذا ارتبطت كل مشكلة اكتمال الفكر المدني في النطاق العسكري بالعلاقة بين الرؤساء المدنيين وبين مستشاريهم من العسكريين المحترفين.

لقد كان نظام مسئولية المدنيين وسيطرتهم الكاملة على العمليات العسكرية نظامًا عمليًا عندما كان المستشارون العسكريون على درجة كبيرة من المهارة وكانت تتوافر لهم بصيرة نفاذة تسبق العصر الذي يعيشون فيه، ولكن عندما رفض هؤلاء المستشارون العسكريون المحترفون إدراك الإمكانيات التي جاء بها العلم ويمكن أن تحققها الصناعة، وتمسكوا ببرنامج استراتيـچـي لا يستطيعون الدفاع عنه في جدلهم مع المدنيين الأقدر على الجدل المنطقي، عندما حدث هذا انهار النظام كله وكانت لانهياره نتائج سيئة لها أثرها العسكري الأليم[٢] .

(١) تشرشل ج٢ ص٥ ـ ٦ .

(٢) كعامل هام في قصة العلاقات والمسئولية المدنية العسكرية يجب أن تشير إلى أن موقف=

- ٣ -

وكلف الفشل في الدردنيل تشرشل مركزه كوزير للبحرية، وبقى لبعض الوقت يعمل وزيرًا لمالية دوقية لانكاستر، على أنه قبل أن يترك وزارة البحرية كان قد بدأ مشروعًا جديدًا، هذا المشروع الذي خرج بالاختراع التكتيكي الرئيسي في الحرب ألا وهو: الدبابة.

وقد أمر تشرشل ـ مستخدمًا جانبًا من ميزانية وزارة البحرية ـ بصنع جرارًا مدرعًا يسير على جنزير ويحمل مدفع مايكنة (رشاشًا آليا ثقيلاً) بهدف أمكن اجتياز الأراضي المتعرجة في ميدان المعركة، وقد ناقش استخدام مثل هذه الآلة في مذكرة بعث بها إلى السير چون فرنش تاريخها الثالث من ديسمبر سنة ١٩١٥[1].

❊ ❊ ❊

وجاءت الدبابة الأولى وكان من الضروري ـ لكل اختراع جديد ـ أن تتضح أوجه الضعف نتيجة للاستخدام ولكنها ولا شك قد جاءت معها بثورة في «التكتيك» فن القتال، وهكذا فإنه بالرغم مما قام به تشرشل أبان

=اللورد ڤيشر قد أضعفت منه إلى حد كبير. حقيقة أنه بقي صامتًا في المجلس عندما وافق على اقتراح كان هو نفسه يعارضه بقوة، وفي مسألة مماثلة عندما وقف لويد جورچ موقفًا معارضًا لرأي روبرتسون، تحدث روبرتسون بقوة ووضوح مع أنه كان المتوقع أن يظل صامتًا، والواقع أن مسألة بقاء المستشار العسكري الفني صامتًا واعتبار هذا الصمت موافقة على خطط رئيسه المدني، لم تبحث بالقدر الكافي ولم توضح الأراء بشأنها قط، راجع:

Field Marshal Sir William Robertson, From Private to Field Marshal (London, ١٩٢١), pp. ٢٥٥, ٣١٧ - ٣١٨.

(١) نفس المرجع ج٢ ص٧٨ ـ ٨١ .

توليه وزارة الذخائر (١٩١٦ ـ ١٩١٨) من أعمال لها أهميتها وخطرها فقد بزت الدبابة كل عمل آخر وكانت أعظم وأهم مساهمة قام بها في تاريخ الحرب لهذا العصر.

لقد قام الكثيرون بأدوار هامة في تطور الدبابة، ولكن من الواضح أن القوة الدافعة وراء استخدام الآلة ذات الاحتراق الداخلي التي تقوى على اجتياز كل عوائق وموانع مسرح القتال طوال الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ جاءت من تفكير رجل مدني لا عسكري.

ولقد كتب تشرشل في سنوات الحرب إلى زعماء بريطانيا العسكريين والسياسيين عددًا لا حصر له من المذكرات أوضحت الطاقة غير العادية التي توافرت له لتفهم المشكلات الاستراتيـچية مع بعد النظر لإدراك التطورات المقبلة؛ وعلى سبيل المثال لا الحصر فإنه كتب سنة ١٩١٧ تقديرًا للموقف عن الإمكانيات التي تتوافر لطائرة القتال، والمذكرة طويلة ضافية قد لا يكون من السهل أن تقدم هنا مجملاً لها، ولكنها توضح نظرة ثاقبة لتقدير الاستخدام الصحيح للطائرة في المستقبل[١].

وقد أجمل مستر تشرشل بعد سنوات طوال وهو يسيطر من دار رياسة الوزارة البريطانية المنزل رقم ١٠ داوننج ستريت على حرب أكثر ازدحامًا بالمشكلات وبالمفاجآت عما كانت عليه حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨، أجمل مستر تشرشل يوم ذلك تجاربه في ميدان الإدارة العسكرية في الكلمات التالية:

«إن الحرب الحديثة حرب شاملة، ومن الضروري لإدارة مثل هذه الحرب أن ترشد الهيئات الفنية والمهنية بل وحتى أن توجه ـ إذا لزم الأمر ـ بوساطة الرؤساء الحكوميين الذين تتوافر لهم المعرفة لتفهم ـ ليس فقط ـ

(١) نفس المرجع ج٤ ص٣٠٩ ـ ٣١٣.

القوى العسكرية ـ بل ـ وأيضًا القوى السياسية والاقتصادية، والذين تتوافر لهم القدرة على توجيه هذا كله نحو الهدف»[١] .

ولقد عضد لويد چورچ الهجوم على الدردنيل بكل قوة بمجرد أن انتهى النقاش إلى هذا القرار، على أنه لم يفعل هذا لاعتقاده بأن الدردنيل أفضل منطقة لهجوم الحلفاء، بل بسبب رغبته في تجنب خطأ مهاجمة العدو في أقوى مواقعه فلقد كان لويد چورچ يعارض قيام الحلفاء بالجهوم في الميدان الغربي على أساس أنه لا تتوافر لهم القوة الكافية للنجاح في الغرب، وزاد فشل الحلفاء في رفع الضغط عن الغرب من شكوكه في كفاية لورد كتشنر في الميدان الاستراتيـچـي، ولقد شعر أثناء توليه وزارة انتاج الذخائر سنة ١٩١٥ بأن البيانات، المقدمة من وزارة الحرب عن المطالب والاحتياجات لتسليح الفرق الجديدة، ليست كاملة، وراح يمد الفرق الجديدة بوحدات المدفعية بمعدل يزيد ٢٥ ٪ عن تقديرات وزارة الحربية، وقد بدأ يعد العدة لتكملة المشروع لمائة فرقة بدلاً من الاكتفاء بإعداد الاحتياجات لسبعين فرقة فقط على ما جاء في بيانات وزارة الحرب[٢]، وعندما قدر كتشنر أن الكتيبة المشاة تحتاج رشاشين اثنين، قال لويد چورچ لجيديسGeddes: «ضاعف هذا العدد ثم اضرب الناتج في اثنين ثم ضاعف الجملة مرة ثانية اكتسابًا للحظ الحسن»[٣] (وبذلك فقد رفع العدد المطلوب للكتيبة من رشاشين إلى ستة عشر، وكان لهذا أثره في زيادة قوة النيران).

ثم تدخل بعد هذا في النظام الرتيب العادي لتسليح الجيش، وأمر

---

(١) من خطاب لتشرشل أمام مجلسي الكونجرس الأمريكي في العاشر من مايو سنة ١٩٤٣، على ما جاء في جريدة «نيويورك تايمس» ليوم ٢٠ من مايو سنة ١٩٤٣ .

(٢) لويد جورچ ج٢ ص٥٥٧ .

(٣) نفس المرجع ج٢ ص٦٠٥ .

بصنع ألف هاون طراز ستوكس برغم معارضة الجيش.

وهكذا نجد زعيمين مدنيين هما تشرشل ولويد چورچ يفرضان على هيئة عسكرية مترددة ضرورة تعديل عقيدتها في «تشوين» حشد أسلحة جديدة توقعًا لاحتياجها.

وقد كرر لويد چورچ مطالبته بضرورة تنسيق الأعمال العسكرية للحلفاء، وقد كتب بعد الحرب: «لقد كانت نقطة الضعف في استراتيـچية الحلفاء، أنه لم تكن هناك استراتيـچية له، وبدلاً من خوض غمار حرب عامة في جبهة واحدة بجهد موحد كانت هناك ست حروب منفصلة باستراتيـچية منفصلة لكل؛ لقد كانت هناك محاولة للإيهام بوجود (بقيام) توقيت زمني لهذه الضربات المنعزلة المنفصلة وكانت «نتائج الحائط» وبعض تواريخ الأيام المختارة هي الأساس الوحيد للاستراتيـچية المشتركة بين الحلفاء؛ ولكن لم تكن هناك فكرة مشتركة، ولا تنسيق حقيقي للجهود، ولا حشد متكامل معًا للموارد والمواد بالقدر الذي يمكن من توجيه أعنف الضربات وأقواها ضد أضعف نقاط العدو، لقد كان هناك عدد من الجيوش القوية لكلٍ استراتيـچيته الخاصة به، ولكلٍ موارده التي تمكنه من تنفيذ استراتيـچيته، ولم يبحث قط توزيع الرجال والمدافع والذخائر بالصورة التي تمكن من الحصول على أفضل النتائج بما يتيسر للحلفاء من موارد جملة واحدة، بل ولم تحشد العقول للقيام بدراسة كاملة لميدان القتال الفسيح لتقرير (أين) و (كيف) يمكن توجيه الضربات المؤثرة ضد العدو، ولم يحدث قبل سنة ١٩١٧ أن تقابل قائد له خطره ممن يحاربون في الميدان الشرقي وقائد له أهميته ممن يقاتلون في الغرب، وكان المؤتمر الذي عقد في خريف سنة ١٩١٧ واستمر ليومين اثنين وحضره كل كبار القادة العسكريين لتقرير العمليات للسنة القادمة، كان هذا المؤتمر فرصة للتعارف

والمصافحة، لقد جاء الجميع إلى المؤتمر وكل يضع خطته ومشروعاته في جيبه، ولم يكن هناك ما يمكن أن يناقشه الجميع، ومن ثم وضح بأنه من الضروري قيام هيئة تفكر تفكيرًا مشتركًا باسم الجميع»[١] .

ولم تفلح الجهود لإيجاد قيادة متحدة، ولا لوضع قوات بريطانية تحت إمرة قيادات فرنسية في عمليات خاصة محددة، كان هذا كله يقابل بمعارضة قوية من رئيس هيئة أركان الحرب الإمبراطورية وكذلك من جانب القائد العام للقوات البريطانية في فرنسا، وقد سبب هذا الخلاف بين لويد چورچ وبين روبرتسون وهيج على السيطرة الاستراتيـچية ـ والذي استمر طويلاً، سبب سوء العلاقات بين رئيس الوزراء والقيادة العليا، كان القادة العسكريون ينظرون إلى كل محاولة لتوحيد القيادة على أنها محاولة مستترة لإضعاف سلطاتهم والحد منها، واستطاع القادة العسكريون أن يعطلوا من قيام القيادة الموحدة عن طريق إثارة المشاعر القومية حينًا وبوساطة النظم الدستورية حينًا آخر، ولكن أخيرًا كانت نكبة مارس سنة ١٩١٨ سبب قيام قيادة موحدة في فرنسا[٢] .

وقد عارض القادة العسكريون المحترفون الكثير من مقترحات لويد چورچ على أساس القول بأنها مقترحات غير عملية يستحيل تنفيذها، ومن أمثلة ما عرضه وعورض فيه اقتراحه بسير السفن في قوافل متجمعة كوسيلة للوقاية ضد أعمال الغواصات، وقد كتب لويد چورچ عن هذا:

(١) نفس المرجع ج ٤ ص٢٣٤٧ ـ ٢٣٤٨ .

(٢) يبدو الجانب العسكري لهذا الخلاف في الرأي، في كتاب السير وليام روبرتسون: «من جندي إلى ڤيلد ماريشال» طبع لندن سنة ١٩٢١، وفي كتابه «الجنود والسياسيون» في مجلدين طبع لندن سنة ١٩٢٦، وتوجد دراسة نقدية لأساليب وآراء السير ويليام روبرتسون بقلم الكابتن بيتر رايت، راجع الهامش رقم ٤٢ .



دافيد لويد جورج (١٨٣ ـ ١٩٤٥)

«إن الصعاب التي واجهتها الهيئة الوزارية للحرب[*] عند مناقشة هذه المسألة تكررت في كل المسائل الأخرى كلما حدث الاصطدام والتضاد بين وجهات نظر المدنيين والعسكريين، إن علوم الحرب في البحر وأصول الاستراتيـجية لمسائل أبعد ما تكون عن الإدراك العام للمسائل وعن عبير السلطة الذي يطوف برؤوس أفراد هيئة القيادة العليا للأسطول، لقد كنت أواجه ـ كلما ألححت مطالبًا باستخدام نظام القوافل ـ بجدار صلب من تأكيد أن الأخصائيين في الأمبرالية يعرفون تبعًا لخبرتهم الفنية أن هذا التنظيم يستحيل تنفيذه، ومن ثم كان من الصعب متابعة هذا الاعتراض والتغلب عليه».

«وكان إصرارهم لأسابيع قليلة قادمة على رفض الإنصات لنصيحة تجيء من رجل يعمل خارج نطاق اختصاصهم وفنهم يعني الدمار الذي لا يمكن تجنبه، ولم تكن هذه هي المرة الأولى في الحرب التي يكون الدرس فيها غالي الثمن، الدرس الذي يمكن إجماله في أنه لا يمكن تنفيذ أي عمل قومي بنجاح في السلم أو في الحرب إلا بالتعاون الصادق بين الإخصائي وبين من يتولى الرياسة من غير رجال المهنة، هذا التعاون الذي يعمل له ويرحب به الإثنان معًا»[١] .

ومع مسير الحرب وضح حتى لأفراد القوات المسلحة، أن العسكريين

(*) في الأصل War Cabinet ويعني الاصطلاح: (هيئة من الموظفين المستشارين للرئيس التنفيذي في الدولة، ويكون هؤلاء عادة هم رؤساء مختلف المصالح الحكومية، وقد أخذت بريطانيا بهذا التقليد ولها داخل هيئة الوزارة ما يعتبر لجنة أو هيئة داخلية تتكون من بعض الوزراء هم الذين يتولون إدارة الحرب.
معجم ويبستر طبع نيويورك سنة ١٩٥٦ صفحة ٢٠٢ .

(١) لويد جورج ـ ج٣ ص١١٦٩ .

المحترفين الذين يتولون الإدارات العسكرية يتجهون ليعتبروا أنفسهم متحررين من تدخل الهيئات المدنية التي كان عليهم أن يتعاونوا معها لتحقيق النجاح، بل إنهم يعتبرون أنفسهم ـ في صورة ما ـ فوق الأمة نفسها؛ وقد كتب الكابتن بيتررايت عن هذا:

«وقد حررت هذه الخديعة الكبرى كل هيئة أركان الحرب من كل سيطرة، ولم يعودوا يعيشون من أجل الأمة بل إن الأمة هي التي تعيش أو تموت من أجلهم وفي سبيلهم إن كل ما كان يعني أنصاف الملوك هؤلاء ما إذا كان ويللي الشيخ الطيب أو إذا كان هاري المسكين الكهل هو الذي سيتولى رياستهم، أو هل سيتغلب حزب «شانتيه» على حزب «بوليـڤار دي زينـڤاليد»، لقد كان من الممكن أن يشتد وأن يتعمق العداء بين أي فرعين من فروع هيئة أركان الحرب بأكثر مما يمكن أن يحدث هذا بينهم وبين العدو»(١).

وقد ختم لويد چورچ حديثه المجمل عن موقف الحلفاء سنة ١٩١٧ بقوله: «لقد كان الخطأ الأساسي في استراتيـچية الحلفاء حتى الآن رفض الهيئات التي تتولى إدارة الحرب إدراك حقيقة أن مسرح القتال في أوروبا مسرح واحد لا يمكن أن يتقسم، وكانت نتيجة هذا الخطأ حشد أقوى الجيوش لمهاجمة أقوى الجبهات، على حين تركت الجبهات الضعيفة للجيوش الأقل عتادًا وإعدادًا»(٢).

وقد مثل السير ويليام روبرتسون ـ الذي تولى رياسة هيئة أركان

(١) Cpatain Peter Wright At The Supreme War Council (New York, ١٩٢١), p. ١٠٤.
سيشار إليه فيما بعد بكلمة واحدة هي Wright «رايت».
(٢) لويد چورچ ـ ج٤ ص٢١٦٩.

الحرب الإمبراطورية ١٩١٦ ـ ١٩١٨ مدرسة الجبهة الغربية في الفكر العسكري، وقد عضدت القيادة العليا الفرنسية والتي كان يسعدها اعتبار فرنسا المسرح الرئيسي للحرب ـ روبرتسون وهيج في خلافاتهما مع لويد چورچ، وكان أعضاء هيئة أركان الحرب الفرنسية لا يعنون كثيرًا بالقوة البحرية ولا يحاولون إدارك أهميتها، وكانت إجابتهم كلما اقتراح عليهم محاولة إيجاد جبهة أخرى للقتال في مكان آخر غير غرب أوروبا، «إن المسألة اليوم مسألة حمولة وقدرة على النقل».

ومن غير الممكن أن تتصور وجود رجلين على طرفي نقيض في الرأي أكثر مما كان روبرتسون ولويد چورچ، كان «وولى» روبرتسون رجلاً عنيفًا خرج من صفوف الجندية وارتقى أعلى درجات السلم العسكري بموهبته، وقد واجه في حياته الطويلة المشرفة كل ألوان المشكلات واستطاع استخدام نشاطه الكامل بصورة مباشرة، إما لإدراك الهدف، وإما لاجتياز العقبة والمضي بخطى أخرى نحو الهدف، فلما أن ووجه بخنادق الألمان في فرنسا قام بعمل مضاد لماع، كان رأيه حشد كل جهد عسكري في فرنسا، وقد رأى هذا على أساس أنه إذا دمر الجيش الألماني في فرنسا كسب الحرب، فلما انتهى إلى قرار بشأن المسرح الذي تخيره لعملياته أصر في عناد على مقاومة كل محاولة يقصد بها تحويل موارد بريطانيا إلى أي ميدان آخر، وكان روبرتسون صائب الرأي ـ على الأقل ـ في الجزء الأخير من رأيه؛ وقد عارض كل محاولات لويد چورچ لإقناعه بإمكان الحصول على ا لنصر وبثمن أقل في أي مكان آخر غير غرب أوروبا. وقد رفض روبرتسون هذا على أساس أن تحويل الجهود إلى مسرح آخر أو جبهة أخرى للقتال يعتبر عملاً يخالف مبدأ «حشد القوة في المكان الحاسم».

وكان روبرتسون بطيء الحديث، عميق التفكير مع عقلية غير مرنة رغم توافرها، وكان إذا توافر له الوقت استطاع أن يكتب مذكرات قوية منطقية، ثم إنه كان مخيفًا إذا غضب، فإن وجهه يبدو وقد صبغ بلون أحمر قرمزي، وتدور عيناه في مآقيهما ويقف شعر حاجبيه كسونكيات مشرعة معدة للطعن، كان يخيف مرءوسيه، ولكنه لم يستطع أن يقنع رئيس الوزراء أن الوسيلة الوحيدة لكسب الحرب هي أن يسلح كل رجل وكل صبي وأن يرسل بهم جميعًا إلى فرنسا «لقتل الألمان».

وكان الرجل المقابل له في ميدان القتال بفرنسا ـ السير دوجلاس هيج قائد القوات البريطانية في الميدان الغربي ـ رجلاً عارفاً بصناعته، ثاقب الرأي يجيد تبصر الأمور في الميدان المحدود أمامه، ولكنه كان كالكثيرين غيره يقاسي الأمرين من الافتقار للقوى الدافعة للوصول إلى الهدف الذي يعرفه تمامًا والذي يعرف ضرورة إدراكه وتحقيقه؛ وكان دوجلاس هيج يجيد التعبير عن رأيه على الورق فهو لا يجيد النقاش لا عن عي ولا عن لكنة، ولكن كانت الحركة الأمامية لفكه الأسفل تظهره بمظهر العنيد أكثر من الاستناد إلى الأسباب القوية التي يراها، ولهذا كان موقفه ضعيفًا في نقاشه للوزراء»(١) .

وقد قدر كلا الرجلين أهمية كبيرة للتفسير العسكري لنظرية الولاء والإخلاص، وإن كان تفسيرهما بقى موضع النقد المستمر(٢)، وقد وجد كلاهما أن لويد چورچ بشخصيته وعقليته يعتبر عاملاً مجهدًا معطلاً لا يحتمل، وقد شعر كلاهما بأن أسلوب لويد چورچ في إدارة الحرب يعرض

(١) Brigadier General E. L. Spears, Prelude to Victory (London, ١٩٣٩), p. ٢٦٦.

(٢) نفس المرجع ص ٢٧٠ .

الأمة كلها للخطر، وهما لا ينكران نشاطه وعزيمته فلا يستطيع هذا أي فرد، وقد كتب الكابتن رايت:

«بالرغم من أساليبه ـ يقصد لويد چورچ ـ المنحرفة وبالرغم من الهوى المتأصل فيه وميله للأفراد الوضيعي الأصل غير المستقيمين، وبالرغم من شعور أنصاره ـ حتى في ذروة إعجابهم به ـ بعدم الثقة بعقليته السطحية المتعجلة فإن مضاء عزيمته قد جعله ـ دون منازع ـ زعيم الحلف الغربي»(١).

* * *

كان هؤلاء الرجال الذين أثروا بشخصياتهم في الصراع بين العناصر المدنية والعناصر العسكرية في الحكومة البريطانية من سنة ١٩١٦ إلى سنة ١٩١٨، لقد عمل لويد چورچ كما عمل القادة العسكريون لكسب الحرب بكل قوة بدنية وعقلية، ولكن كان كل من الجانبين يعتقد أن الجانب الآخر على خطأ، وافتقر العسكريون إلى اللغة وإلى أسلوب المناقشة اللذين لو توافرا لاستطاع العسكريون أن يحسنوا عرض قضيتهم وأن يدافعوا عنها.

ويتضح المظهر الحاسم الخطير للتضاد بين لويد چورچ وبين روبرتسون وهيج من أن الرجل المدني الذي يقف على رأس الديمقراطية الإنجليزية لم يلبث أن وجد نفسه غير قادر على فرض إرادته على القادة العسكرين، وكان هذا يرجع أحيانًا لأسباب سياسية، على أنه لما كان الشيء نفسه يحدث في نفس الوقت في بلاد أخرى، وبخاصة في فرنسا، كان الخطأ إذن في النظام أكثر من أن يكون في الأشخاص، ولقد عارض لويد چورچ بقوة وإصرار تنفيذ الهجوم الإنجليزي في باشنديل سنة ١٩١٧، ولكنه لم

(١) «رايت» صفحة ٢٧ .

يستطع إيقافه تمامًا، ثم إن لويد چورچ لم يكن قويا بالقدر الذي يمكنه من المجازفة بإعفاء هيج وروبرتسون من منصبيهما، ذلك لأن البلاغات الرسمية عن الحرب كانت قد اتجهت من البداية لبناء شخصيات العسكريين وتجسيمها في عقول المواطنين العاديين، وكان هيج وروبرتسون يحظيان بتأييد شعبي أقوى من أن يمكن إعفاؤهما من العمل. وهكذا أرغم لويد چورچ على أن يسهم في برنامج كان يعرف من البداية أن مصيره الفشل.

ولم يستطع السياسيون في فرنسا وبريطانيا أن يحققوا الكمال العسكري لسياستهم إلا بعد أن اضطر الحلفاء نتيجة للفشل إلى تعديل نظامهم لإدارة الحرب في تنسيق تام لجهود الحلفاء كلهم.

ويوضح الهجوم الفاشل في نيـڤيل Nivelle بفرنسا سنة ١٩١٧. هذا النظام المعقد غير المعقول والذي كان طابع التوجيه الديمقراطي للحرب. ويكشف لنا الـچنرال سبيرز في كتابه « التمهيد للنصر» عن كل حوادث الاصطدام بين السلطات المدنية والسلطات العسكرية.

وقد كتب سبيرز عن مؤتمر كومبيين، والذي كان واحدًا من الاجتماعات التي كان من الضروري عقدها ليتم وضع خطة الهجوم في نيـڤيل موضع التنفيذ، كتب سبيرز عن هذا:

«يقف مؤتمر كومبيين كنصب عالي البناء يوضح عدم كفاية الديمقراطية في الحرب، يوضح عدم قدرة الوزراء على مواجهة الفنيين، ثم عدم استطاعتهم بحال ما الموازنة الدقيقة بين مختلف الآراء الفنية وتخير أفضلها؛ كان رئيس الوزراء (لويد چورچ) وبينليـڤ يسيطران على وزارة

الحرب، وكان بينليـف يسيطر على الجيش؛ كانت تتوافر لهما السلطة للسيطرة على القائد العام الذي لم يكونوا يثقون بتخطيطه للمعركة، ولكنهم كانوا غير أكفاء لإبراز عوامل الفشل في هذا التخطيط، ثم إنهم لم يكونوا يستطيعون اقتراح خطة بديلة لتخطيطه، وكانوا عاجزين حتى عن أن يأمروا بوقف تنفيذ التخطيط الذي وضعه القائد العام».

«لقد كانت للهيئة الوزارية التي تتولى إدارة الحرب سيادة اسمية فقط، وكان يعطل من هذه السيادة النقص في المعرفة الفنية، فضلاً عن التقيد بالرأي العام الذي كان يحذر جهل أفراد هذه الهيئة الوزارية بالمسائل العسكرية والذي كان يضيق بتدخل المدنيين في الشئون العسكرية؛ إن اليوم السادس من إبريل سنة ١٩١٧ ليوضح في إيجاز العجز المخيف الذي اتسمت به الدول الديمقراطية فهي حتى في كفاحها من أجل وجودها وكيانها لم تكن بقادرة على أن تحرر نفسها من العجز الذي تتنكب فيه[١] .

* * *

وأخيرًا كانت هزيمة سنة ١٩١٨ .

واضطر الحلفاء إلى تقبل نوع من القيادة الموحدة تحت رياسة ڤوش، واستبدل روبرتسون بالـچنرال ويلسون الذي كان أكثر تقبلاً لإغواء لويد چورج واقناعه، وكبداية لهذه القيادة المتحدة شكلت هيئة عاملة لتوجه الحرب في ڤرسايـل، ولكن الحرب انتهت قبل أن يتضح ثقل هذه القيادة في ميزان «القرارات العسكرية».

وسبب انتصار الحلفاء سنة ١٩١٨ نسيان فشل تنظيم الحلفاء

(١) سبيرز ص٣٧٦ .

للحرب، وبقيت المشكلات الأساسية التي سوأت العلاقات بين لويد چورچ وبين القيادة الإنجليزية العليا في السنوات ١٩١٦ ـ ١٩١٨ بغير حل، وبقيت الأسئلة التالية حائرة لم يبت فيها وهي:

متى، وكيف، وتحت أي ظروف يجب أن تسيطر السلطة المدنية للحكومة على القادة العسكريين المحترفين؟

ما هو النظام الذي يتبع عندما يختلف الزعماء المدنيون والقادة العسكريون على سير الإجراءات للحرب؟

ماذا يجب أن يفعل الرؤساء المدنيون عندما يختلف القادة العسكريون فيما بينهم على مسائل عسكرية؟

ونستطيع أن ندرك بأن هذه الأسئلة قد بقيت تحير لويد چورچ لسنوات بعد الحرب عندما نجده في المجلد الأخير من كتابه «ذكريات الحرب» يقول:

«هل كان علينا أن نتدخل في نطاق دولة الاستراتيـچية؟ إن هذه واحدة من أهم المسائل التي تحير حكومة أي أمة عندما تخوض غمار الحرب، فلا تتوافر للمدنيين أية خبرة ولا تدريب ولا تجربة ولا دراية بمبادئ الحرب، وهم ـ أي المدنيون ـ من هذه الناحية مجرد هواة بالنسبة لإدارة الحرب وتوجيهها، ولكن من الحماقة أيضًا أن يقال بأن أناسًا نابهين يركزون كل تفكيرهم لسنوات طوال على واجب واحد ويتصلون يوميًا بصعابه ومشاكله ويشتركون في محاولات التغلب على هذه الصعاب وحل هذه المشكلات ثم لا يتعلمون بعد هذا كله من العمل في ميدانه، من الحماقة حقًا أن يقال ذلك سيما إذا تذكرنا أن الاستراتيـچية ليست في كليتها مشكلة

عسكرية ففيها عنصر هام له تقديره هو عنصر السياسة».

«وكحديث عام، فإن زعم القيادة العليا بأن يكون أفرادها وحدهم هم القضاة والحكام في السياسة العسكرية، قد جسمت هي وأنصارها منه حتى جعلوه مسألة عامة من الخطر مناقشتها، والحرب ليست علمًا إلى غاية ما لهذه الكلمة من معنى، فليست الحرب كالكيميا ولا الرياضيات وغيرها من العلوم التي لا يستطيع الجاهل بأصولها الأولية أن يناقش الدارسين لها العارفين بأصولها، فالحرب فراهة وتقدم واتقان، ويتوقف النجاح فيها على كثرة التجربة أكثر من توقفه على الدراسة، وتعتمد على الموهبة ودقة الحكم وحسن القصد أكثر من اعتمادها على التجربة وعلى الدراسة».

«وعندما أعود بنظراتي إلى هذه الحرب المدمرة، وأتعمق في دراسة الدور الذي لعبه في إدارتها السياسيون والعسكريون على التوالي، عندما أفعل هذا أثق بأن الأولين (السياسيين) كانوا حذرين جدًا في فرض سلطانهم على العسكريين»[(١)].

ـ ٤ ـ

وكان للهيئة التشريعية الفرنسية سيطرة أكبر مما كان لزميلتها الإنجليزية من سيطرة على الجيش في الحرب، كان في كل من مجلس النواب والشيوخ لجنة للجيش. وفي سنة ١٩١٦ عمل بعض أعضاء اللجنتين كمفتشين برلمانيين أو كمندوبين للهيئة التشريعية يمثلونها في رياسات الجيش، وكان هذا إحياء للاتجاهات الثورية القديمة بإرسال النواب للتحقق من وضع رغبات الحكومة موضع التنفيذ، وقد حدد قانون ٢٨ من

(١) لويد چورچ ج٦ ص٣٤٠٩ و٣٤١٦ و٣٤٢١ .

أكتوبر سنة ١٩١٣ العلاقة بين السلطة المدنية وبين السلطة العسكرية، وتقول مواد القانون عن هذا:

«الحكومة ـ والتي تحتمل مسئولية مصالح البلاد ـ هي السلطة الوحيدة التي لها حق تحديد الأهداف السياسية للحرب، فإذا ما امتدت العمليات لأكثر من جبهة واحدة كانت الحكومة هي التي تحدد الجبهة الأساسية التي يوجه ضدها الضغط الأكبر للقوات الأهلية، وهي ـ أي الحكومة ـ التي توزع تبعًا لهذا كل الإمكانيات والموارد من كل الأنواع، وتضع هذا تحت السيطرة الكاملة للضباط الذين يتولون القيادة العامة في مختلف مسارح العمليات».

وقد جعل هذا القانون من وزير الحرب قائدًا عامًا للقوات الفرنسية، ولكن عندما بدئ في تنفيذ القانون أغفل هذا الأمر(١) .

على أنه بالإضافة إلى ما يوكل للشيوخ والنواب من أعمال تتصل بالقوات المسلحة، فقد شكل في سنة ١٩٠٦ مجلس أعلى كان أعضاؤه وزراء الحربية والبحرية، والمستعمرات والشئون الخارجية، والمالية، وقد زاد قانون الثامن والعشرين من يوليو سنة ١٩١١ من سلطات هذا المجلس، والذي جعل في استطاعته تشكيل لجان فرعية تتبع مجلس الدفاع القومي وتزود

(١) Captain Commandant J. Fraeys "Relations Between the Government and the Command: "French Experiences, ١٩١٤ – ١٩١٨.

وقد ترجم الكتاب إلى الانجليزية لكلية الحرب بوساطة الكولونيل سباولدنج نقلًا عن:

(Bulletin Belge des Sciences Militaires)

عدد ديسمبر سنة ١٩٣٧، وسيشار إليه فيما بعد بكلمة (فراي)، راجع أيضًا:

J. M. Bourget, Govermement et Commandement: Les Lecons de la guerre mondial (Paris,١٩٣٠), pp. ٧ - ٢٤.

اللجان البرلمانية بما تحتاجه من دراسات[١] .

وقد مكن تقسيم مناطق النفوذ وتنظيم السلطات للهيئة العسكرية وللهيئة المدنية من أن تبرز من البداية وتتضح كل النقاط التي يمكن أن تكون مثار نزاع، فقد أثيرت سلطات وزير الحربية في المسائل الخاصة بالتعبئة، وفي مسألة سحب القوات المسلحة لمسافة عشرة كيلو مترات من الحدود السياسية، وكذلك في المسائل الخاصة بالدفاع عن «ديـجون» و «باريس»[٢] .

على أن مسيمى Messimy وزير الحربية استقال في السابع والعشرين من أغسطس سنة ١٩١٤ وتولى وزارة الحربية خلفًا له ماليران[*] الذي أطلق يد جوفر، وإن كان في بعض الأحيان يوجه إليه النصح، ولكنه لم يصدر إليه أمرًا قط[٣] .

ولكن العلاقة بين وزير الحربية والقائد العام اتجهت اتجاهًا آخر عندما عين الـجنرال جاليني[**] وزيرًا للحربية في التاسع والعشرين من أكتوبر

(١) S. C. Davis, The French War Machine (London, ١٩٣٧) p. ١٠١ and p. Renouvin, the Forms of War Government in France (New Haven, ١٩٢٧), pp. ٨٠ – ٩١.

(٢) C. Bugnet, Rue St. Dominique et G. Q. G. (Paris, ١٩٣٧) and The Personal Memoirs of Joffre, translated by Colonel T. B Mott

(*) ماليران ـ (ألكسندر) سياسي فرنسي تولي بعد وزارة الحربية رياسة الجمهورية (١٩٢٠ ـ ١٩٢٤) معجم ويبستر ص ٩٣٤ .

(٣) Bugnet p. ٥٠.

(**) جاليني Galliéni الرجل الذي نقل القوات من معسكر باريس المحصن بسيارات الركوب ليضعها على نهر أورك على جناح الجيش الألماني الأول الذي كان يقوده ڤون كلك بعد أن دار للداخل بدلًا من الدوران حول باريس والالتفاف من جنوبها كخطة شليفن الأصلية، وقد تسبب بهذا في خسارة الألمان لمعركة المارن بل وفي تقهقر الألمان في الغرب عندما أرسل مولتكه ضابطًا من هيئة أركان حربه هو الكولونيل هنتش لتقدير الموقف=

سنة ١٩١٥، وذلك أن رجلاً عسكرياً هو وزير الحربية قد جيء به ليقف وجهًا لوجه أمام رجل عسكري آخر هو القائد العام، على أن العلاقات ازدادت توترًا إثر المديح المخادع الذي كتبه چوڤر في تقريره عن معركة المارن وأضفاه على الدور الذي لعبه جاليني ـ كحاكم عام لباريس ـ في المعركة وسبب كسبها، ومع أن رئيس الوزراء بريان قد كره دكتاتورية چوڤر العسكرية ألا أنه أشار بحكمة إلى أن واحدًا من الرجلين: چوڤر وجاليني، هو الذي يتولى الأمر، ولما كان جاليني هو الذي تولى الإجابة على أسئلة النواب عن العمليات الحربية السابقة والمقبلة فإنه لا يستطيع أيضًا أن يشرف على الجيش مع هذا الواجب البرلماني[١] .

وزيد من سلطات چوڤر بقانون الثاني من ديسمبر سنة ١٩١٥، وقد أعطاه هذا القانون سيطرة كاملة على كل الجيوش في فرنسا، وعندما احتج جاليني على إدارة چوڤر لمعركة ڤردون، لم يقف مجلس النواب إلى جانبه ضد چوڤر ومن ثم اضطر للاستقالة[٢]، وكان خلفه الـچنرال روكيه Rcques (من ١٧ مارس إلى ٩ من ديسمبر سنة ١٩١٧) رجلاً لين العريكة ودودًا لا يستطيع السيطرة على أحد[٣] ومن ثم فقد تولى چوڤر الأمر بلا منازع حتى أبعد عن عمله في ٢٦ من ديسمبر سنة ١٩١٦ .

=والتصرف طبقًا لما يراه، وكانت غيبة مولتكه عن مسرح المعركة وتواجده على مئات الأميال في الخلف مع خط تليفوني واحد السبب الرئيسي في الفشل وإن كان هنتش قد حمل كل مغبة الأمر. «المترجم».

(١) نفس المرجع ص١٠٧ .

(٢) فراي ص١١ .

(٣) بوجنيه ص١٣٥ .



جورج كليمانصو (١٨٤١ ـ ١٩٢٩)

على أن وزارة الحربية ـ عندما تولاها الـچنرال ليوتي الرجل القوى حتى ١٥ من مارس سنة ١٩١٧ ـ لم تلبث أن كونت ـ مستندة إلى البرلمان ـ ما أسماه بوجنيه «دكتاتورية برلمانية»، فلما أن استقال الـچنرال ليوتي في ١٥ من مارس سنة ١٩١٧ أثر اصطدامه بالنواب خلف وراءه موقفًا عسكريًا مضطربًا، وأرغم خليفته بينليـڤ أن يعضد قائدًا لا يوافق على تخطيطه للمعركة.

وقد أدى فشل هجوم ليـڤل في ربيع سنة ١٩١٧ إلى ثورة في عدد كبير من الفرق الفرنسية، وقد استطاع الـچنرال بيتان أن يستعيد الضبط والربط ورفع معنويات الجنود، كما استطاع كليمانصو أن يحطم حركات ومناورات الانهزاميين في الدوائر السياسية.

واستطاع كليمانصو بتوليه وزارة الحرب إلى جانب رياسته للوزارة، ليس فقط تقوية الجبهة الداخلية في أحرج ساعات الحرب وأحلكها، بل واستطاع أن يحقق بالاتفاق مع قيادة الجيش قيام ترتيبات عملية لم يحاول كل من سبقوه تحقيقها.

وترجع دراية كليمانصو بالحكومة الفرنسية وبالتيارات التي تعصف بسياستها إلى هزيمة سنة ١٨٧١، وهو كسياسي وخطيب وصحفي وفيلسوف قد استطاع من أجل انقاذ فرنسا حشد كل الجماعات داخل المجلس النيابي فيما عدا الإشتراكيين(١) .

وقد وجد كليمانصو في الـچنرال مورداك ياوره العسكري مستشارًا

(١) راجع للحصول إلى المزيد من التفاصيل عن حياة كليمانصو كتاب:

H. M. Hyndman, Clemanceau and His Times (London, ١٩١٩).

درس العلاقة بين العناصر العسكرية والمدنية في حروب أخرى وبخاصة في الحرب الأهلية الأمريكية[١]، وقد استبدل كليمانصو الدكتاتورية البرلمانية بإشراف شخصي على الشئون العسكرية، ولم يقصر هذا الإشراف على الخطوط العريضة بل تعداه حتى إلى تفاصيل الترتيبات الدفاعية[٢] .

ولم يتفق كل النقاد الفرنسيين على أن تدخل كليمانصو في الشئون العسكرية كان دائمًا مفيدًا ونافعًا، وقد كتب ضابط فرنسي لم يكشف عن اسمه بأن الكثير من مقترحات كليمانصو كانت ضارة، وقد كان بيتان[*] يبدو وكأنه ينفذ فعلاً هذه التوجيهات التي كانت يشعر تمامًا بأنها توجيهات غير حكيمة[٣] وبخاصة من ناحية أن إصرار كليمانصو على قيام الجزء الأكبر من الجيش الفرنسي بحفر الخنادق قد قلب برنامج بيتان لتغيير الوحدات من الجبهة ومنح الأفراد إجازات قصيرة للترويح عن أنفسهم تبعًا لتناقص الروح المعنوية في الأفراد، وقد كان لهذا أثره في ترك الجيش الفرنسي على غير أهبة للقتال في الميدان المكشوف سنة ١٩١٨[٤] .

---

(١) J. H. Mordacq, Politique et Stratégie dans une démoclatie.

(٢) فراي ص١٧ .

(*) بيتان Pétain مارشال فرنسا كان بطل الدفاع عن ڤردون، تولي الأمر بعد سقوط فرنسا في ١٦ يونيو سنة ١٩٤٠، وتقبل الهدنة وكون حكومة فيشي، وقد حوكم بتهمة الخيانة بعد تحرير فرنسا وانتهاء الحرب العالمية الثانية. وكانت محاكمته مثار عدة كتب في الدفاع عنه من الناحة القانونية. وتوجد بعض الترجمات العربية لهذه الكتب «المترجم».

(٣) General X, La crise du Commandement unique: Clemenceau, Foch, Haig, et Pétain (Paris, ١٩٣١), pp. ٥٠- ٥٥.

(٤) A defence of Clemanceau's assumption of military control can be found in J. H. Mordacq, Le ministére Clemenceau: Journal du témoin (Paris, ١٩٣٠), I, ٨٩ - ١١١

***

وقد كشف الهجوم الألماني العظيم لسنة ١٩١٨ عن ضعف آلة الحرب الداخلية في صفوف الحلفاء عن إمكان تنسيق عمل الجيوش في فرنسا.

وعندما حل الدمار بالجيش البريطاني الخامس، كان بيتان مستعدًا لينفصل عن الإنجليز في الشمال ويرتد للدفاع عن باريس.

وقد لعب كليمانصو دورًا هامًا في القصة الطويلة المعقدة لتوحيد قيادة الحلفاء تحت إمرة ڤوش، ولما كان كليمانصو قد بقي لوقت طويل يؤمن بأن الحرب أهم من أن تترك للعسكريين وحدهم فقد انتهى ليدرك بأنه لو ترك بيتان وهيج ليعملا ما يحلو لهما فإن هزيمة الحلفاء تكون محققة لا جدال فيها ولا منجاة منها.

ويتضح تقدير الإنجليز لـڤوش وثقتهم بكفايته لإدارة العمليات الحربية وتولي الشئون المدنية، يتضح هذا من اقتراح لورد ملنر في ٢٥ من مارس سنة ١٩١٨ أن يعين كليمانصو «قائدًا أعلى»[(١)]، ولكن كان تنتفيذ هذا الاقتراح مستحيلاً ذلك؛ لأن كليمانصو بتوليه هذا المنصب سيقف موقفًا مضطربًا بين مطالب، ووجهات نظر كل من ڤوش بيتان وكليهما من الضباط الفرنسيين، على أنه عندما اختير ڤوش ليقود القيادة العليا بذل كليمانصو كل جهد لتعضيده حتى أثناء نكبة الهزيمة في شامين دي دام Chemin des Dames فلما أن اتجه المد ضد الألمان، اتفق كليمانصو مع هيج في الرأي على ضرورة توحيد الهجوم الألماني في طابع استراتيـجـي، وأن يكون الهدف ضرب مواصلات الألمان لا مجرد العمل لإعادتهم للوراء تدريجيًا على

(١)، T.H. Bliss "the unified command".in foreign Affairs, December ١٥, ١٩٢٢, (١, ٢٧)

طوال الجبهة(١) .

وفي هذه الأثناء ساءت العلاقات الطيبة بين كليمانصو وفوش، كانت قد حدثت بعض خلافات صغيرة ولكنها تجمعت معًا لتوجد بين الرجلين عداء تحول أخيرًا إلى شعلة من التضاد العنيف(٢) .

كان الخلاف قد بدأ بسبب القضية القديمة، قضية.. هل السيادة للمدنيين أو للعسكريين، وقد حدث هذا بالرغم من أن كليمانصو كان إلى آخر لحظة يزيد من سلطات فوش، وحدث في نفس الوقت شيء آخر زاد من تعقد الموقف فان بوانكاريه رئيس الجمهورية بالرغم من أن المنطق كان يفرض عليه الدفاع عن سيادة العنصر المدني فإنه في خضم نزاعه السياسي ضد كليمانصو وقف إلى جانب فوش ليؤيده ضد رئيس الوزراء(٣) .

وقد وجد كليمانصو ـ في غمرة رغبته للاقتصاد في خسائر فرنسا ـ أن برنامج بيرشنج لإقامة قيادة أمريكية مستقلة مسألة لا طعم لها.

وكان كليمانصو عنيفًا في نقده لعمل هيئة أركان الحرب الأمريكية في عمليات الهجوم في سانت ميشيل والأرجون(٤) .

وعندما وضح أن تقدم الفرق الأمريكية بطيء جدًا، وجه كليمانصو

---

(١) Mordacq, Le ministère Clemenceau, II, ٣٠٩ - ٣٤٠ .

(٢) R. Recouly, Memorial de Foch (Paris, ١٩٣٠) and Q. Clemenceau, Grandeurs et misères d'une Victoire (Paris, ١٩٣٠).

على أن إصرار كليمانصو على ضرورة سيادة العناصر المدنية يبدو بوضوح في لومه لـفوش عند اجتماع مجلس الحرب الأعلى في ١٤ من مارس سنة ١٩١٨ عندما قال له: «لست أنت، بل أنا، الذي يمثل فرنسا هنا»، راجع بوچيه ص٢٧٣ .

(٣) كليمانصو ص١٢٤ .

(٤) نفس المرجع ص١٣٢ .

إلى ڤوش خطابًا في ٢١ من أكتوبر سنة ١٩١٨ يطلب منه أن يأمر بيرشنج بأن يدفع جنوده جديًا للمعركة، وقد رفض ڤوش عن حكمة أن يفعل هذا، وعضد بوانكاريه ڤوش في موقفه هذا، وبدأ بوانكاريه مرحلة طويلة من النقاش الدستوري ليثبت أن مركز ڤوش كقائد أعلى للحلفاء قد حرره من هذا اللون من السيطرة التي يمارسها ويلسون ولويد چورچ على قوات بلديهما[١] .

وكانت حوادث أخرى صغيرة، ثم وصلت العلاقات بين ڤوش وكليمانصو إلى أسوأ مراحلها في ١٧ من إبريل سنة ١٩١٩ عندما رفض ڤوش أن يرسل برقية لوفد الصلح الألماني ليخبر المندوبين الألمان رسميًا بإمكان استقبالهم في ڤرساي، وقد بنى ڤوش رفضه على أساس أنه حرم من الفرصة التي وعد بها ليوضح لمجلس الوزراء وجهات نظره عن الصلح[٢] .

وكان على ڤوش ـ على ما يرى كليمانصو ـ أن يتراجع عن هذا الموقف الشائك عندما أعدت التدابير لعزله عن قيادته، وعند ما صرح ويلسون بأنه لا يستطيع أن يترك السيطرة على الجيش الأمريكي لقائد لا يطيع أوامر حكومته[٣].

على أن إسهام كليمانصو في كسب الحرب سنة ١٩١٨ كان واضحًا متألقًا إلى حد أنهم كانوا يصفونه في فرنسا بكلمات « Panimateur de La Victoire».

يقول الـچنرال مورداك الذي كان وثيق الصلة بكليمانصوأنه يمكن إجمال ما حققه كليمانصو في الميدان العسكري في:

(١) كليمانصو ص١٢٤ .
(٢) نفس المرجع ص١٣٢ .
(٣) نفس المرجع ص١٣٣ .

* إعادة تنظيم وزارة الحربية.

* الغاء الكثير من الإدارات العديمة النفع.

* اختيار قادة نشطين جدد.

* إعادة تنظيم هيئة أركان الحرب على أسس منطقية.

* الاتساع في برامج الدبابات والعربات المدرعة للجيش الفرنسي.

* إعادة تنظيم القيادة الفرنسية العليا في إيطاليا وسالونيك.

* المساهمة الشخصية في الهجوم الاستراتيجي بين ١٨ من يوليو و ١١ من نوفمبر سنة ١٩١٨[١].

* * *

وعلى مثال لويد چورج بين سنة ١٩١٦ وسنة ١٩١٨، وعلى مثال تشرشل في المدة من سنة ١٩٤٠ إلى سنة ١٩٤٣ فإن كليمانصو قد قام بالإدارة المدنية في الطابع الذي تفرضه الحرب الحديثة على رؤساء الدول.

وفي العصر الحاضر، عصر الحرب المعقدة، الحرب الأممية الشاملة فإن رؤساء الدول هم وحدهم الذين تتوافر لهم السعة في وجهات النظر، والقوة اللازمة لتوجيه الحرب وإدارتها بنجاح، فإذا ما استطاع هؤلاء أن يوجدوا الأسس السليمة للتعاون مع القادة العسكريين المحترفين فإن عملهم يكون سهلاً ميسورًا إلى حد بعيد، أما إذا فشلوا في هذه كانت النتيجة بداية مرحلة من الاحتكاك العنيف بين الجانبين مما يُسبب فقدان الكفاية، بل ولربما نجم عنه فشل مدمر.

* * *

(١) Merdacq, Le ministère Clemenceau, II, ٣٦٣ – ٣٦٧.

حديث المراجع

الفصل الثاني عشر

تشرشل ،لويد جورج، كليمانصو

بروز شخصية الرجل المدني

لدراسة اتجاهات تشرشل يرجع إلى المجلدات الأربعة لكتابه:

The Worid Crisis (London and New York, ١٩٢٣ – ١٩٢٨)

ولا تحتوي هذه المجلدات على بعض الصور الأخاذة من الأدب الإنجليزي الحديث فحسب، بل وتعتبر موردًا كبير القيمة للمعلومات عن بعض مراحل الحرب العالمية الأولى، فهي تشتمل على البحوث والمذكرات التي كتبها تشرشل كوزير للبحرية وكوزير للذخائر، كما نجد دراسة جيدة لعمل تشرشل في الأدميرالية في البحث القيم الذي كتبه R.M. Dawson بعنوان:

"The Cobinet Minister and Administration: Winston S. Churchill at the Admirality, ١٩١١ – ١٩١٥"

Canodian Journal of Economics and Science, VI (August ١٩٤٠), ٣٢٥ – ٣٥٨.

أما الحديث عن تشرشل ودوره في تطور الدبابة فيرجع إلى:

Colonel Ernest D. Swinton, Eyewitness: Being Personal Reminiscences of Certain Phsaes of the Great War, Including the

Genesis of the Tank (Gondin ١٩٣٣)

ويعتبر كتاب:

David Lioyd Geirge`s War Memories (London and New York, ١٩٣٣ - ١٩٣٧) in Six vVolumes

السجل الشخصي لرئيس الوزراء في وقت الحرب، وبالرغم من مهاجمة الكثيرين من الكتاب له للصورة السيئة التي عرض بها هيج وروبرتسون فإن هذا الكتاب يجب أن يعتبر جزءًا هامًا من المؤلفات التي كتبت عن الحرب العالمية الأولى.

أما عن وجهة نظر وزارة الحرب في الخلاف مع لويد چورچ فنجدها في المؤلفات التالية:

Field Marshal Sir William Roberrtson, Soldiers and Statesmen (London, ١٩٢٦) and From Private to Foeld Marshal (London and New York (١٩٢١)

R. M. Dawson, The Cabinet Minister and Administration: Asquith, Lioyd George, Curzon, Political Science Quarterly, IV (September, ١٩٤٠) ٣٤٨ - ٣٧٧.

ويناقش Charles W. Baker مشكلة الإعداد لحرب المواد مع إشارة خاصة إلى تجربة بريطانيا في هذا المضمار في كتابه:

Government and Operation of Industry in Great Britain and The United Stater During The World War (New York, ١٩٢١).

ويناقشها أيضًا:

Brig. Gen. Sir J. E. Edmonds

في كتابه:

Military Operations, France and Belgium (London, ١٩٣٠ - ١٩٤١).

ويُناقش الكتاب الثاني في المجلدات عن سنة ١٩١٥ و١٩١٦ أحوال حرب الخنادق والحاجة إلى المواد، أما من الناحية العامة للمواد ومشكلة التنظيم الإنجليزي فيرجع إليها في كتابه:

R. B. Haldane, Richerd Burdon Haldane: An Autobiography (London, ١٩٢٩).

❋ ❋ ❋

ويعتبر أفضل تأريخ لحياة راثيناو، التأريخ الذي كتبه H. Kessler بعنوان:

Walther Rathenau, sein Leben und sein Werk (Berlin, ١٩٢٨)

وقد صدرت له ترجمة إنجليزية في نيويورك سنة ١٩٢٩، وعولج موضوع مساهمة راثيناو في تنظيم اقتصاديات ألمانيا في الحرب العالمية في كتاب: Ernest Juenger،

الذي وسم بعنوان:

Ernest Juenger, Die totale Mobilmachung (Berlin, ١٩٣١)

أما من ناحية المعلومات العامة عن تجربة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى فيمكن الرجوع إلى:

Albrecht Mendelssohn - Bartholdy, The War and German Society (New Haven, ١٩٣٧) &

Frank P. Chambers, The War Behind the War:

A History of Political and Civlian Fronts (New York, ١٩٣٩).

***

ولدراسة اتجاهات كليمانصو يمكن أن نرجع إلى كتابه:

Grandeurs et Misères d'une Victoire (Paris, ١٩٣٠)

وكان هذا رد كليمانصوعلى هجوم فوش الموجه ضده في صفحات كتاب:

R. Recouly, Mèmorial de Foch (Paris, ١٩٣٠)

وكتب ريكاولي هذا الكتاب نتيجة لاجتماعات عقدها مع فوش في السنوات السابقة، وأطلق إصداره ونشره سلسلة من المقالات المضادة، وقد كتب مستشار كليمانصو العسكري J.H. Mordacq تسجيلاً لأعمال كليمانصو وأسهامه في الحرب في كتابه:

Le ministère Clemanceau: Journal d'un témoin (Paris, ١٩٣٠).

وهو كتاب يجب مراجعته في حرص وحذر.

ويعتبر كتاب:

S.C. Davis, The French War Machine (London and New York, ١٩٣٧).

دراسة للتعاليم الفرنسية العسكرية بعامة، وتعالج الفصول الأولى من

الكتاب مشكلات المدة (١٩١٤ ـ ١٩١٨).

وتناقش العلاقة بين الحكومة الفرنسية وإدارة الحرب في القسم الثالث من الفصل الثالث من كتاب:

Pierre Renouvin, The Forms of War Government in France (New Haven, ١٩٢٧).

على أن أهم كتاب يعرض للعلاقة بين الحكومة الفرنسية وبين القيادة العليا هي كتاب:

Lieut. Col. Charles Bugnet, Rue St. Dominique et G.Q.S. (Paris, ١٩٣٧).

كما يرجع أيضًا إلى كتاب:

J.M. Bougnet, Government et commandement: Les leçons de la guerre mondiale (Paris, ١٩٣٠).

ويعتبر الكتاب إضافة قيمة لسلسلة:

Collection de memoires, études et documents pour servir a l'histoire de la guerre mondiale,

وتناقش مشكلة القيادة الموحدة في الحرب العالمية الأولى في الدراسة التي كتبها:

Tasker H. Bliss "The Unified Command" Foreign Affairs, I (December, ١٩٢٢).

وفي كتاب:

Brig. Gen. E. L. Spears, Prelude to Victory (London, ١٩٣٩).

ويعتبر هذا الكتاب دراسة جيدة للصعاب التي توجدها حرب متعددة الحلفاء في ضوء الأحوال والظروف لسنة ١٩١٧ ـ ١٩١٨، وقد كتبه ضابط الاتصال الإنجليزي في القيادة الفرنسية العليا.

* * *

ويمكن الرجوع لدراسة السياسة العسكرية للولايات المتحدة إلى كتاب:

J. H. Mordacq, Politique et Stratégie dans une démocratie (Paris, ١٩١٢).

والكتاب، دراسة للعلاقات المدنية والعسكرية في الدول الديمقراطية، وفيه فصل طويل ضاف للتجارب التي واجهها الشماليون والجنوبيون في الحرب الأهلية الأمريكية، كما نجد دراسة جيدة للسياسة العسكرية الأمريكية والحرب الأسبانية ـ الأمريكية في كتاب:

F.V. Greene, The Revolutionary War and the Military Policy of the United States (New Youk, ١٩١١).

كما نجد النموذج الجيد لتأثير التفكير المدني في التعاليم العسكرية في كتاب:

Elihu Root, Military and Colonial Policy of the United States (Cambridge, Mass., ١٩١٦).

والكتاب عبارة عن وثائق لها قيمتها لإيضاح اصلاحات «روت» في وزارة الحرب؛ ثم كتاب:

H. White, Executive Influence in Determining Military Policy in

the United States (Urbana, Illinois, ١٩٢٥).

وهي رسالة مقدمة لنيل إجازة الدكتوراه،وتبحث تأثير السلطة التنفيذية في السياسة العسكرية الأمريكية عن طريق «قانون الدفاع» لسنة ١٩٢٠ .

ويعتبر كتبا Bernard Baruch أحد المصادر الهامة للمعلومات عن السيطرة المدنية على اقتصاديات الحرب في الولايات المتحدة، وقد وسم بعنوان:

Bernard Baruch, American Industry in The War: A Report of The War Industries Board (New York, ١٩٤١).

وهذا الكتاب والذي هو التقرير الأخير لرئيس مجلس صناعات الحرب لسنة ١٩١٨، يجب أن يراجع مع كتاب:

Grosvenor Clarkson, Industrial America in the World War: The Strategy Behind the Line, ١٩١٧ - ١٩١٨ (New York, ١٩٢٣).

وقد عولجت مشكلة السياسة العسكرية للولايات المتحدة في:

Brig. Gen. John McAuley Palmer, America in Arms: The Experience of The United States With Military Organization (New Haven, ١٩٤١).

Pendleton E. Herring, The Impact of War: Our American Democracy under Arms (New York, ١٩٤١).

وقد درست العلاقات المدنية ـ العسكرية في الولايات المتحدة في مقالات ادورد ميد ايرل:

"Military Policy and Security" Political Science Quarterly, LIII

(March, ١٩٣٨), ٤ – ١٢,

"National Security and Foreign Policy", Yale Review XXIX (Spring, ١٩٤٠), ٤٤٤ - ٤٦٠.

"Political and Military Strategy for the United States", Proceedinge of the Academy of Political Science XIX (January ١٩٤١,) ١١٢ - ١١٩.

ويوجد مقال حديث عن المسألة العامة لدور الرجل المدني بقلم Lindsay Uogers وسمت بعنوان:

"Civilian Control of Militaty policy", Foreign Affairs. XVIII (Januray ١٩٤٠), ٢٨٠ - ٢٩١.

وتوجد عدة مؤلفات أخرى تعرض لمناقشة تأثير التطور الفني في المجتمع، مع بحث دراسة المؤرخ لمشكلات وقت الحرب، وعلاقة الرجل المدني بالحرب الحديثة، وضرورة توافر بعض المعرفة لدى المدنيين عن العوامل الأساسية في الحرب، ثم علاقة الحكومة بإدارة الحرب في البلاد الديمقراطية، وهذه نجدها في الكتب الآتية:

Lewis Mumford, Technics and Civilization (New York, ١٩٣٤).

Jesse D. Clarkson and Thomas C. Cohran, War as a Social Institution (New York, ١٩٤١).

وفي هذا الكتاب عدة فصول قمينة بالدرس أهمها:

"civilian and Military Elements in Modern War" by H. A. DeWeerd.

"The Social and Political Aspecte of Conscription:

Europe's Experience "By Colonel Herman Beukema, "War and Modern Dictatorships" by Arthur Rosenberg, "War and Economic Institutions" By Charles E. Rothwell.

Sir George Aston, "The Study of War for States-men and Citizens" (London, ١٩٤٧).

Maj. Gen. F.K. Maurice, Government and War

A Study of the Coneuct of War (London, ١٩٢٦).

Maj. Gen. J.F. C. Fuller, War and Western

Civilization: A study of War as a Political Instrument and The Expression of Mass Democracy (London, ١٩٣٢).

ويعتبر كتاب فوللر تعليقًا جيدًا لمفكر عسكري على مشكلات الحرب والطابع الديمقراطي للحكومة، على أن بعض وجهات النظر السياسية والاجتماعية يجب ألا تؤخذ على مظهرها الذي تبدو فيه.

الفصل الثالث عشر

لودندورف

النظرية الألمانية للحرب الشاملة

بقلم هانز سبير

كان كل ما أسهم به «إيربك لودندورف» في تطور الفكر العكسري، ما يمكن أن يسهم به قائد فقد الحرب، فلقد بدأ الكتابة إثر هزيمة الجيوش الألمانية سنة ١٩١٨ مباشرة، ومع أن كتبه قد استندت إلى تجارب استراتيـچية وتنظيمية فقد جاءت مليئة بمظاهر الغرور والإعجاب بالنفس والصَّعَر والإزورار والضجر والاستياء، مجموعة متباينة من العواطف الحسية والنفسية، كما كان لها أيضًا طابع الاعتذار، طابع محاولة البحث عن أعذار للدفاع عن النفس لخطأ ما.

وقد حاول لودندورف في مؤلفاته أن يثبت في أسلوب عسكري أن ألمانيا لم تفقد الحرب العالمية الأولى، مقدرًا الأهمية الحاسمة لهذا الرأي الذي انطوى في أعطاف الفكرة التي كانت تسود السياسة الألمانية أيام جمهورية «ڤيمر»، فكرة «الطعنة التي جاءت من الخلف»، ولهذا فقد يكون الإنسان محقًا في اعتبار انتاج لودندورف الأدبي نوعًا من النشرات السياسية.

ولا تتميز كتابات لودندورف بالأصالة والتأنق في الأسلوب ما في هذا من شك، ولهذا فإن نجاحه الأدبي المدهش أيام جمهورية ڤيمر إنما يرجع إلى شهرته كقائد كبير أكبر مما يمكن أن يرجع إلى توافر الطاقة والقدرة والموهبة الكتابية.

ولقد عالج لودندورف ثلاثة موضوعات رئيسية يعنينا واحد منها فقط عناية مباشرة وثيقة الصلة بهذه الدراسة. ***والواقع*** أن لودندورف قد امتاز بتذكره للحوادث وإكسابها طابعًا حيويًا في تسجيله لها، مع تنبئه بطبيعة الأشياء مستقبلاً، على أنه في إعادته لسرد حوادث الحرب العالمية الأولى حاول أن يجسم من تكوينه التاريخي كقائد، كما تحامل في نقاشه وجدله على أولئك الذين قللوا من كفايته وقيادته، كما أفاض في حملته على الماسون الأحرار واليهود والجزويت، بل وضد المسيحية جملة. ودافع بتأثير زوجته عن عقيدة دينية من اصطناعه، كما عرض لكل هذه القوى الشريرة التي اعتبرها مسئولة عن هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى.

كما آمن عن يقين بأن خصومه السياسيين ومنافسيه من الإشتراكيين القوميين الذين وقفوا منه موقف العداء والتضاد بعد الحرب كانوا متأثرين بنفوذ هذه القوى الشريرة نفسها.

وأخيرًا عند تقديمه لآرائه عن «الحرب الشاملة» عرض في خطوط عريضة الظروف والأحوال التي كان من الممكن ـ في تقديره ـ أن تمكنه من العمل بدرجة أفضل، بل ومن تولى القيادة بحال أكثر نجاحًا في الحرب العالمية الأولى.

على أن نظرية لودندورف عن «الحرب الشاملة» ليست وليدة دراسة التطورات العسكرية فيما بين الحربين العالميتين، وليست مستمدة من الاعتبارات المعنى بها للعلاقات بين السياسة وصناعة الحرب والتكنولوجية، والاقتصاديات ومعنويات الشعب.

والواقع أن القليلين جدًا من الكتاب العسكريين هم الذين يمكن أن

ينطبق عليهم ما جاء في حديث فردريك شليجل[*] والذي جاء فيه: «إن التاريخ نبوءة مستعادة مستذكرة» بأكثر مما يمكن أن تنطبق عن حق على كتابات لودندورف، وفي تفهمنا وتقديرنا لكتابات لودندورف عن الحرب الشاملة نشعر بالرغبة لتبسيط كلمات شليجل بالقول بأن تنبؤات لودندورف كانت تأريخًا للماضي يمتد إلى المستقبل.

ويعتبر نقد لودندورف لآراء كلاوزيـڤتز بخاصة معطلاً للمؤرخ الذي يحاول التأريخ للفكر العسكري، ثم إن طابع الاستهتار الذي قدم به لودندورف نقده لكلاوزيـڤتز ييسر ملاحظتنا لمركب النقص الثقافي الذي كان لودندورف يحس به نحو الرجل الذي ساد الفكر العسكري الألماني، ولكن الواقع أن الدافع السياسي وراء هذا النقد ليستحق الذكر بأكثر مما تستحقه الكلمات التي جاءت في هذا النقد، ذلك لأن لودندورف لم يدافع عن «الحرب الشاملة» مهاجمًا نظرية كلاوزيـڤتز عن «الحرب المطلقة» كأخصائي عسكري أو كمؤرخ، بل هاجمها كرجل سياسي.

ولقد أضاف لودندورف ـ بعد أن أوضح مطالبته بالسيادة التامة للقائد العسكري الأعلى على كل المسائل العسكرية والسياسية على السواء ـ: «إنني أشعر كيف سينزعج السياسيون لمثل هذا الرأي انزعاجهم للفكرة العامة بأنه على السياسة أن تخدم توجيه الحرب وإدارتها، وكأن كلاوزيـڤتز لم يقل في تعاليمه بأن الحرب ليست غير استمرار للسياسة مع استخدام وسائل أخرى، فلينزعج السياسيون، وليعتبروا آرائي مجرد آراء رجل

(*) فردريك شليجل (١٧٧٢ ـ ١٨٢٩) فيلسوف وشاعر وناقد ألماني وهو شقيق أوجست ويلهللم ڤون شليجل الشاعر الألماني (١٧٦٧ ـ ١٨٤٥) معجم ويبستر طبع نيويورك سنة ١٩٥٦ ص ١٣٠٤ .

عسكري لا أمل فيه، فإن هذا لن يغير من مطالبتي بالواقعية التي تتطلب ـ في إيجاز ـ ما أطالب به لإدارة الحرب، ومن ثم، للاحتفاظ بحياة الشعب»(١).

وبمثل هذه الفقرات الكثيرة في كتاباته، أغفل لودندورف المبادئ البروسية للسياسة والعسكرية في الصورة التي قامت عليها طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مقترحًا العودة بهما (سياسة الحكم وقيادة الجند) إلى ما كانتا عليه في عصر البطل الذي يمجده: فردريك الأكبر(٢).

وكما فعل هتلر، لم يقف لودندورف موقف التضاد من الجمهورية الألمانية فحسب، بل وقف هذا الموقف نفسه من البناء السياسي للرايخ تحت حكم غليوم الثاني، ولكن مع هذا فإن التماثل بين الرجلين لا يسير إلى مدى بعيد؛ فلقد كان لودندورف ثوريًا يختلف عن باقي الثوريين الذين جاءوا في عصر الجمهورية من ناحيتين اثنتين فقط، فقد كان يعادي المسيحية بعنف، وكان لا يعني بالسنين ولا بحقباتها، بل كان يرغب في أن يعود بعجلة التاريخ إلى الوراء لأكثر من قرن، وفي نفس الوقت كان متفهمًا للنفع من تركيز السلطة في توجيه وإدارة السياسة الحديثة، إلا أنه قاس هذا النفع بمقياس الكفاية البروقراطية!!، وكان تفهمه للجماهير والجماعات في المجتمع الحديث محدودًا وهكذا كانت أيضًا تجاربه كزعيم من زعماء الشعب

(١) General Ludendorff der totale Krieg (Munich, ١٩٣٥), P. ١١٥, Not.

(٢) كان لودندورف يثق بأن فردريك الأكبر «في جانبه» أي أن آراء فردريك تتمشى مع آرائه حتى فيما يراه في الدين، وقد صنف لودندورف كتابًا أصدرته دار النشر التي تصدر كتبه وسم بعنوان:

Federich der Grosse auf Seiten Ludendorffs. Friedrichs des Grossen Gedanken über Religion. Aus seinen Werken (Munich ١٩٣٥).

يعتمد على إثارة مشاعر الجماهير أكثر من اعتماده على المنطق.

وعلى نقيض هذا كان هتلر، فهتلر كان زعيمًا سياسيًا لحركة شعبية موجهة بالكبت والإخضاع لسلطان الحاكم، وقد جاء من واحدة من المجموعات الشعبية الكثيرة التي يجيء منها المجتمع الصناعي الحديث، وقد استولى على السلطة كسياسي لامع ذي نجم صاعد، وغير من المجتمع الذي سمح له بالصعود ومكنه من الارتفاع، ويرجع تسلقه سلم السلطة والقوة كما ترجع إدارته وتوجيهه للحرب العالمية الثانية إلى قدرته على تحريك وإثارة الجماهير عن طريق اجتذاب حس الناس ومشاعرهم أكثر مما ترجع إلى اعتماده على منطق الحوادث.

وكان نظام حكم هتلر نظامًا سياسيًا دكتاتوريًا يسيطر على كل الجماعات بما فيها الجماعات العسكرية، ولكن لودندورف من ناحية أخرى وضع أسس الديكتاتورية العسكرية لتتمشى السياسة مع أغراض الحرب وأهدافها، ومن ثم فإن ديكتاتورية لودندورف العسكرية لم تكن لتسمح بقيام الحركات الجماعية.

وفي ألمانية الاشتراكية كانت مجموعة الضباط في مراكز تمكنهم من استخدام العنف في أسلوب مستحدث يدل على مهارة، ولكن دون أن يتوافر لهم طابع سياسي خاص بهم، وبلا شك أن هتلر لم يكن هو الزعيم السياسي الذي ظن لودندورف أنه سيستطيع السيطرة على السياسة في حرب المستقبل، وإنما كان الزعيم الذي تخيرته الجماهير لقيادها ثم نجح بعد كفاح طويل في إرغام القادة على إطاعة أوامره.

وهكذا، فإنه على حين كان لودندورف بيروقراطيًا عسكريًا رجعيًا

عمل لقيام ما يمكن أن يقال له ديكتاتورته فنية بقصد إدارة الحرب الشاملة، كان هتلر ديكتاتورًا سياسيًا مستغلاً عوامل الشد والجذب في المجتمع الحديث، لا مهملاً لها مغفلاً إياها.

- ١ -

ولكي تتفهم آراء لودندورف عن الحرب الشاملة يجب أن نضع نصب أعيننا طبيعة العسكرية الألمانية قبل بدء الحرب العالمية الأولى، كانت طبقة العسكريين طبقة واضحة المعالم معترفًا بوجودها، تقوم على أسس نصف إقطاعية داخل إطار مجتمع رأسمالي ينتظم في طبقات متفاوتة الدرجات والأوضاع والمكانة، وكان الصراع بين التقاليد العسكرية في ظل الملكية وبين الأطماع ومشاعر التطلع والطموح التي تتوافر في الطبقة الصناعية الوسطى من كتلة الأمة ـ كان هذا الصراع ـ واضحًا غير مكبوت، وكانت القوة العسكرية والمكانة الاجتماعية تتوزعان لصالح الطبقة الارستقراطية ولصالح الإقطاعيين ملاك الأراضي سواء أكانوا من ملاك الاقطاعات الكبيرة أم المتوسطة، وكانت القوة الاقتصادية مركزة في أيدي زعماء الصناعة والتجارة والمالية الذين لا خبرة سياسية لهم.

وكانت تقاليد العسكرية الألمانية ترجع إلى أعماق البناء الاجتماعي لبروسيا التي عرفها القرن الثامن عشر، بروسيا التي انفصلت فيها القوات المسلحة عن الطبقات الصناعية والطبقات الانتاجية، هذه الطبقات التي أعفيت بدورها من القيام بأداء الخدمة العسكرية.

على أنه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مع انتشار التعليم وازدهار الصناعة لم يعد من مكان لبقاء هذه الأحوال والظروف فضلاً عن

أن تكون لها السيادة والغلبة في تكوين المجتمع وتشكيله، فقد بسطت الآراء الدستورية الحرة من طبيعة النظام الملكي، كما عدلت من التعاليم السياسية التي سبقت النهضة الصناعية.

وقد أوضح كارل شميت Carl Schmitt هذا سنة ١٩٣٤ بقوله: «وإن الحركة التحررية لسنة ١٨٤٨ قد أرغمت الدولة البروسية على أن تتجه اتجاهًا دستوريًا، وأن تتعرض لفقدان ما لا يقل بحال ما عن فقد طابعها الأصلي، لقد أضحت حكومتها حكومة برلمانية، وأضحى جيشها جيشًا برلمانيًا»(١).

وقد اعتبر شميت أن هذا يمثل «انتصار المواطن المدني على الجندي»، ولكن في الواقع لم يكن هذا صحيحًا ذلك؛ لأن الزعماء السياسيين لم ينجحوا في تولي الزعامة السياسية، ولم ينجحوا في أن يصوغوا نظام الدولة طبقًا لما يريدون، ولم ينجحوا في توجيه السياسة الداخلية ولا السياسة الخارجية.

ولم تكن في ألمانيا طبقة يخرج منها الزعماء السياسيون الذين يتوافر لهم بعد النظر والتجربة في الشئون الخارجية، وقد نجح أبرز ساسة ألمانيا في إفساد الطبقة البرجوازية سياسيًا بإرغامها على تقبل انتصاراتهم العسكرية بعد أن تكون هذه الانتصارات قد تمت، كما نجحوا في استثمار مخاوف هذه الطبقة من حركات طبقة العمال.

وقد حاول ويلهلم الثاني ـ مع تخيره بين رجال بلاطه نفر من نخبة رجال الاقتصاد ـ أن يحتفظ بسلطانه السياسي المستقل كما يحتفظ بسيطرته

---

(١) Carl Schmitt, Staatsgefüge und Zusammenbrucnh des sweiten Reiches (Hamburg, ١٩٣٤).

على القوات العسكرية، وحتى سنة ١٩١٤ كانت اللجنة الوزارية العسكرية ـ عن طريق نفوذها في اختيار كبار العسكريين وأفراد هيئة أركان الحرب، وعن طريق كفايتها لتخطيط العمليات الحربية للمستقبل ـ تسيطر فعلاً على السياسة العسكرية، ومن جهة أخرى كان التسليح للبحرية يتم بمعاونة حملات الدعاية الواسعة التي تتولاها «جمعية رجال الأسطول الألماني»، لقد كانت تتوافر (للفرع الأصغر) من القوات المسلحة الألمانية الذي يسيطر عليه ڤون تيربتز Von Triptz اشتراكية اعتدائية أكثر مما تتوافر للجيش المتحفظ.

وكانت «جمعية رجال الأسطول الألماني» قد أنشئت سنة ١٨٩٨ كأول منظمة اجتماعية في ألمانيا، ويمكن أن نعتبر نشاطها في الدعاية للتسليح مماثلاً لنشاط الحزب الاشتراكي الوطني بعد سنة ١٩٣٣، وقد كفلت الهيئة وضمنت مواردها المالية بواسطة المؤسسات التي تعمل في الصناعات الثقيلة(١) .

(١) كان في ا لجمعية سنة ١٩١٠ (٣٠٠.٠٠٠) عضو عامل مع ٧٤٠.٠٠٠ عضو إضافي انضموا للجمعية في مجموعات عن طريق ما لا يقل عن ١٧٠٠ هيئة أخري راجع:

Konteradmiral A. D. Weber ،"Der Deutsche Flottenverein" in Deutsche Revue XXXV (١٩١٠), ١٧٧.

وكان لها مائة فرع في الدول الأجنبية وتنفق خمسين ألف جنيه سنويًّا مقابل ثلاثة آلاف جنيه تنفقها جمعية رجال الأسطول البريطاني على ما جاء في مقال بعنوان:

"The German Navy League" in National Review, XLVI (١٩٠٥), ٦٣٩.

وكانت صحيفة "Die Flotte" (الأسطول) اللسان الرسمي للهيئة توزع ٣٢٠.٠٠٠ نسخة في سنة ١٩٠٥ في الوقت الذي كانت الصحف الأربع الألمانية الرئيسية توزع في جملتها معًا ١٥٢٠٠٠ نسخة.

وفي أول يوليو سنة ١٩٣٣ بعث هتلر ببرقية يدعو فيها إلى عقد اجتماع عام للهيئة معلنًا (أنه=

وكانت القوة السياسية للهيئات المختلفة التي تتوزع بينها السيطرة على المسائل العسكرية هي الوسيلة للاقتراب من الإمبراطور ويلهلم، فلقد كان الإمبراطور يفضل الإنصات لنصيحة المستشارين غير المسئولين أمام مجلس الريشستاغ كالوزراء الذين يتولون المراكز الوزارية في الشئون الداخلية والعسكرية والبحرية، كما ينصت لرؤساء هيئة أركان الحرب والامبرالية، ولم يكن الوزراء الذين يتولون وزارات تخضع لرقابة الريشستاغ والذين يعتبرون تبعًا لهذا مسئولين أمام المجلس النيابي، يقابلون الإمبراطور في أوقات محددة بفترات منتظمة لتقديم التقارير عن الوزارات التي يتولونها، بل إن مستشار الرايخ (رئيس الوزراء) نفسه لم يكن يقابل الإمبراطور كثيرًا، وكان الوحيد المستثنى من تفضيل الإمبراطور للمستشارين غير المسئولين هو وزير الحربية الذي تعطل من سلطانه اللجنة الوزارية لشئون الحرب، كما تعطل من هيئة أركان الحرب العامة، وفي حكم (غليوم) ويلهلم الثاني كانت سلطات وزير الحربية تمر بعدة مراحل تقيد منها، وعلى حين كان مجلس الريشستاغ يعمل لتقوية مركز وزير الحرب بالحد من سلطات اللجنة الوزارية إلا أن وزراء الحرب على التوالي قد رفضوا هذه المعاونة واعتبروا أنفسهم كقادة الجيش يتلقون أوامرهم من

=منذ شبابه كان يعرف الكثير عن هذه الجمعية وأنه كان يقرأ صحفها بشغف وأنه يرحب بأن تعود الجمعية لاستئناف نشاطها) راجع:

Admiral A. D. Bauer "Der Deutsche Flottenverein ١٨٩٨ bis ١٩٣٤" in Marine Rundschau, XL (١٩٣٥), ٦٤.

وقد جاء في مقال المجلة القومية المشار إليها قبلًا تقول عن الهيئة في سنة ١٩٠٥:

«وكان نفوذها السياسي في ألمانيا عظيمًا جدًّا بل ولربما كان أكبر من نفوذ أي حزب سياسي فيها».

الإمبراطور[١].

ويوضح حكم الإمبراطور سيادة السلطات العسكرية على السلطات المدنية، وكان في عداد السلطات العسكرية الوزارات التي لا يخضع وزراؤها لرقابة البرلمان، وكان رئيس اللجنة البرلمانية يقابل الإمبراطور ثلاث مرات في الأسبوع على حين يقابله وزير الحرب مرة واحدة، وفي هذه المرة كان من الضروري أن يحضر الاجتماع مندوب من اللجنة الوزارية لشئون الحرب، في الوقت الذي ليس لوزير الحرب حق حضور الاجتماعات التي تعقدها اللجنة الوزارية مع الإمبراطور، فإذا لم يكن الإمبراطور في برلين قدم وزير الحرب تقاريره للجنة الوزارية.

على أن قوة اللجنة العسكرية الوزارية ـ والتي بدأت في سنة ١٨٧٤ بأربعة أعضاء فوصل عددهم سنة ١٩٠٠ إلى سبعة عشر عضوًا ـ لم تكن ترجع إلى الصلة الوثيقة التي تربط الأعضاء بالإمبراطور فحسب بقدر ما ترجع إلى سيطرة اللجنة على المسائل الخاصة بالأفراد في الجيش، ولم يكن لمجلس الريشستاغ أي سيطرة على ترقيات الضباط واستقالاتهم ونقلهم، وفي نفس الصورة تنعكس السلطات القليلة والمراكز الأقل أهمية لوزارة الحرب من طبيعة تكوين أفرادها أنفسهم، وكقاعدة عامة ـ فيما عدا القليل جدًا من الحالات الشاذة ـ كان وزير الحربية دائمًا يختار من كبار الضباط

(١) في سنة ١٨٨٩ أشار الـجنرال ڤون ڤيردي ـ محاولة منه ليفوز بالتوصية باختياره وزيرًا للحربية ـ بأن من رأيه أن وزير الحربية يجب أن يضحي في سبيل هذه العلاقة (علاقته بالإمبراطور) بالسلطات التي لوزارته، راجع:

R. Schmidt- Buckeburg, Das Militar- Kabinett der preussischin Konige und deutschen Kaiser (Berlin, ١٩٣٣), pp. ١٧٤

الذين لا تتوافر لهم شهرة عسكرية ممتازة، وكان الضباط النابهين النشطين يتوقون دائمًا للالتحاق بهيئة أركان الحرب، وكان الضباط أركان الحرب من الدرجة الثانية هم الذين يرسلون إلى إدارات وزارة الحرب، على أن تستكمل الوزارة مرتباتها من خريجي الأكاديمية الفنية العسكرية التي تعرف في دوائر العسكريين باسم «أكاديمية السباكين» ومن مفتشي المدفعية وضباط الوحدات.

وكان هؤلاء «الصفوة» من العسكريين يعنون دائمًا بالاحتفاظ بوضعهم الاجتماعي كما يعنون بالدفاع عن استقلالهم ضد السيطرة المدنية، وكان هذا الوضع وهذا الاستقلال يتعرضان للخطر بسبب تصنيع المجتمع الألماني، هذا التصنيع الذي أوجد طبقة مضادة «للصفوة» من العسكريين، طبقة تستند إلى القوة الاقتصادية فضلاً عن توافر جماعات حضرية في المدن لا تتكيف مع الطابع السياسي الذي سبق عصر التصنيع، ولنصور هذا بوضوح يجب أن نناقش الإنتاج ومعقباته في المدة في سنة ١٨٧٠ إلى سنة ١٩١٠؛ ففي هذه المدة التي تمتد لأربعين سنة زاد انتاج الفحم من ٣٤ مليون طن إلى ١٩٠ مليون طن، أي أنه تضاعف لما يقرب من ست مرات، وفي سنة ١٨٧٠ كان في ألمانيا ١٨٥٦٠ كيلو مترًا من الخطوط الحديدية مع ٤٠٠٠ مكتب للبرق فوصل هذا وذاك سنة ١٩١٠ إلى ٥٩٠٣١ كيلو مترًا من الخطوط الحديدية و ٤٥٠٠٠ مكتب للبرق، وفي سنة ١٨٧١ كان ثلثا سكان ألمانيا يعيشون في المناطق الريفية في أماكن إقامة يقل تعداد سكان كل منها عن الألفين من السكان، وفي سنة ١٩١٠ كان ثلاثة أخماس ألمانيا يعيشون في المناطق الحضرية وكان الخمس الرابع يعيش أفراده في مدن يزيد تعداد سكانها على مائة ألف؛ وفي المدة من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٩٠٧ زاد

عدد الذين يعتمدون على غيرهم زيادة قليلة من ٤.٩٩٥.٠٠٠ إلى ٥.٣٣٢.٠٠٠ ولكن نسبتهم إلى غيرهم من الطبقات الأخرى هبطت من ٤٥ ٪ إلى ٢٠ ٪، وفي نفس الوقت زاد عدد العمال من ١٠.٧٠٥.٠٠٠ إلى ١٧.٨٣٦.٠٠٠ أي أن الزيادة كانت بمعدل ٦٠ ٪ من العدد الأصلي قبل ٢٥ سنة.

على أننا يجب أن نلاحظ في هذا العرض المجمل أن الصفوة من العسكريين في العصر الإمبراطوري لم يكونوا «إمبرياليين» النزعة، كانوا يمدون من نطاق نشاطهم في الصراع بهدف واحد من الاحتفاظ بمكانتهم وسلطتهم في خضم تطور اجتماعي يعرض هذه السلطة وتلك المكانة للخطر، ولا تعتبر هذه الصفوة مسئولة بحال ما عن قيام مشروعات الطموح القومي والغزو، ثم إن مختلف المنظمات والهيئات الاجتماعية مثل «جمعية رجال الأسطول الألماني»، وجمعية «رابطة كل الألمان» وغيرها من الهيئات التي عنيت بالحصول على مستعمرات مع العمل لتطور هذه المستعمرات، إنما قامت وكانت تحت سيطرة الجماعات المضادة للزمرة، من رجال الاقتصاد، ومن نفر كبير من المثقفين الذين خرجوا من الطبقات المتوسطة[١] .

---

(١) نجد على سبيل المثال أنه في سنة ١٩٠٤ كان ١٢٨ ـ على الأقل ـ من الـ ٢٧٦ عضوًا مسئولًا في «رابطة كل الألمان» من الجامعيين على ما يقول لوثر ويرنر Lother Werner في كتابه:

Der Alldeutsche Verband ١٨٠٠ - ١٩١٨ (Berlin, ١٩٣٥), p. ٦٤

وقد وقع إعلان قيام «الجمعية الألمانية الاستعمارية» سنة ١٨٨٢ ممثلو الحزب القومي الحر، وأساتذة الجامعات ورؤساء الغرف التجارية ورجال الصناعة في أرض الرين وجنوب ألمانيا، راجع: =

وقد وقف نظام الطبقات في العسكرية الألمانية طوال حكم الإمبراطور معطلاً حتى تدابير الكفاية اللازمة لإدارة الجيش برغم أن التقدم الفني قد جعلها ممكنة مستطاعة، ولقد برزت هذه التحديدات المعطلة في أربعة قطاعات من الحياة العسكرية الألمانية، أي في:

* التكوين الاجتماعي للجيش.

*اقتصاديات الحرب.

* موقف العسكريين من التطورات الفنية «التكنولوچية».

* نقص تفهم أهمية الدعاية في النزاع المسلح.

ولقد مدت العسكرية الألمانية من أسسها الاجتماعية بتدابير نظم غير كاملة حتى لا تنعزل عن الجماعات الاقتصادية والأيديولوچية المتوافرة القوة والسلطان، على أنه ـ فيما عدا ما كان يحدث كثيرًا من تزاوج بين أفراد من الارستقراطيين وغيرهم من البرجوازيين، وفيما عدا قصر وظائف كبار موظفي الدولة على خريجي معاهد خاصة يقصر الانضمام إليها على الطلاب من طبقات محدودة من الأمة ـ فيما عدا هذا أو ذاك كان نظام التعليم يوجه لصالح الصفوة من العسكريين وحدهم.

وقد قصر أداء الخدمة العسكرية لسنة واحدة على الطلاب الذين وصلوا إلى مستوى معين من الدراسة في المعاهد العليا، وبذلك يعتبر هذا

= CF. Die Deutsche Kolonialgesellschaft ١٨٨٢ - ١٩٠٧ (Berlin, ١٩٠٨).

وقد تكونت «جمعية رجال الأسطول الألماني» سنة ١٩٠٨ بوساطة رجال جعلهم من «المنظمة المركزية لرجال الصناعات الألمانية» راجع كتاب:

CF. Eugen Richer, zur Flottenfrage (Berlin, ١٩٠٠), p. ٣١.

راجع أيضًا الهامش رقم (٤).

بالتبعية قاصرًا على الأفراد الذين هم في مستوى اجتماعي محدد، فكان لأصحاب المكانة الاقتصادية امتيازات معتدلة في الجيش، وكان لهذا أهميته بخاصة في التكوين الاجتماعي للضباط الاحتياطيين، وهي دراسة فرضت الزامًا على أبناء البرجوازيين مستويات الصفوة من العسكريين «الارستقراطيين»، وفي السنوات التي سبقت الحرب كان يحضَر هذه الدراسات التي قيل لها (السنة الواحدة) Einjahrige خمسة ألف طالب على حين أن عدد الضباط الاحتياطيين في الجيش الألماني سنة ١٩١٤ كان ٢٩٠٠٠ ضابط[(١)]، فإن السيطرة الحقيقية لاختيار الضباط من هؤلاء الطلاب كانت تتركز في أيدي ضباط الوحدات، وكان الاختيار يتم على أساس الوضع الاجتماعي والعقيدة السياسية، ولم يكن يجتاز اختبار الترقي لرتبة ضابط أي طالب يعرف أنه متحرر العقيدة السياسية.

وقد أدت زيادة نسبة الضباط من جمهرة الشعب إلى نسبتهم من ذوي الألقاب في حكم الإمبراطور ويلهلم الثاني، أدت إلى مشكلة؛ ذلك لأن الخوف من تدمير الطابع التحفظي لمجتمع الضباط، والخوف من تعريض الاستقرار السياسي للرايخ الألماني للخطر بزيادة عدد الجيش من بين سكان المناطق الحضرية يعطلان من الاستخدام الكامل للقوى العددية للشعب، وقد سيطرت اعتبارات المكانة الاجتماعية على أي اعتبارات أخرى حتى الاعتبارات الخاصة بتقدير كفاية الأفراد وصلاحيتهم لخدمة الجيش، وعلى سبيل المثال فإنه عندما كتب ڤون أينم Von Einem سنة ١٩٠٤ للكونت ڤوق شليڤن رئيس هيئة أركان الحرب يقترح سد النقص في عدد الضباط بتخفيض المستويات المطلوبة، كانت إجابة شليڤن: «إنني لا أستطيع أن

(١) Herbert Rosinski, the German Army, (New York, (١٩٤٠). p١١٢.

أوصي بهذا بسبب أنني لا أستطيع أن أتقبل العناصر الديمقراطية وغيرها مما لا يصلح أفرادها لهذه الصناعة»[١] وقد عبر ڤون هيرنجن Heeringen وزير الحرب بآراء مماثلة عند مناقشة موضوع الضباط وضباط الصف في تقرير لـڤون مولتكه رئيس هيئة أركان الحرب في يناير سنة ١٩١٣.

ويمكن أن تتضح هذه التحديدات الطبقية في العسكرية الألمانية قبل الحرب العالمية الأولى من حقيقة واحدة هي قلة تفهم العوامل الاقتصادية للحرب في ألمانيا قبل سنة ١٩١٤، وكانت أغلب الدوائر العسكرية والمالية تعتقد أن الحرب لا يمكن أن تستمر طويلاً[٢].

وكانت كل البحوث والدراسات التي أجريت بوساطة وزارة الحرب في السنوات ١٨٨٤ و ١٩٠٦و ١٩١١ لتقدير احتياجات الجيش من الغذاء في حالة الحرب تقوم على أساس أن الحرب لن تستمر لأطول من تسعة شهور.

وقد قام هذا الاعتقاد من ناحية على أساس التجارب في الحروب السابقة في القرن التاسع عشر التي لم تستمر إلا لأسابيع أو شهور، كما قامت من ناحية أخرى على أساس القوة التدميرية للأسلحة الحديثة، فلقد كان من المظنون أن الأمم الصناعية الحديثة لن تستطيع خوض غمار حرب طويلة الأجل.

(١) Reicharchev, der WeltKrieg ١٩١٤ bis ١٩١٨, Kriegsrustung und Kriegswirstchaft, i (Berlin, ١٩٣٠), ٩١.

(٢) كانت هناك بعض الآراء القليلة التي تباينت عن هذا الاتجاه العام، فلقد ذكر ڤون سنة ١٨٩٠، كما ذكر ماكس فاربورج سنة ١٩٠٧ بأن أي حرب مقبلة ستستمر لعدد من السنين.

ومن الضروري أن نلاحظ أيضًا أن الصفوة من العسكريين لها مصلحة مهنية في الحرب القصيرة الأجل، وكانت هيئة أركان الحرب تخشى أن الإعداد لحرب طويلة الأجل قد يؤدي إلى تعطيل سيطرة العسكريين وحدهم على توجيه الحرب وإدارتها، أو على الأقل يؤدي إلى زيادة أهمية العوامل الاقتصادية والاجتماعية في الحرب، فإن التعبئة الاقتصادية لحرب طويلة تتطلب ميزانية جديدة وسياسة اجتماعية جديدة؛ والمال الذي ينفق لاختزان ما يكفي من الأغذية والمواد الخام لن يكون في متناول اليد للأغراض العسكرية حتى في أضيق ما لهذا من معنى، واستخدام جحافل من العمال المهرة في صناعات الحرب قد يعني تخفيض القوى البشرية التي يمكن استخدامها في القتال، وهكذا كان من الواضح أن الإعداد لحرب طويلة سيقلل من القوة العسكرية التي أملت هيئة أركان الحرب أن تحقق بوساطتها قرارًا عسكريًا حاسمًا سريعًا.

وقد وجهت خطط هيئة أركان الحرب تبعًا للضروريات وتبعًا لإمكان إجراء «استراتيـچية الاصطدام»، وقد رفض شليـڤـن «استراتيـچية الإجهاد» بسبب أنها تعرض كيان الأمة للخطر تبعًا لتوزيعها وإرهاقها أوجه النشاط التجاري والصناعي، وعبر الـچنرال ڤون بلوم(*) أحد تلاميذ شيلفن عن هذه الآراء نفسها في كتابه عن الاستراتيـچية الصادر سنة ١٩١٢ .

ويتضح النقص الفني في العسكرية الألمانية قبل الحرب أكثر ما يتضح

(*) فلهلم ڤون بلوم، أحد قادة وحدات المشاة، ولد في ١٠ من مايو سنة ١٨٣٥ وتوفي في ٢١ من مايو سنة ١٩١٩، ويعتبر من كبار الكتاب العسكريين الألمان وأهم مؤلفاته كتابه (الاستراتيـچية).

من متابعة تطور القوة الجوية، وتتحدث الأرقام التالية عن نفسها، ففي المدة من سنة ١٩٠٩ إلى سنة ١٩١٢ أنفقت فرنسا ٣٠.٦١٠.٠٠٠ فرنك على قواتها الجوية على حين أنفقت ألمانيا ٦.٤٨٦.٠٠٠ مارك، وكانت نتيجة هذا أنه كان لدى فرنسا سنة ١٩١٤ ٣٩٠ طائرة و ٢٣٤ طيارًا على حين كان لدى الجيش الألماني ١٠٠ طائرة و ٩٠ طيارًا[(١)]، وبذلك كانت النسبة في النفقات بين فرنسا وألمانيا ١:٤، والنسبة في عدد الطيارين بينهما ١:٢.٥، على أنه قبل بدء الحرب أدركت هيئة أركان الحرب الألمانية أن الطائرات أفضل المركبات الأخف من الهواء[(*)].

ولكن وزارة الحرب، بل وبخاصة وزارة المالية، اعترضت على زيادة

(١) Kriegsrustung op-cit I (Documints) p. ٤٤ Note I.
ويذكر. و . بيرس في كتابه (الحرب الجوية) طبع نيويورك سنة ١٩٣٩ ص٩٢ الأرقام التالية عن الطيارين الذين كانوا حائزين على إجازة قيادة طائرة عسكرية سنة ١٩١١، في فرنسا (٣٥٣)، إنجلترا (٥٧)، ألمانيا (٤٦)، إيطاليا (٣٢)، بلـچيكا (٢٧)، الولايات المتحدة (٢٦)، النمسا (١٩).

(*) يقصد «بالسفن الأخف من الهواء» المناطيد، ويقول الليفتينانت چنرال بارون ڤون فرتياج لورنجهوڤـن في كتابه
(Deduction From The World War).
الترجمة الإنجليزية طبع لندن سنة ١٩١٨ ص٥٤ / ٥٥:
«أثبتت المناطيد طراز زبلن صلاحيتها لأعمال الاستكشاف في البحر وإن كانت قد أخلت مكانها في الأعمال البرية للطائرات، ولقد اضطرت بسبب تعرضها لنيران المدفعية لأن تطير على ارتفاع كبير مما قلل من دقة إصابتها للأهداف، إن اختراع الكونت زبلن قد أمد ألمانيا وبخاصة في بدء الحرب بسلاح كانت له أهميته الكبيرة فبالمنطاد زبلن استطعنا الطيران فوق انجلترا، على أن قيمة الطائرات زادت عندما استطاعت أن تعلو إلى ما يزيد على ثلاثة آلاف متر، وبذلك قلت خطورة تعرضها لنيران المدفعية، إن للطيران مستقبله العظيم وإمكانيات تطور السلاح الجوي كبيرة» المترجم.

النفقات التي تستهلك في صنع الطائرات وأشارت إلى صعوبة إعداد وتدريب الطيارين(١)، فضلاً عن أن قيادة السفن الأخف من الهواء كانت عند حد الاعتقاد بأن الطائرات لن تكون صالحة للحرب(٢).

وكان هناك تراخ مماثل في تقوية واستخدام الوحدات الفنية في الجيش وبخاصة وحدات المواصلات والمدفعية(٣) وفي سنة ١٩٠٠ قدم الـچنرال ڤون دير جولتز عددًا من المقترحات الهامة عن المهندسين في الجيش الألماني، وكان من رأيه أن وحدات المهندسين يجب أن يتضاعف حتى يصل إلى معدل ثلاث سرايا للفيلق الواحد، كما يجب زيادة تدريب الضباط، وكما يجب إيجاد ارتباط تكتيكي بين المشاة وبين الوحدات الفنية على أساس تبادل الضباط، وعلى أساس تشكيل هيئة أركان حرب خاصة للمهندسين تتكون من ضباط من كل الأسلحة يتدربون تدريبًا فنيًا خاصًا.

ولم تتقبل وزارة الحرب، ولا هيئة أركان الحرب، هذه المقترحات بالترحاب، وقد استخدم الافتقار إلى المال كوسيلة للاعتذار عن قصر النظر في إدراك أهمية هذه المقترحات، وكانت هيئة أركان الحرب تعرف أن تشكيل

---

(١) استطاعت فرنسا التغلب على هذه الصعوبة بإصدار الأوامر للمصانع التي تصنع الطائرات بأن تدرب طيارًا مقابل كل طائرة تخرج من مصانعها.

(٢) A. Hildebrandt, "Die Luftfahrertruppe" Hanbuch der Politik, III (٢nd ed; Berlin, ١٩١٤), p. ٣٠٥.

(٣) كانت العادة قبل الحرب العالمية الأولى إغفال الكثير من الأغراض التي تدخل ضمن مرامي المدافع على أساس عدم دقة المراقبة في المسافة البعيدة، «والغريب أن ننسى أن مدى الرؤية في النظارات المقربة كان يتزايد، وأن استخدام التليفون كان يمكن من مدى المراقبة» راجع:

Max Ludwig, "Heerestechnik "Die Deutsche Wehrmacht ١٩١٤ - ١٩٣٩. (Berlin, n. d.), p. ٨٧.

هذه الهيئة الخاصة لوحدات المهندسين سيحد من سيادتها ومن سيطرتها، ومع أن الحرب الروسية اليابانية قد جاءت بعدة دروس ـ لا يمكن إغفالها ـ، توضح أهمية الوحدات الفنية في الحرب الحديثة، فإن هيئة أركان الحرب الألمانية صرحت في بساطة بأنه ما من حاجة ملحة لزيادة عدد وحدات المهندسين.

ولم تحذر الصفوة من العسكريين الألمان ـ في غمرة التحديد الذي تواجهه بسبب تكوينها الاجتماعي، وبسبب جهلها بالعوامل الاقتصادية المؤثرة في الحرب الحديثة، وتبعًا لكراهيتها وموقفها من المستحدثات التكنولوچية ـ لم تحذر أهمية عامل الدعاية، ولم تكن هذه الصفوة في فجر الحرب متأهبة بأي صورة لهذا الميدان، ميدان الدعاية.

وبرغم خوف هؤلاء الناس الذين يسيطرون على الجيش الألماني من أن الحرب سوف تسبب تعطلاً في الأيدي العاملة كما ستسبب اضطرابًا اجتماعيًا فإنهم لم يدركوا إمكان الاحتفاظ بالقوى المعنوية للجبهة الداخلية بجهد مركز تبذله الحكومة من جانبها، ولما كان هؤلاء العسكريون قليلي الاتصال بالأعمال العامة الحديثة، قليلي التفهم لأساليبها وأصولها، فإنهم لم يتعلموا شيئًا عن الإعلان التجاري، فضلاً عن أن الدعاية كالتكنولوچيا كانت تسودها روح حضارة الطبقة المتوسطة، هذه الطبقة التي كان الصفوة من العسكريين ينظرون إليها نظرة خالية من التقدير، وكانت الفكرة أن السيف لا القلم هو الذي يقرر مستقبل الحروب.

وقد وضحت كل هذه العوامل التي تحد من تطور التنظيم الطبقي (نظام الطبقات) في العسكرية الألمانية عقب بدء الحرب بقليل، كان الإمبراطور من الناحية النظرية هو القائد العام، وكان رئيس هيئة أركان

الحرب هو المستشار الاستراتيـجـي للإمبراطور.

ولكن من الناحية العملية قامت في ألمانيا دكتاتورية عسكرية منذ أن استبدل ڤالكنهاين بهندنبرج ولودندورف، ولقد وضع لودندورف في خضم النزاع بين السلطات العسكرية والسلطات السياسية بحيث يمكنه أن يوطد سيادة القادة العسكريين على رجال السياسة، وكلما وجد تحديدات دستورية تعطل أو تحد من سلطته أغفلها وتنكر لها.

ولكن كونه كان يشعر بهذه التحديدات المعطلة، وأنه كان يفكر فيها طويلاً، يبدو ولا شك من حقيقة أن كل انعكاسات آرائه في إيضاح العلاقة بين السلطات العسكرية والسلطات المدنية كانت متأثرة بتجارب الحرب.

وقد ضعف نفوذ اللجنة الوزارية العسكرية تحت ضغط الحرب، إلا أنه لم يمكن الوقوف أمام السلطة التي للريشستاغ تبعًا للحق الذي له في السيطرة على شئون الميزانية إلا بالتهديد المتكرر بالاستقالة من جانب هندنبرج ولودندورف، وكان لودندورف هو الذي يحسم كل نزاع بين السياسيين وبين القادة العسكريين، ولم يكن هذا بسبب تطلبه السلطة لنفسه كما كان بسبب أنه عندما تكون الكفاية أو المهارة هي مطلب الساعة لم يكن هناك غيره من يتطلب هذه السلطة مع ما يصحبها من مسئولية.

* * *

ولم يكن لودندورف أصلاً من الطبقة الارستقراطية فقد كان سليل أسرة غامضة الأصل مبهمة المنبت، وقد تقدمت به كفايته إلى مركز كان يحتفظ به عادة لضباط من النبلاء، فإذا ما قدرنا أصله ومنبته، وقدرنا الوظيفة التي استحدثت من أجله «الكوارتر ماستر چنرال الأول» erster

Generalquartiermeister وهي الوظيفة التي تولاها من أغسطس سنة ١٩١٦ حتى نهاية الحرب أدركنا أنه كان «حديث النعمة» برز فجأة إلى هذا الوضع الاجتماعي الكبير، ولربما كان بسبب هذا أن أحس لودندورف بالتحديدات السياسية بالنسبة لسلطاته بالرغم من أن هذه التحديدات لم تكن ذات أثر، كما أحس بنقص المسئولية المركزية للسيطرة على جهود الحرب الواسعة النطاق بأكثر مما كان يمكن أن يحس بها ضابط من النبلاء يستند إلى تقاليد تتعمق جذورها في داخلية نفسه، وكان لودندورف قوى الإرادة بدرجة أكبر مما توافر للقيصر الإمبراطور ولرئيس الوزراء، ومن ثم فقد استطاع أن يستعوض ما يفتقر إليه كسياسي وكرجل من رجال الاقتصاد.

وينشأ النزاع بين السياسيين والقادة العسكريين في سهولة ويسر أيام الحرب، وقد يستطيع حتى السياسيون المعتدلون أن يدافعوا بصلابة عن وجهات نظرهم عندما تتضاد تقاليدهم وتعاليمهم السياسية مع اتجاهات العسكريين أيام الحرب وعملهم لإعادة توزيع السلطات توزيعًا لصالح الصفوة من العسكريين، والرجال الذين تتوافر لهم الشخصية القوية يستطيعون أن يصمدوا حتى ضد أعنف التيارات المضادة، وقد نجح بسمارك في هذا سنة ١٨٦٦ وسنة ١٨٧١، ولقد كتب بسمارك في فقرة من مذكراته حديثًا يمكن أن يكون حكمًا على آراء لودندورف السياسية، وفي هذه الفقرة يقول بسمارك: «إن وضع وتحديد الأهداف التي يجب أن تحققها الحرب، وكذلك تقديم المشورة للملك في هذا الشأن ـ سواء في وقت الحرب وفي وقت السلم ـ لمسألة سياسية من اختصاص السياسيين».



لودوندورف (١٨٦٥ ـ ١٩٣٧)

وكان بيثمان ـ هولـڤيج[*] Bethmann - Hollweg السياسي الألماني الوحيد الذي كان له اعتباره وقت الحرب بالرغم من أنه لم تتوافر له لا الشخصية ولا الإرادة للوقوف في ثبات ودون تأرجح ضد العسكريين.

ولكن من الغريب أنه لم يتردد عن أن يهز من استقلال أميرالات البحر، وقد حول بيثمان ـ هولـڤيج مسئولية إصدار كل القرارات الهامة للحرب البحرية في الحرب العالمية الأولى إلى القيادة العامة، ومن ثم كان حكم لودندورف ـ الذي أمل في السلم عن طريق تحقيق نصر عسكري ـ حاسمًا في إطلاق الغواصات الألمانية من عقالها للقيام بعمليات غير محدودة لا تخضع لقانون[١]، وقد أطلق بيثمان ـ هولـڤيج أيدي العسكريين ولم يحاول قط الحد من سلطانهم السياسي.

وكنتيجة لهذا برز لودندورف كديكتاتور عسكري لألمانيا، ودوره هذا في الواقع جد معروف ولا يحتاج منا إلى أكثر من مجرد تسجيل الحوادث التي وضع تخطيطها ونفذها بفرض سلطاته غير الدستورية على الإمبراطور ورئيس الوزراء والريشستاغ، هذه الحوادث التي يمكن إجمالها في: إعفاء

(*) نيويورك بيثمان ـ هولـڤيج كان رئيسًا للوزارة البروسية ووزيرًا لخارجية الرايخ الألماني حتى ١٤ من يوليو سنة ١٩١٧ «المترجم».

(١) راجع لتفهم دور لودندورف كديكتاتور عسكري أثناء الحرب كتاب أرثر روزنبرج.

Arthur Rosenberg, Die Entstehung der deutschen Republik

طبع برلين سنة ١٩٢٨ وبخاصة الفصول ٤، ٥، ٦ وكذلك كتابي

Karl Tschuppik, Ludedarff: The Tragedy of Military.

Mind transl. by W. H. Johnston (Boston, New York, ١٩٣٢).

K. Von Oertzen ،"politik and Werhmacht" ،Wissen und Wehr, V (١٩٢٨).

بيثمان ـ هولـڤيج وتعيين ميخاليس Michaelis(*) رئيسًا للوزراء بدله، إعفاء ڤون كوهلمان من عمله كوزير للخارجية، نفوذه الحاسم في صياغة معاهدات الصلح مع روسيا ورومانيا، ثم إعفاء ڤون ڤالنتيني من عمله كرئيس للجنة الوزارية الخاصة بالشئون المدنية.

وفضلاً عن هذا فقد توافر للودندورف نفوذ حاسم في كل مرحلة من مراحل الاقتصاد الألماني والسياسة الألمانية طوال الحرب.

ـ ٢ ـ

ويمكن أن نعرض جملة رأي لودندورف عن «الحرب الشاملة» في خمس نقاط رئيسية جمع فيها رأيه، وهي: الحرب عملية شاملة:

أولاً: لأن مسرح القتال يمتد ليغطي كل أرض الأمم المتقاتلة.

وثانيا: لأنه بالإضافة إلى ما يسببه هذا من مخاطر فإنها (الحرب) تتطلب المساهمة الإيجابية في المجهود الحربي من جانب كل السكان، فليست الجيوش بل الأمم هي التي تخوض غمار الحرب الشاملة، ولهذا فإن تنفيذ واستكمال كل مطالب الحرب يستلزم تكيف النظام الاقتصادي مع أغراض الحرب.

ثالثًا: اشتراك جماعات كبيرة في الحرب يستلزم ضرورة بذل جهود خاصة ـ تلعب فيها الدعاية دورًا هامًا ـ وذلك لتقوية معنويات الأهلين وإضعاف التماسك السياسي للعدو.

(*) چورچ ميخاليس George Michaelis سياسي ألماني ولد سنة ١٨٥٧، كان وزيرًا للتغذية في مطلع الحرب العالمية الأولى وتولى رياسة الوزارة في ألمانيا من ١٤ من يوليو سنة ١٩١٧ إلى أول نوفمبر سنة ١٩١٧ «المترجم».

رابعًا: يجب أن يبدأ الإعداد للحرب الشاملة قبل بدء العمليات فعلاً، ومن ثم فإن العوامل العسكرية والاقتصادية والنفسية تؤثر فيما يقال له: «التنظيمات وقت السلم للمجتمعات الحديثة».

وأخيرًا: لكي تتحقق الأهداف التي تبذل في سبيلها الجهود يجب أن توجه الحرب الشاملة بسلطة عليا واحدة تتمثل في القائد العام.

ولم تخل فكرة لودندورف ـ البسيطة نسبيًا ـ عن الحرب الشاملة، لم تخل من تفاصيل طريفة، فإن الامتداد الجغرافي لمسارح الحرب الشاملة هو نتيجة حتمية للتقدم الفني لوسائل التدمير ولزيادة العوامل المتداخلة بين الأمم الحديثة، ولم تتسع مناطق القتال بسبب تطور الأسلحة البعيدة المدى من كل الأنواع فحسب، بل إن المناطق التي وراء مناطق القتال تتأثر هي الأخرى «بالدعاية وبالحصار للإجاعة»، ولهذا يمكن أن نمثل الأمة التي تحارب بحامية حصن يحاصره العدو، وكما تعمل القوات التي تحاصر حصنًا لإرغام حاميته على الاستسلام بتوجيه وسائل عسكرية عنيفة، لا ضد الحامية العسكرية وحدها بل وضد المدنيين الذين يعيشون داخل جدران الحصن بإجاعتهم، فإن الحرب الشاملة تستكمل عمليات الاقتحام التي توجه ضد القوات المسلحة للأمة باستخدام أسلحة غير عسكرية ضد الجماعات غير المقاتلة من السكان؛ وذلك لأنه لم يعد ثمة مكان للمظاهر الشكلية التي كانت تفصل بين المقاتلين وغير المقاتلين.

على أنه لضمان الامدادات العسكرية والمواد الغذائية للأمة التي يحاصرها العدو نصح لودندورف بتحقيق الكفاية الذاتية للاقتصاد، ومع هذا فإن آراءه عن الاقتصاد لا تزيد إلا القليل على ما يمكن أن نجده من أحاديث عامة في كتاب مدرسي، وقد ناقش لودندورف الفكرة التنظيمية

لاقتصاديات الحرب لا الإمكانيات الاستراتيـچية لتحسين موقف المواد الخام والغذاء والأيدي العاملة لأمة تحارب في مواجهة غزو يقوم به العدو[١].

والمدهش أن المساهمة الأصلية التي قام بها لودندورف في نظرية الحرب الشاملة لم تجيء في ميدان الحرب العسكرية، بل في النطاق الذي يقال له «الحرب النفسية».

ولقد عنى لودندورف إلى حد بعيد بمشكلة تماسك الشعب[*] وفي هذا المضمار وحده اختلف لودندورف اختلافًا بينا عن كل الكتاب الإشتراكيين الذين تعرضوا للحديث عن الحرب الشاملة، فلقد استهجن محاولة تحقيق الوحدة الاجتماعية بالقوة أو بالإعداد والتدريب على أساس أن الوسيلة المستخدمة تعتبر وسيلة غير مؤثرة، وقد أطلق على هذه الوسيلة أو الأخرى «الوسيلة الآلية» أو «الخارجية» ويقول: «إن الوحدة التي لا ترتبط فيها أرواح الأهلين، بروابط جنسية أو دينية ليست هي الوحدة التي يحتاجها الشعب والجيش في الحرب، إن هذه الوحدة الوهمية الآلية خطر على

(١) نوقشت المسائل الخاصة باقتصاديات الحرب في ألمانيا بوساطة أولئك الذين تخصصوا في علم «الـچيوبوليتيكا» ـ راجع الفصل ١٦ من الكتاب الرابع.

(*) في الأصل "Cohession of the people" وتعني حالة التجمع معا أو الاتجاه لهذا، وقد جاءت عن Co أي معا و herere أي يلتصق، وتعني في التفسير المادي: القوة التي تربط جزئيات المادة معا فلا تنفصل عن بعضها، وتماسك الشعب في اللحظات الحرجة كالتهديد بالحزو، أو لخوض غمار الحرب، أو لمواجهة الأزمات السياسية كانت ولا تزال من أم العوامل التي تؤثر في قوة الجبهة الداخلية، وإن كانت هذه المؤثرات في الواقع لم تتضح إلا في تاريخ متأخر منذ فجر القرن التاسع عشر «المترجم».

الحكومة والدولة»[١] .

وبنفس الصورة تحدث ـ دون مواربة ـ عن الحركات مثل الفاشية، والقومية الاشتراكية وعرض لما تقوم به من تدريب الشبان الذين لم يصلوا بعد لسن خدمة الجندية تدريبًا أوليًا، وشبه هذا التدريب بتدريب الكلاب، وشك في التدريب الجماعي الذي يحرم الشبان من تكامل شخصياتهم، كما شكك في إمكان أن يحقق هذا التدريب إعداد الشبان بحال مرضية للخدمة العسكرية[٢] .

وهكذا فإن النموذج الذي ارتآه لودندورف للأمة التي تتوافر لها وحدة اجتماعية متماسكة لم تكن هي بروسيا القديمة ولا ألمانيا الهتلرية الجديدة، وإنما كانت اليابان هي التي فكر فيها عندما تحدث عن «الوحدة» وعن «التماسك»، «فوحدة الشعب الياباني تباين الوحدة الآلية تمامًا، فهي وحدة روحية تستند إلى أصول وتعاليم عقيدة «الشنتو»[*] Shinto Religion، العقيدة التي تضطر اليابانيين لخدمة إمبراطورهم ليضمنوا سبيل الحياة لأسلافهم، ذلك لأن خدمة الياباني للإمبراطور ومن ثم للدولة لتقربه إلى الله، وتجيء عقيدة الشنتو من التراث الشعبي لليابانيين وتتمشى مع احتياجات الشعب والدولة، والوحدة في التراث الشعبي والعقيدة وفي فلسفة الحياة هي الدعامة التي تستند إليها قوة الشعبي الياباني»[٣] .

---

(١) Der totale Krieg, p. ١٧٠

(٢) نفس المرج ص٥٨ .

(*) الشنتو Shentoism الدين الأساسي في اليابان ويقوم على أساس عبادة الأسلاف والأبطال القدامي وتقديس الإمبراطور، وكان دين الدولة الرسمي قبل سنة ١٩٥٤ «المترجم». معجم ويبستر ص١٣٤٥ طبعة سنة ١٩٥٦ .

(٣) نفس المرجع ص١٧ .

وكان هدف لودندورف إمداد الشعب الألماني بعقيدة تماثل عقيدة الشنتو لليابانيين، ومهما كان هذا يبدو خياليًا في طابعه فإن لودندورف كان يدرك تمامًا لحقيقة أن الحاجة ماسة إلى أكثر من سياسة دعاية جيدة حتى تتوافر المعنويات الشعبية التي تمكن الناس في مجتمع صناعي حديث من تحمل متاعب وصعاب الحرب الشاملة، وقد أدرك لودندورف كما أدرك ايرنست يونجر «أن التعبئة قد تنظم القدرات الفنية للرجل دون أن تتعمق إلى لب إيمانه وعقيدته»[(١)] .

وقد أدرك لودندورف أيضًا أن روح التضحية (لا يمكن أن تحقن في الكيان السياسي للأمة حتى ولو كان الطبيب ماهرًا)، وعرف لودندورف بعد تمعن أن عوامل التوافق والتماسك في المجتمع إنما تكمن في التقاليد العميقة الجذور داخل كيان هذا المجتمع بأكثر مما تكمن في التنظيم الجيد للبوليس، ***والواقع*** أن لودندورف لم يقف في جانب استخدام العنف ضد المنشقين والخارجين عند ما أشار إليهم في كتابه عن «الحرب الشاملة»، وعندما تحدث في «ذكرياته» عن حقيقة أن الحكومة قد تستخدم القوة ضد أولئك الذين يقفون موقف التضاد من جهد الحرب تحدث عن هذا في طابع المتلمس للمعاذير .

وفي الجملة فإن آراء لودندورف في دور الدعاية كانت منطقية بدرجة أكبر من آراء هتلر فيها، وقد جاءت آراء لودندورف من النواحي الفنية للدعاية ذات دراية وتجربة تثيران الدهشة، وقد أبدى أسفه من أن الحكومة

(١) في هذا الأسلوب نفسه عرض أبرنست يونجر المساهمة الكبيرة التي قام بها راثيناو لتنظيم اقتصاديات ألمانيا للحرب، في الحرب العالمية الأولى، راجع كتابه:
Dei totale Mobilmachung (Berlin, ١٩٣١), p. ١٦.

الألمانية أخفت عن الشعب الألماني هزيمة المارن، ووقف إلى جانب سياسة المصارحة (الصراحة) حتى لا تعطي (يدا طليقة لمثيري الشائعات)(١) .

وفي نفس الصورة كتب لودندورف في مذكراته أنه كان من الضروري أن يقال كل يوم لكل ألماني، رجلاً كان أو امرأة، ماذا يمكن أن يكون لفقدان الحرب من أثر في حياته وماذا يمكن أن يكون لهذا من معنى بالنسبة للوطن، وأنه كان من الضروري أن تتحدث الأفلام والصور عن هذه أيضًا فإن عرض الأخطار وإيضاحها لجمهرة أفراد الشعب له تأثير يخالف التفكير في الكسب والغنيمة، وله تأثير أبعد مدى من الحديث أو الكتابة عن مفاوضات الصلح(٢)، ويبدو أن جوبلز في اللحظات الحرجة التي تبعت غزو روسيا قد اتبع نفس استراتيـچية الدعاية وقد انتفع ببعض أوراق من كتاب لودندورف.

وقد اتبع جوبلز ـ كلما أمكن ـ نصيحة لودندورف التي كررها الكثيرون من المؤلفين الإشتراكيين القوميين الذين كتبوا عن الدعاية ألا وهي:

«إن الدعاية الجيدة يجب أن تقدم تطور الحوادث على حقيقتها»(٣)، وانتهى لودندورف إلى ما كان الإشتراكيون القوميون سادته فيما بعد وهو: (أن نشر الشائعات أحسن وسائل الدعاية ضد العدو)(٤) .

وتصل نظرية لودندورف عن الحرب الشاملة إلى الذروة عندما

(١) Der totalekrieg, p. ٢٦.

(٢) Meine Kriegserinaerungen (Berlin, ١٩١٩), p. ٢٤٦.

(٣) نفس المرجع ص٣٠٠ .

(٤) نفس المرجع ص٣٠٢ .

تعرض للدور الذي للقائد العسكري الأعلى (للقائد العام)، فهو بالإضافة لتوجيهه العمليات الحربية يجب أن يتولى أيضًا توجيه السياسة الخارجية والاقتصادية للأمة كما يتولى توجيه سياسة الدعاية، «ومن الضروري أن تشكل هيئة أركان الحرب تشكيلاً كاملاً: أي إنها يجب أن تشتمل على خير من تتوافر لهم المهارة في ميادين الحرب في البر والجو والبحر، وتكنولوچية الحرب، وفي ميادين الدعاية والسياسة والاقتصاد، وكذلك أولئك الذين يعرفون الكثير عن حياة الناس، وعلى هؤلاء أن يقدموا التقارير لرئيس هيئة أركان الحرب ـ أو للقائد العام عند الحاجة ـ عما يقومون به كل في ميدان عمله، ولكن ليس لهؤلاء دور ما في رسم السياسة العامة»(١).

وهكذا ليس للسياسي المدني من مكان في تخطيط لودندورف للحرب الشاملة، بل أن القائد العسكري هو الذي يسيطر على كل شيء.

ثم يكمل لودندورف حديثه فيقول:

«ومن الضروري أن نضع فوق الرف «هكذا» كل نظريات كلاوزيـڤتز، أن الحرب والسياسة تخدمان بقاء الشعب وكيانه، ولكن الحرب وحدها هي أقوى تعبير عن الإرادة للحياة»(٢).

* * *

وكان كلاوزيـڤتز يعتقد أن الثورة الفرنسية قد أزالت الكثير من التحديدات التي كان نظام الحكم في الماضي قد عرفها، عندما كانت الحكومات لا الشعوب هي التي تخوض غمار الحرب، وكانت هذه التحديدات هي التي تمنع الحرب من أن تصل إلى الطابع المطلق.

(١) Der totalekrieg, p. ١١١.

(٢) نفس المرجع ص١٠ .

وقد رفض كلاوزيـڤتز الرأي الخاطيء القائل بأن الحرب قد حررت نفسها من السياسة كنتيجة تبعية للثورة، وبدلاً من هذا أكد كلاوزيـڤتز في فقرة ـ نقلها عنه لودندورف فيما بعد ـ يقول فيها: إن القوى السياسية للثورة الفرنسية قد أطلقت كل أوجه النشاط التي غيرت بالتبعية طابع الحرب، وبالرجوع بالتغيير في طابع الحرب إلى تأثير السياسة يكون كلاوزيـڤتز قد حدد طابع الحرب إلى تأثير السياسة يكون كلاوزيـڤتز قد حدد الطابع السائد للحرب في ضوء بناء المجتمع السياسي الذي يثيرها ويخوض غمارها.

على أنه تبعًا للودندورف من جانب آخر فإن الحرب الشاملة نتاج التطورات في تعداد السكان والتقدم الفني، فإن زيادة تعداد السكان وازدياد كفاية وسائل التدمير قد أوجدتا هذا الطابع الشامل للحرب.

ولا توجد أقل العلائم في كتابات لودندورف التي يمكن أن تدل على أنه قد فضل «الحرب الشاملة» على «الحرب المحددة» على أسس معنوية أو أسس ميتافيزيقية، وليس فيها كذلك ما يدل على اعترافه بشرعية وعدالة ومنطقية الحرب الشاملة في ضوء تعاليم العقيدة الطغوائية للاتساع الاستعماري(١)، ولا ما يوضح تقديره لمجتمع تسوده الرغبة في القتال

---

(١) لا فائدة من البحث في تعاليم لودندورف عن تصريحات مثل هذه: «إن الطابع الدولي الصادق هو الطابع الاستعماري، طابع السيطرة في الطابع الذي يشبه «حضارة فاوست»(*). أي السيطرة على العالم كله والتي تتحقق بمبدأ واحد، ليس هو التفاهم، بل هو الغزو والتدمير».

Oswald Spengler, Preussenthum und Sozialismus, (Berlin, ١٩١٩), p. ٨.

(*) في الأصل (Faustlike)، وفاوست: الدكتور چون فاوست بطل عدة أساطير من العصور الوسطى تدور حول حياة فيلسوف قديم باع روحة للشيطان في سبيل المعرفة والسلطة، وكانت شخصية فاوست ميدانًا خصبًا لعدد من الأوبرات والكتابات الأدبية وبخاصة=

وتطلب البطولة والإقدام على التضحية إلى حد إثارة الحرب من أجل البطولة والتضحية وما يصحبها من بريق لامع، ليس في كتابات لودندورف ما يمكن أن يدل على هذا، بل على النقيض يذهب لودندورف بعيدًا إلى حد الإصرار على أن «الحرب الشاملة» يجب أن تكون حربًا دفاعية، والناس لن يعانوا على خوض غمارها إلا إذا عرفوا أنها قامت للاحتفاظ بكيانهم.

وقد يكون من الصالح أن تقدم هنا كجانب من الجدل حول الحرب الشاملة ما جاء في كلمات ا. م. فورستر E.M. Forster من أنها: (تبشر بالمثالية على حين أن لها كل مظاهر العنف والخشونة والوحشية)، ومع هذا فإن لودندورف لم يتردد في أن يصدم الناس بآرائه غير المنطقية Unorthodox في الدين والعقيدة.

على أنه من الظلم أن نشك في أن لودندورف كان يعني ما قاله عن الطابع الدفاعي للحرب الشاملة فلقد أصر على أن طابع الحرب الشاملة يتطلب أن لا تثار إلا عندما يشعر كل الأهلين أنهم يواجهون حقًا تهديدًا في كيانهم ووجودهم، ومن ثم فلا غنية لهم عن خوض غمارها(١) .

ولو كان هذا الإصرار من جانب لوندورف على الطابع الدفاعي للحرب الشاملة مجرد محاولة لإخفاء رأيه الحقيقي في طبيعتها لكان من الممكن القول بأن كانت له اتجاهات مكياڤيلية(*) نحو الجماهير، ولكن لا

=المسرحية التي كتبها مارلو (Marlowe)، والقصائد التي كتبها جيته بين سنة ١٧٧٣ وسنة ١٨٣١ ثم الأوبرا التي كتبها چونو Gounoo مستندة إلى المادة التي في قصائد جيته «المترجم».

(١) Der totalekrieg, p.٦.

(*) راجع الفصل الأول من الكتاب الأول (رواد الاستراتيـچية الحديثة).

توجد في كتاباته كلها أي علائم تدل على مثل هذه الاتجاهات، بل الواقع أنه عارض في إفاضة وإيضاح الاتجاهات التي تتوافر في دوائر المثقفين من الإشتراكيين القوميين من أن الجماهير يمكن، بل ويجب أن توجه سيكلوچيًا للعمل لصالح الجماعات التي تتولى السلطة، وكما أشير من قبل، فإن لودندورف اعتبر هذه المحاولات لتوجيه الجماهير في هذا الأسلوب مسألة لا قيمة لها ولا تأثير.

- ٣ -

ولم ينظم الإشتراكيون القوميون المجتمع الألماني للحرب الشاملة فحسب، بل قد كتبوا أيضًا الكثير من المؤلفات عنها في طلاقة، وقد قامت مساهمتهم في تطور نظرية الحرب الشاملة على الأسس القاعدية لقول كلاوزيڤتز ولودندورف من أن الحرب الحديثة تتطلب ضرورة تعبئة كل موارد الأمة المادية والمعنوية.

ولقد جاء الخلاف الأساسي الرئيسي بين ما كتبه المؤلفون الإشتراكيون القوميون عن الحرب الشاملة وما كتبه لودندورف عنها، في حقيقة أن الإشتراكيين القوميين قد حاولوا إيجاد مبررات إيديولوچية للحرب الحديثة.

ومن المعتقد أن تفهم السياسة الجنسية وقانون الطبيعة في ضوء آراء داروين وفي ضوء تعاليم وأصول علم الـچيوبوليتيكا (علم سياسة الكرة الأرضية) قد أمد آلة الحرب الألمانية والعسكرية الألمانية الجديدة بقوة معنوية، على أن الأكثر من هذا أن بعض الكتاب الإشتراكيين القوميين قد دعوا نظرية لودندورف إلى النهاية التي كان من المنطق أن تنتهي إليها،

وذلك بإنكارهم وجود الحال التي يقال لها: «السلم» فهم لا يعتبرون الحرب مرحلة من مراحل العلاقات المشتركة بين الدول، بل يعتبرونها تعبيرًا عن تطور سياسي اجتماعي في حياة الشعب[١] .

وفي نفس الصورة كتب الـچيوبوليتيكيون[*] الكتب عن الصور أو الطوابع التي تجيء فيها الحرب في الأوقات التي يقال لها ـ في الاستعمال العادي ـ أوقات السلم؛ وبدلاً من أن يتحدثوا عن: (السلم بين الحربين)

---

(١) Guido Fischer, Wehrwirtschaft (Lcipzig; ١٩٣٦), p. ٢٣.

(*) الـچيوبوليتيكيون: أعلام علم الـچيوبوليتيكا (علم سياسة الكرة الأرضية) ويجب ملاحظة أن العلم ليس جديدًا إلا في اتساع نطاق دراساته التي كانت تتبع أصلًا بعض العلوم الاجتماعية الأخري كالتاريخ والاقتصاد والانثروبولـچيا والتشريع وغيرها، ولقد بدأ بدراسة المنطقة السياسية من ناحية البيئة الطبيعية والحجم والمظاهر الجوية والموارد الطبيعية مع تقدير ثقافة الشعب (سكان المنطقة السياسية) ولغتهم واقتصادياتهم والحياة الاجتماعية لهم وعلاقة كل من هذه بالأخرى ثم علاقتها كلها معًا جملة واحدة، ثم اتسع النطاق في دراسة التفاصيل كبحث العواصم مثلًا وهل هي مركزية بالنسبة للمنطقة وعلاقاتها بالأوضاع العسكرية الدفاعية ومدى بعدها عن الحدود وخطوط الاقتراب إليها ووسائل تغطية خطوط الاقتراب هذه، ودراسة الحدود وهل هي طبيعية أم صناعية وكثافة السكان في مناطق الحدود والثروات المعدنية التي تجاورها ومدى تعرضها والنقاط ذات الأهمية الاستراتيـچية منها، وبحث الأنصار من الدول الحليفة والفواصل البرية أو البحرية بينها، مع تقدير العوامل الثقافية والاقتصادية منها ثم مقارنة هذا بالعدو، واعتبر العلماء كل هذه العوامل من القوي التي تؤثر في القيمة الـچيوبوليتيكية للمنطقة السياسية أو تتأثر بها، وكان العلماء الألمان وبخاصة الـچنرال كارل هوزهوفر أول من طبق أصول العلم في مدى واسع وكان كارل هوزهوفر هو الذي أملي على أدولف هتلر كل الفقرات التي تتصل بعلم الـچيوبوليتيكا في كتابه «كفاحي»، وكان هو الذي رسم له التخطيط السياسي لحركاته منذ تسليح أرض الرين حتى الحرب العالمية الثانية ولم يخرج هتلر عن هذا التخطيط إلا في مهاجمته للروسيا «المترجم».

أوجدوا اصطلاحًا جديدًا هو: (الحرب بين الحربين)[١] .

وقد جاء واحد من أهم صور التطور ـ والتي لولاها لكان من المستحيل تحقيق أساليب الحرب البرقية ولكان من المستحيل أيضًا تنسيق عمل مختلف الأسلحة ـ جاء هذا نتيجة انعدام روح المعارضة للتطورات الحديثة بين الضباط، وقد كتب كارل يستروف Karl Justrow الذي انتقد بشدة قلة المهندسين في الجيوش الألمانية أثناء الحرب العالمية الأولى موضحًا أنه لم يكن للمهندسين أقل أثر في توجيه الحرب، كتب قبيل بدء الحرب العالمية الثانية بقليل: «إن التكنولوچية، والتي هي طفل من غير الصلب لكل التنظيمات، إنما ينظر إليها اليوم نظرة تقدير مع التفهم العميق لدورها في الحرب»[٢] .

وقد تسببت إزالة كل اتجاهات المعارضة للتطورات الفنية في زيادة المساواة داخل المجتمع، فكلما ازدادت المطالبة بالمهارة الفنية والصلاحية الجسمانية للإخصائيين الذين يتولون أعمال التدمير قل الاهتمام بالأوضاع الاجتماعية التي يجب أن تتوافر للعسكريين، وكان من الضروري تضحية هذه الاعتبارات الاجتماعية في سبيل المهارة المطلوبة من الأفراد، وبخاصة عندما لا يتوافر العدد الكافي من هؤلاء الأفراد المهرة، وهكذا كانت تكنولوچية الحرب الشاملة في جانب العسكرية المتكافئة الفرص لكل الأفراد في ألمانيا الهتلرية.

وعندما أعاد هتلر نظام الخدمة العسكرية العامة ألغى امتيازات الخدمة القصيرة الأجل، والتي كانت تمنح للشبان الذين نالوا حظا من الدراسة العليا في حكم القيصر الإمبراطور؛ على أنه تبعاً لهذا وتبعاً لإمكان

---

(١) CF. Rupert von Schumacher and Hans Hummel, Vom Krieg Zwischen den Kriegen (Stuttgart, ١٩٣٧).

(٢) Karl Justrow, Der techNische Krieg, II (Berlin, ١٩٣٩) ١٣.

الترقي من الصفوف كان النظام العسكري في حكم الديكتاتورية الطغوائية لهتلر أكثر مساواة بين الأفراد عما كانت عليه الحال في حكم الإمبراطورية، ولقد خطا هتلر في هذه السبيل خطوات واسعة اتجهت إلى ما أطلق عليه أوزوالد سبنجلر «الاشتراكية البروسية»(١) مستخدمًا هذا اللون من الاشتراكية في دعم البناء الديمقراطي الطابع، الذي تحول إلى ديكتاتورية قامت على رغبة الدهماء وأصوات جماهير الشعب، وقد عمل هتلر في ضوء هذه الرغبة، لتحرير عمليات التدمير من أي مشاعر إنسانية، ولتضحية أي تقاليد في سبيل تحقيق الكفاية العسكرية، وبهذا جاء بالمساواة في المجتمع إلى مرتبة الصدارة،وهي مساواة بدئ التفكير فيها منذ أيام القرن الثامن عشر إلا أن تحقيقها تطلب قيام حركة سياسية شعبية جديدة.

* * *

وعندما أدخل نظام التجنيد الإقليمي(*) في بروسيا سنة ١٧٣٣، وضحت عدالة زيادة سعة القاعدة الاجتماعية للجيش نتيجة للجدل الطويل الذي قام حول ضرورة إلغاء عدم المساواة بين المجندين، ولقد أعلن تطبيق الخدمة العسكري العامة في بروسيا بقرار وزاري جاء فيه: «تلغى من الجيش بصدور هذا القرار كل الامتيازات التي تقوم على أساس الحالة الاجتماعية».

---

(١) Oswald Spengler, Preussenthum und Sozialismus (Berlin, ١٩١٩).

(*) وردت في الأصل Canton System of Recruitment

وتعني كلمة Canton: قسمًا سياسيًا من أقسام الدولة أي المنطقة، وعلى سبيل المثال فإن الجمهورية السويسرية تنقسم إلى عدة أقسام Cantons، والفعل نفسه في المعني الحرفي له يعني التقسيم إلى أقسام أو أجزاء، أو تحديد مناطق لإقامة الجنود.

«راجع معجم ويبستر ص٢١٥» ـ المترجم.

وفي سنة ١٨٠٨ كتب «بارثولد چورچ نيبوهر Niebuhr أن التجنيد العام سيوجد (مساواة يضيق بها الصديق الحقيقي للحرية) ذلك لأنها ـ أي المساواة ـ ستؤدي إلى(إضعاف معنويات الأمة، وإلى وحشية عامة، ثم إلى تدمير الحضارة وتحطيم الطبقات المتعلمة).

على أن التطورين الأساسيين الذين كان لهما الأثر الأكبر في تغيير البناء الاجتماعي للاقتصاد الألماني في هذه الحرب (يقصد الحرب العالمية الثانية) لم يناقشا في إفاضة قط قبل بدء الحرب(١)، فإن المبدأ الطليق العديم الرحمة لتحويل الأراضي المغزوة والشعوب المقهورة المغلوبة على أمرها إلى مستودع للعمال في خدمة الغازي المنتصر والتي انتهت ـ على ما تقول المصادر الألمانية نفسها ـ إلى إرغام اثني عشر مليونًا من الأجانب للهجرة إلى ألمانيا سنة ١٩٤٣ لم تعرض للنقاش في Wehrwirtschaft قبل سنة ١٩٣٩، ولم يجرؤ أي رجل من رجال الاقتصاد في ألمانيا أن يكشف عن احتمال تنكر الطبقات الألمانية الوسطى لكل الفضائل في حرب المستقبل(٢) .

---

(١) ناقش هنري وليم شبيجل هذا، وخرج بملاحظة قيمة هي أنه لم يجد أي اقتصادي أكاديمي ذي شهرة بين أولئك الذين أوجدوا هذا النظام الحديث، راجع بحثه الموسوم بعنوان:

(Wehrwirtscaft Economics of the Military state).

في المجلة الاقتصادية الأمريكية، المجلد ٣٠ لسنة ١٩٤٠ ص٧١٥ .

(٢) راجع لدراسة دور الطبقات الوسطى في اقتصاديات الحرب الشاملة من وجهة النظر الألمانية كتاب: The Fate of Small Business in Nazi Germany.

طبع واشنطون سنة ١٩٤٣ إعداد:

A. R. L. Gurland, Otto Kirchheimer and Frahz Neumann

للجنة مجلس الشيوخ الأمريكي المشكلة بخاصة لدراسة «مشكلات المؤسسات الأمريكية الصغري».

ويحتمل أن تكون مساهمة المثقفين الألمان في الكتابة عن الحرب النفسية قد بولغ فيها، وكانت مساهمة علماء النفس الألمان في الكتابة عن تطورات السلوك السياسي للجماهير أقل مما نعتقد، فنحن في الغالبية نظن أنهم كتبوا الكثير من المؤلفات عن هذا الموضوع، وتحتوي المؤلفات النازية التي كتبت عن الدعاية السياسية على القليل مما كان معروفًا منذ قرون للإخصائيين في الدعاية والإعلان.

على أن هذه المبالغة في تقدير مساهمة الألمان في الدعاية إنما ترجع للأحاديث الضافية الكثيرة التي صحبت وتبعت أعمال «الطابور الخامس» الألماني وأعطت الدعاية للمثقفين في الدول الديمقراطية فرصة لا مثيل لها لإيجاد ما يعتذر به عن الضعف العسكري الذي تردت فيه الديمقراطيات في فجر الحرب العالمية الثانية.

إن مكانة الدعاية تزدهر أو تخبو، وتعلو أو تهبط، وتزداد أو تنقص تبعًا للنجاح أو للفشل العسكريين، ولقد أدرك النازيون كزعماء وكقادة لحركات الجماهير أهمية الدعاية وتأثيرها بدرجة أكبر مما تفهم هذا زعماء ألمانيا الإمبراطورية في الحرب العالمية الأولى، ومع أن الألمان لم يوجدوا نظريات جديدة ولم يقدموا أصولاً حديثة إلا أنهم ولا شك قد أنفقوا الأموال الطائلة في الدعاية ومنحوها من اهتمامهم عناية لم تبذل في سبيلها من قبل.

ولكن عندما ننظر للتطبيق العملي للدعاية، فإننا نجد أن الأفضلية كانت في جانب الألمان أيام حكم القيصر أكثر مما كانت إلى جانب ألمانيا النازية في حكم هتلر، وعلى سبيل المثال فإن أي محاولة لتفتيت وحدة معسكر العدو مهما كان مصدرها ومهما كان العاملون لها تبدو بوضوح على

أنها وليدة آلة الدعاية الألمانية؛ ذلك لأن العالم كله يعرف بأن الدعاية الألمانية تتركز في سلطة واحدة، فأي دعاية مضادة للشيوعية يقال لها لتوها أنها حملة موجهة من الدكتور جوبلز، ولم تكن هذه هي الحال في ألمانيا القيصرية، بل قد يكون من الطريف أن نقارن هذا بحرية العمل التي توافرت للودندورف طوال الحرب العالمية الأولى، ففي يونيو سنة ١٩١٨ قدم الكولونيل هيفتن ممثل القيادة العليا في وزارة الخارجية للودندورف خطة حملة دعائية ضد البولشفية، هادفًا إلى تقوية حزب لانسداون الذي يدعو للسلم في بريطانيا.

ووافق لودندورف وبدأ العمل مستقلاً في وضوح عن الحكومة للحث على تكوين جبهة أوروبية متحدة ضد البولشفية(١).

لقد مكن النظام غير المركز للدعاية الألمانية في ذلك الوقت من القيام بمناورات في الحرب السياسية، وهو أمر لم تكن لتستطيعه الدعاية الألمانية في حكم النازية دون أن تكشف عن أصابعها.

* * *

إن فكرة لودندورف عن المركز السامي للقائد العسكري في الحرب الشاملة قد ووريت التراب معه، ففي الحرب العالمية الثانية كان القادة العسكريون الألمان تحت سيطرة الحزب الاشتراكي الذي يتولى زعامته ادولف هتلر الأونباشي السابق.

وكانت هذه السيطرة كبيرة إلى حد أن چورنـچ أشار في اجتماع عام في ٣٠ من يناير سنة ١٩٤٣ ـ بجرأة لم يكن يستطيعها ألماني قط أيام حكم الإمبراطور ـ وتحدث چورنـچ عن القائد العسكري الألماني الضعيف الذي

(١) Cf. Arthur Rosenberg, op. cit. pp. ٢١٠ ff.

تنحي مخليًا مكانه لهتلر عندما تقدم الفوهرر الصفوف ليتولى بنفسه الأمر في الجبهة الشرقية لوقف الاندفاع الروسي الخطير.

* * *

حديث المراجع

الفصل الثالث عشر

لودندورف

النظرية الألمانية للحرب الشاملة

بقلم هانز سبير

عرض لودندورف آراءه عن الحرب الشاملة في كتابه:

«Der Totale Krieg» طبع ميونخ سنة ١٩٣٥، وقد خلف وراءه سجلاً لتجاربه في الحرب والنتائج التي خرج بها من هذه التجارب في كتابيه:

Meine Kriegserinnerunger (Munich, ١٩١٩).

Kriegfuhrung und Politik (Berlin, ١٩٢٢).

وقد طبع الأول في طبعة باللغة الإنجليزية بعنوان:

My War Memories: Ludendorff's Own Story, August ١٩١٤.

.November ١٩١٨ (Nw York, ١٩١٩)

ويمكن أن نجد آراء لودندورف في الدين والجنس في كتيبه:

Friedrich der Grosseauf seinen Ludendorffs. Fiedrichs des Gossen Gedanken uber Religion. Aus seinen Werken (Munich ١٩٣٥).

ونجد دراسة طيبة لتفهم صلة لودندورف بالإشتراكية القومية في

السنوات الأولى للحركة في كتاب:

E. Ludendorf, Auf dem Weg zur Feldherrnhalle, Lebenserinnerungen aus der Zeit des ٩ November ١٩٢٣; mit Dokumenten in ٦ Anlagen (Munich, ١٩٣٨).

وقد صدرت كتيبات كثيرة لمهاجمة لودندورف أو للدفاع عنه، قد يكون أقواها، الكتيب الذي كتبه هانز دلبروك بعنوان:

Ludendorffs Selbstportrat (Berlin, ١٩٢٢).

وكان هذا ردًا على كتاب لودندورف:

Kriegfuhrung und Politik

على أننا نجد تفهمًا طيبًا لحياة لودندورف في كتاب:

Karl Tschuppik Ludendorff: the Tragedy of a Military Mind.

ترجمة W. H. Johnston وطبع ببوستون ـ نيويورك سنة ١٩٣٢ .

ولدراسة المسائل العسكرية العالمية في المدة التي سبقت الحرب العالمية الأولى يمكن الرجوع إلى:

The German Army (London, New York, ١٩٣٩).

R. Schmidt - Buckerburg, Das Militar- Kabinett der preussischen Konige und deutschen Kaiser (Berlin, ١٩٣٣).

Carl Schmitt, Staatsgefuge und Zusammenbruch des zweiten Reiches (Hamburg ١٩٣٤).

Arthur Rosenberg, Die Enstehung der deutschen Republik

(Berlin, ١٩٢٨).

ونجد مناقشة حوادث الجبهة الداخلية وضغط الحرب على هذه الجبهة في كتاب:

Albrecht Mendelssohn- Bartholdy, The War and German Society (New Haven, ١٩٣٧).

Frank P. Chambers, The War Behind the War, ١٩١٤ - ١٩١٨: A History of the Political and Civilian Fronts (New York, ١٩٣٩).

ونستطيع أن ندرس موقف اقتصاديات ألمانيا في الحرب في كتب السجلات:

Reichsarchiv, Der Weltkrieg ١٩١٤ bis ١٩١٨, Kriegsrustang und Kriefswirtschaft (Berlin, ١٩٣٠).

Reihstag: Untersuchungsausschuss: Die Ursachen des deutchen

Zusammenbrcks in Jahre ١٩١٨, (Berlin, ١٩٢٢).

R.H. Lutz, ed, The causes of the German Collapse in ١٩١٨.

رقم ٤ من مطبوعات مكتبة هوڤر للحرب طبع ستاندفورد سنة ١٩٣٤ .

وتعتبر مؤلفات Ernest Juenger كبيرة النفع لتفهم الدروس التي خرج بها الألمان أنفسهم من تجاربهم طوال السنوات ١٩١٤ ـ ١٩١٨، راجع كتابيه:

Die totale Mobilmachung (Berlin, ١٩٣١).

Der Arbeiter (Hamburg, ١٩٣٢).

والكتب التي صدرت عن الحرب الشاملة في ألمانيا النازية كثيرة يُرجع

بخاصة إلى:

Guido Fischer, Wehrwirtschaft (Leipzig, ١٩٣٦).

R. Von Schumacher and Hans Hummel, Vom Kriege.

zwischen den kriegen (Stuttgart, ١٩٣٧).

Kurt Hess, ed., Schriften zur Kriegswirtschaftlichen.

Forschung und Schulung, (and) Die Kriegswirtscha-

aftliche Gendanke (Hamburg, ١٩٣٥).

Hermann Franke, ed., Handbuch der newzeitlichen

Wehrwissenchaften (Leipzig, ١٩٣٦).

وقد نوقشت مسألة التقدم الفني وعلاقته بالحرب في إفاضة في كتاب:

Karl Justrow, Der technische Krieg, ٢ vols. (Berlin, ١٩٣٨ - ١٩٣٩).

كما نوقشت مسألة التعبئة الصناعية في كتاب:

Institutfur Konjunkturforschung, Industrielle Mobilmachung (Hamburg, ١٩٣٦).

وقد عني الـچيوبوليتيكيون بـ Wehrwirtschaft، راجع:

Karl Haushofer, Wehr - Geopolitik (Berlin, ١٩٣٢).

Ewald Banse, Raum und Volk im Weltkriege Gedanken.

Uber eine nationale Wehrlehre (Olenburg I. O., ١٩٣٢).

الذي ترجمه Alan Harris بعنوان (Germany Prepares)

طبع نيويورك سنة ١٩٣٤ .

ويمكن الرجوع إلى الكتب والدراسات التالية من ناحية عامة وهي:

B. Von Volkmann- leander, Soldaten oder Militars (Munich, ١٩٣٥).

Franz Neumann, Behemoth: the Structure and Practice of National Socialism (New York, ١٩٤٢).

Hans Herth, "The Nazi Party: its Leadership and Composition" American jouranl of Sociology, XLV (١٩٤٠).

Eric Voegelin, "Extended Strategy" Jouranl of Politics, II (١٩٤٠) ١٨٩ - ٢٠٠.

Albert T. Lautterbach. "Roots and Implications of the Idea of Military Society" Military Affairs, V (١٩٤١) ١ - ٢٠.

Hans Speier and Alfred Kahler, eds., War in Our Time (New York, ١٩٣٩).

راجع أيضًا المراجع المذكورة في الفصل الثامن (الكتاب الثاني) والتي ستجيء في الفصل السادس عشر (الكتاب الرابع).

الفصل الرابع عشر (*)

لينين ـ تروتسكي ـ ستالين

النظرية السوفيتية للحرب

بقلم إدوارد ميد ايرل

في كل انقلاب اجتماعي عنيف ـ كثورة نوفمبر سنة ١٩١٧ في روسيا ـ تذهب مع الريح كل النظريات والتنظيمات العسكرية، مثلها في هذا مثل التعاليم السياسية والطبقات الاجتماعية التي يلقى بها بعيدًا لا يعنى بها أحد، والفكرة في هذا ـ فيما يتعلق بالنظريات والتشكيلات العسكرية ـ أن الجيش يعتبر أنه كان وثيق الارتباط بالبناء الاجتماعي السابق، وأن الاستراتيـچية القومية تتبع الأطماع السياسية للنظام القديم الذي انتهى.

وكما ألغت الثورة الفرنسية الجيش الأرستقراطي الذي أوجدته حكومة البوربون وأوجدت بدلاً منه جموع المواطنين المقاتلين، ثم خاضت غمار الحرب تدعو إلى «الحرية والمساواة والإخاء»[١]، حطم «البولشفيك» الجيش المنبوذ الذي كونه القياصرة القدامى وكونوا جيشًا من الفلاحين والعمال؛ وكان ميلاد الجيش الأحمر في اليوم الثالث والعشرين من فبراير سنة ١٩١٨ .

(*) عندما كنت أعد هذا الفصل تلقيت معاونة كريمة قيمة في إعداده من الدكتور فيلكس جلبرت ومن مسز تشيبوفاريف مما يوجب عليَّ أن أتقدم لهما بالشكر وأعترف بما لكلٍ منهما من فضل. إدورد ميد ايرل.

(١) راجع الفصلين الثالث والرابع من الكتاب الأول.

وقد قصد البولشفيك من هذا الجيش الجديد أن يكون سلاحًا ودرعًا للجماهير، يستغل ويكد للدفاع عن الثورة، وأن يكون سبيل الإعداد لها داخل البلاد وخارجها، ولكن لم تلبث أن وضحت ـ مع مرور الأيام وضغط ظروف السياستين الداخلية والخارجية ـ الحاجة إلى إعادة النظر في طبيعة تكوين هذا الجيش الجديد وفي تخطيط أهدافه، وكانت النتيجة تحوله تدريجياً إلى هيئة قومية حقة.

كان الجيش وما زال طفل الثورة، ولكنه من جانب آخر هو أيضًا رمز الوطن، ***والواقع*** أن زعماء روسيا السوڤيتية اليوم ـ بعد تجربة ربع قرن كحكام دولة كبيرة ـ أقل اهتمامًا بالمعتقدات والمواصفات العسكرية التي شغلتهم في الأيام الأولى، وهم أقل اهتمامًا بها من اهتمامهم بالحقائق المرة عن الحرب، هذه الحقائق التي تتحكم في كل ما يختص بالجيوش الحديثة مهما كانت «الأيديولوچيات» التي يدين بها أفراد هذه الجيوش.

ومع أننا لا نستطيع أن نشك في أن معنويات الجيش الأحمر في الحرب ضد ألمانيا النازية تتفق في صورة ما مع الأيديولـچية الشيوعية ومع المجتمع المعدوم الطبقات في أرض السوڤيت، كما تتفق مع الطابع الجديد المتوافر بين كل أفراد الشعب الروسي طابع الولاء للوطن، إلا أنه لا يمكن أن يتضح كسب المعركة على أساس الروح المعنوية وحدها مهما كان ثقلها في ميزان الحرب، فالنصر يمكن أن يكتسب أيضًا بالمواد والعتاد، بالضبط والربط، بالمهارة التكتيكية للأفراد، بالمستوى العالي مستوى الاحتراف للضباط العظام وللضباط أركان الحرب ثم باتباع الأصول والمبادئ الاستراتيـچية

السليمة(*).

ولهذا كان من الضروري أن نبحث عن قوة المقاومة السوڤيتية للغزو الألماني في أعماق تربة أرض روسيا، وفي التقاليد التاريخية الروسية، كما نبحث عنها أيضًا في دينامائية الثورة البولشفية.

ـ ١ ـ

وكان لينين(**) عندما استولى على السلطة في بتروغراد «لينينجراد

(*) كانت هذه الفكرة في الواقع وليدة عصر متأخر، وما كان لبلشفي أن يتحدث عن الحرب والنصر والقومية، بل كان الحرب في سنة ١٩١٧ يشير دائمًا إلى انتصار اليابان سنة ١٩٠٤ بتحيز لأنه أوهن القيصرية، ولكن بعد سنة ١٩٣٤ بدأ الاتجاه يزداد نحو القومية المحلية، ومن ثم امتزجت الدولة السوڤيتية والفكرة السوڤيتية أي القومية والشيوعية لتكونا شيوعية قومية كتلة متماسكة، وأصبح أبطال روسيا القيصيرية مثل بطرس الأكبر وإيـڤان الرهيب أبطالًا للاتحاد السوڤيتي. وتبوأ القادة القيصريون مثل سوڤوروڤ مكانة رفيعة في كتب التاريخ التي أعيدت كتابتها ووقف ستالين غداة إعلان النصر على اليابان سنة ١٩٤٥ يقول: «لقد انتظرنا ـ نحن أبناء الجيل المكتهل ـ هذا اليوم أربعين عامًا .. وها هو قد حان». ص٢٥٤ الشيوعية نظريًا وعمليًا تأليف كاريوهنت.

(**) نيكولاي لينين، أصل اسمه حال مولده «ڤالديمير اليانوف» (١٨٧٠ ـ ١٩٢٤) قاد ثورة البولشفيك سنة ١٩١٧، تولي رياسة الوزارة في الاتحاد السوڤيتي ١٩١٨ ـ ١٩٢٤ .
وتطلق على العقائد والنظريات الشيوعية بعامة وعلى نظريته في ديكتاتورية «البروليتاريا» الطبقة العاملة الكادحة اسم Leninism، وقد اشتهر لينين بتحليله للامبريالية وتطور الماركسية، ويسمي من يتبع نظريات لينين Leninist .
وقد أطلق اسم «لينين» على منطقة من الاتحاد السوڤييتي في شمال غرب روسيا الأوروبية يبلغ تعداد سكانها ٦.٣٣٥.٠٠٠ والعاصمة لينجراد (سابقًا بطرسبرج أو بتروغراد) ميناء على خليج فنلنده وسكانها ٣.١٩١.٠٠٠ كما توجد مدينة باسم «لينينكان» في أرمينيا بمنطقة القوقاز يصل تعداد سكانها إلى ٦٨.٠٠٠ . معجم ويبستر ص٩٣٨ .

الآن» في سنة ١٩١٧ أبعد ما يكون عن أن يعتبر جاهلاً بالمسائل العسكرية والاستراتيـچية؛ وهو كدارس للاشتراكية ـ دراسته للقومية السياسية والإرهاب ونظام العمل النقابي على السواء ـ كان متفهمًا بقدر غير عادي لدور العنف والقوة المسلحة في كل المسائل البشرية؛ وكان لينين كآنجلز قد قرأ قول كلاوزيـڤتز المأثور: «الحرب تكملة للسياسة فقط مع استخدام وسائل أخرى»، ثم إنه ولا شك قد فكر فيه طويلاً ثم علق عليه باعتباره «أساسًا نظرياً لمعنى كل حرب»[١]، بل واعتقد لينين ـ إلى أبعد من هذا ـ بأن هناك علاقة وثيقة بين بناء الدولة ونظام الحكومة في جانب، وبين التنظيم العسكري وإدارة الحرب في جانب آخر.

وقد وصل لينين إلى حصيلة طيبة من المعرفة عن حقائق سياسة الحرب من دراسته لكتابات ماركس وآنجلز وغيرهما وكان قد حذر أن الحرب ليست عسكرية الطابع وحسب، بل إن لها طوابعها السياسية والسيكلوچية والاقتصادية أيضًا[٢] وآمن بأن الحرب والثورة يرتبطان معًا بعلاقة وثيقة وبخاصة عندما نرجع إلى كلمات ماركس، من أن الحرب يمكن أن تكون معوانًا على ميلاد الثورة[*].

---

(١) أعمال وكتابات ف. أ. لينين (الترجمة الانجليزية طبع نيويورك سنة ١٩٢٩) مجلد ١٨ صفحة ٢٢٤، راجع اهتمام لينين بدراسة النظريات العسكرية ووجهات نظره عن كلاوزيـڤتز في المقال الذي كتبه S. Rabinowitch الذي وسم بعنوان: War Questions in the Lenin- Magazine

في مجله "The Bolshevist" لسنة ١٩٣٠ الصفحات ٧٠ ـ ٧٩ .

وقد طبعت الحكومة السوڤييتية تعليقات لينين على نظريات كلاوزيـڤتز، وصدرت هذه الطبعة من موسكو سنة ١٩٣٣ .

(٢) راجع الفصل السابع ا لكتاب الثاني «ماركس وآنجلز».

(*) جاءت في الأصل كلمة "Midwife" في وصف الحرب، وتعني كلمة السيدة التي تعاون=

وظن لينين أنه كما عاب على حكومة نيقولا الثاني عدم الأهلية وعدم الكفاية مما أدى بها إلى الهزيمة في الحرب ضد اليابان، فإن الإمبراطورية الروسية يمكن أن تواجه مصيرًا أسوأ وأن تحطم بالهزيمة والثورة في حربها سنة ١٩١٤ ضد ألمانيا؛ ولكن كانت المسألة المحيرة بالنسبة له أن يجد الوسيلة لتحويل الحرب الاستعمارية إلى حرب أهلية ـ ولكنها ليست حربًا أهلية داخل حدود روسيا، بل إن تتجاوزها إلى حدود الأمم الأخرى، أي أن تكون ثورة اجتماعية واسعة النطاق بعيدة المدى(١).

وفي نفس الصورة نظر أتباع ماركس إلى كل حرب آملين أنها هي التي ستدفع إلى مسرح الحوادث بحكم الطبقات العاملة طبقات الكادحين في أبناء الشعب.

وكانت الحركة الثورية في روسيا قبل سنة ١٩١٧ حركة عنيفة نشطة لها طابعها العسكري، ولم تكن ككل الحركات الثورية التي حدثت في فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة حركة مسالمة تهدف إلى الحقوق البرلمانية؛ وكان لينين في الواقع لا يعطف كثيرًا على مثل هذه الوسائل السلمية، وذلك لأنه آمن بالاستيلاء عنوة على السلطة بوساطة العمال والفلاحين، وبإمكان إنشاء ديكتاتورية من جماهير الشعب، (ديكتاتورية البروليتاريا).

وقد ازدرى لينين أولئك الماركسيين الذين انقلبوا «مواطنين موالين»

=في عملية الوضع، ومن ثم كان الأستاذ ميد ايرل يقصد أن الحرب تعاون في مولد الثورة «المترجم».

(١) راجع «خطاب من ماركس» كتبه أيام أن كان بالنفي في سويسرة من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٧، وبعث به إلى صديق روسي بعد شهور قليلة من إعلان الحرب العالمية الأولى ـ نفس المرجع مجلد ١٨ ص٧٤ .

بعد سنة ١٩١٤ وعاونوا الحكومات المتعاقبة في تنفيذها لالتزاماتها بالنسبة للحرب، ولهذا فإنه لم يلبث بعد أن عاونته هذه الجماعات نفسها للقيام بثورة مارس سنة ١٩١٧ ـ أن بدأ يحطم النظام البرجوازي الذي كانت قد أوجدته، وقد قال بأن الهدف الأساسي للثورة تحطيم الرأسمالية كخطوة تمهيدية للوصول إلى السلم؛ «وكانت سياسته واستراتيـچيته، السياسة والاستراتيـچية اللتين جعلتا من أنصار البلشفية الحزب الوحيد في خضم فوضى السياسة الروسية من أبريل إلى أكتوبر سنة ١٩١٧ .

واللتين كانتا وحدهما كل ما يمكن نقل أغراض الثورة إلى الشعب»[١]، على أنه تبعًا لإيمانه بالقوة كوسيلة مضادة للمناورات البرلمانية فإنه استطاع الوصول إلى السلطة عن طريق الوسيلة المحببة للديكتاتوريين، وسيلة إحداث الانقلابات الفجائية لإسقاط الحكومات.

وواجه لينين الغزو الألماني بعد كسبه الجولة الأولى للحرب الأهلية في روسيا، ولم يكن من سبيل لاستئناف العمليات الحربية، كان الجيش الروسي قد دمر تمامًا، ويرجع هذا جزئياً إلى الدعاية الثورية التي تسربت إلى صفوفه طوال سنتين أو أكثر، والتي لم يكن من الميسور أن تقلب رأسًا على عقب بسرعة، وكما قال لورد بلفور في تاريخ متأخر بعد هذا:

«لا يمكن أن تقام دعامات الجيش على الكلمات الرقيقة اللينة، وإن كان من الممكن أن تسبب هذه الكلمات هدمه وتحطيمه.

لقد حقق البولشفيك نجاحًا كبيرًا بتحطيم روح الاقتتال في روسيا،

(١) «هارولد لاسكي» «ڤالديمير أو ليانوف» (نيكولاي لينين) في دائرة معارف العلوم الاجتماعية طبعة سنة ١٩٣٧ .

ولكن من الصعب إعادة هذه الروح إلى الحياة بنفس الطريقة»(١) .

وليس هناك من يعرف هذا بأحسن مما يعرفه لينين فهو من البداية كان يعارض متابعة الحرب ضد ألمانيا بالوسائل العسكرية مهما كانت الظروف والملابسات، وكان من جانب آخر يؤمن بأن الدبلوماسية والحرب السيكلوچية تمكنان من خوض غمار الحرب بنجاح ضد دول الوسط(*) وضد دول الحلفاء على السواء، وبذلك فإنه يستطيع أن يحقق الغرضين التوأمين:

* غرض الدفاع عن روسيا الثورية.

* وغرض تحويل الحرب الدولية إلى حرب أوروبية أهلية.

وقد آمن لينين كما آمن مساعدوه وأملوا في أنه كما استطاعت الدعاية تحطيم الضبط والربط في الجيش الروسي فمن الممكن إضعاف معنويات جيوش الرأسمالية والإمبريالية الاستعمارية على السواء.

كان يعرف أن أعداء روسيا (هم) حكومات أوروبا وأمريكا، ومن الممكن أن تهزم هذه الحكومات بوساطة ثورات الجماهير ثورات الطبقات العاملة في بلادها، لا بوساطة أي قوات عسكرية يمكن للروسيا ـ مهما أوتيت من قوة ـ أن تحشدها وأن تعدها؛ وستسطيع روسيا القيام بالهجوم

---

(١) Foreign Relations of the United States ١٩١٩, Russia I (Washington ١٩٣١), ٣٩٣.

(*) دول الوسط Central Powers أطلق هذا الاصطلاح في الحرب العالمية الأولى على ألمانيا والنمسا والمجر، وكانت تضم إليها حليفتاهما تركيا وبلغاريا، وقد كانت إيطاليا ضمن دول الوسط ولكنها بقيت على الحياد في بدء الحرب العالمية الأولى ثم انضمت للحلفاء ضد حليفتيها بالأمس في إبريل سنة ١٩١٥ بعد أن عدلت حدودها في ليبيا بمنحها منطقة صحراوية واسعة.

ولكنه هجوم بالكلمات وبالضغط على الأعصاب، ويكون هذا الهجوم هو الدور الإيجابي العملي للدعاية السوڤيتية التي جربت من قبل والتي كان «البولشفيك» سادة فيها منذ بعيد.

وقد وجه هذا الهجوم في الواقع ضد حلفاء روسيا وضد خصومها على السواء، ووصف «البولشفيك» الحرب العالمية الأولى بأنها حرب استعمارية، حرب للدفاع عن النظام الرأسمالي، وقد قالوا بأنه يجب ألا تتوقع آمال كبار في المفاوضات الدبلوماسية بطابعها المعروف وأنه من الأفضل الاتصال بالشعوب مباشرة من وراء ظهور الحكومات، وقد نشرت المعاهدات السرية التي عقدت مع الحلفاء كدليل على التفكير الإمبريالي للحلفاء؛ وقد كتب لينين في منتصف سبتمبر سنة ١٩١٧: «إن هذه الكلمات التي يتغنون بها زاعمين عزوفهم عن تملك أرض جديدة قد وضعت كأساس للصلح، ولكن الصلح على هذه الأسس لن يتوافر فيه الكسب الذي يرضي الرأسماليين، ولكنها ولا شك ستقابل بترحاب حار من الجماهير، وستثير موجة من الحماسة في العالم كله، وتثير المشاعر ضد الحرب المدمرة التي اصطنعها البرجوازيون، ومن ثم يمكن تحقيق الهدنة كما يمكن إيجاد فرصة إجراء مفاوضات الصلح».

وقد التزم لينين هذا البرنامج إثر توليه السلطة، وقد قام هذا البرنامج على أساس ما جاء في تعاليمه وتوجيهاته من أن: «الثورة ستقوم في كل الدول المقاتلة»(١) .

---

(١) Collected Works, XXI, ٢٥٩ "The Aims of Revolution"

راجع أيضًا كتاب C. K. Cumming and W. W. pettit

"Russiab-American Relations" طبع نيويورك سنة ١٩٢٠ الصفحات ٤٤، ٤٥، وكتاب =

ولم يحقق لينين إلا القليل من النجاح ضد الحلفاء، ويرجع هذا جزئياً إلى ويدرو ويلسون(*) فقد كان هو أيضًا بدوره سيدًا من سادة الحرب النفسية، فإن خطابه في الكونجرس يوم ٨ من يناير سنة ١٩١٨ والذي تضمن الشروط الأربعة عشرة كأساس للصلح قد اقتطع الكثير من المشروع السوڤيتي عن قصد، وقد تقبل الحلفاء والألمان شروط ويلسون ومشروعه أكثر من تقبلهم للمشروع الروسي؛ ***والواقع*** أن لينين كان صائب التقدير للسيكلوچية الروسية ولكنه لم يكن ليستطيع تفهم العقلية الغربية والعقلية الأمريكية، فإن العقلية الغربية ـ الأمريكية كانت تفتقر إلى إدراك العقيدة السلاڤية، كما أن فشلها في تقبل الفصاحة المتكلفة للكلمات التي صيغت فيها «الماركسية» جعلها تفشل أيضًا في الاستجابة لعبقرية لينين الثورية التي لا شك فيها(١)، وبذلك كان «للرعد القاصف» الذي جاءت به النقاط الأربع عشرة التي قدمها ويلسون تأثيرًا عملياً أكبر من التأثير الذي كان «للبرق» الذي جاءت به شعارات لينين الثورية.

لقد كان في هجوم لينين الدبلوماسي والسيكلوچـي على دول الوسط عدالة، وفيه قصاص عادل، فلقد سمحت الحكومة الألمانية للينين بعبور

=Vohn Reed بعنوان: Ten Days That Shook the World الصفحات ١٢٥ – ١٣٠.

(*) توماس ويدرو ويلسون: الرئيس الثامن والعشرون للولايات المتحدة الأمريكية تولى الرياسة (١٩١٣ ـ ١٩٢١) منح جائزة نوبل للسلام سنة ١٩١٩، ولكن لم تلبث الولايات المتحدة بضغط الكونجرس أن نفضت يديها من مشكلات أوروبا ولم تنضم لعصبة الأمم المنظمة العالمية التي كانت أصلًا من وحي ويلسون. «المترجم».

(١) John Wheeler- Bennett, Brest-Litovk, The Forgotten Peace, London, ١٩٣٨, p. ١٣٨.

ويعتبر كتاب مستر ويلز كتاب لا مثيل له في تفهم حرب لينين السيكلوچية ضد باقي دول أوروبا وبخاصة ضد ألمانيا، وكانت خطبة ويلسون يوم ٨ من يناير تستهدف الرد على الدعاية السوڤيتية، نفس المرجع ص١٤٤ ـ ١٤٥ .

ألمانيا من سويسرة إلى روسيا سنة ١٩١٧ بأمل أن يحطم بنجاح ما بقي من معنويات للجيش الروسي؛ وقد قال القائد الألماني في روسيا يوم ذاك والذي كان فيما بعد من أكبر خصوم البولشفية: «من الطبيعي أننا حاولنا استخدام الدعاية لزيادة عوامل التفكك التي أوجدتها الثورة الروسية داخل بناء الجيش، وكما أنه كان من حقنا أن نقذف مواقعهم بالقنابل وأن نطلق الغاز السام على جنودهم، فلنا كل الحق في استخدام الدعاية لتحطيم معنوياتهم، إنني لا أعرف شخصياً شيئًا عن رحلة لينين عبر الأراضي الألمانية، ولو كنت قد سئلت عن هذا لما اعترضت»[١].

وكان لينين يحاول إذ ذاك أن يفعل في صفوف الجيش الألماني، بل وفي الحكومة الألمانية ما فعل من قبل في صفوف الجيش الروسي، وقد حقق بعض النجاح، ولكنه لم يكن واضحًا مفهومًا حتى تم انهيار ألمانيا بعد عام كامل.

وقد استخدم (البولشفيك) البلاشفة هدنة بريست ـ ليتوڤسك[*] كوسيلة علنية للدعاية لآرائهم، ومن ثم فقد حولوا العلاقات الدبلوماسية مع العدو إلى حصان تروادة[**] وفي طوال المفاوضات استخدمت «وزارة»

---

(١) Major General Max Hoffman, War Diaries and Other Papers (English translation, ٢ Vols. London, ١٩٢٩), II, ١٧٦ – ١٧٧.

(*) بريست ـ ليتوڤسك: مدينة في روسيا البيضا وسكانها ٥١.٠٠٠، وقعت بها معاهدة سنة ١٩١٨ بين روسيا البولشفية ودول الوسط، وفقدت روسيا نتيجة لها أكرانيا وبولندة ولتوانيا وولايات البلطيق وفنلندة والقوقاز «معجم ويبستر ص١٨٠». «المترجم».

(**) حصان تروادة، حصان خشبي كبير تركه الجنود الإغريق عند أبواب تروادة، فلما أدخله السكان إلى داخل مدينتهم الحصينة خرج منه الجنود ليلًا وفتحوا أبواب المدينة لجيش=

الخارجية التي يتولاها ترتسكي، وإدارة الصحافة برياسة كارل راديك وإدارة الدعاية الثورية الدولية التي كان يتولاها بوريس رينشتين، استخدمت ثلاثتها غاية ما توافر لها من جهد ضد الجيش الألماني، وكانت الصحف التي يصدرها البلاشفة باللغة الألمانية مثل Die Fackel (الشعلة) Der Volker friede (سلم الشعب) توزع مئات الألوف من النسخ بين صفوف جيوش دول الوسط، مع أن الروس كانوا يمتهنون شروط ويلسون الأربعة عشر فإنهم قد وزعوا أكثر من مليون نسخة من خطبة ويلسون مترجمة إلى اللغة الألمانية.

وكان الأسرى الألمان في روسيا قد سمموا بالعقيدة الشيوعية إلى حد أنهم عند إعادتهم إلى بلادهم كانت القيادة الألمانية تحتجزهم لشهر كامل في معسكرات «للحجر السياسي» وتزودهم بدراسات عن حب الوطن، ومع هذا فإنهم عادوا إلى ألمانيا «يحملون جراثيم الدعاية للثورة التي لقنت لهم في معسكرات اعتقالهم في روسيا منذ قيام ثورة نوفمبر، لقد احتسى الجنود كأس خمر التحريض الثوري حتى الثمالة، لقد رأوا الجيش الروسي يذوب أمام أعينهم، وهم الآن يعودون إلى أرض الوطن ليتحدثوا بلغة جديدة عن «السلم» و «الخبز». وقد قال الـجنرال هوڤمان إن الجيش الألماني في روسيا «قد ثقل بالآراء البولشفية» إلى حد أنه لم يجرؤ على نقل بعض فرقه إلى الجبهة الغربية[1].

=الإغريق الذي دمر المدينة ويستخدم للدلالة على التسرب داخل مناطق العدو الحصينة خدعة بوساطة العملاء. «المترجم».

(١) ويلر بنييف ـ نفس المرجع: ص٩٠ ـ ٩٥و ١٤٧و ٣٥١و ٣٥٢، راجع الهامش رقم ٨ .

وكان لينين وتروتسكي(*) يعرفان أنهما من ناحية الاصطلاح السياسي وفي ضوء الدبلوماسية التقليدية قد تنكبا في الهزيمة بمعاهدة بريست ـ ليتوڤيسك، وقد عرفا بأنهما ـ بالرغم من الحديث عن «لا تعويضات» و «لا نزول عن أرض» ـ يجب أن ينزلا عن أرض لألمانيا، ولكنهما في الواقع كانا يلعبان دورًا أهم، وكانا يستهدفان ما هو أكبر وأعظم من الأرض ومن الحدود.

وقد كتب تروتسكي إلى العمال الأمريكان: «ليس باشتراكي من لا يفهم أن الانتصار على البرجوازية قد يتطلب خسارة الأرض ومواجهة الهزيمة، وليس باشتراكي من لا يضحي بوطنه في سبيل انتصار الثورة الاشتراكية».

ومع هذا فإن ذلك الانتصار يتطلب الوقت، يتطلب الوقت ليستقر النظام البولشفي الوليد في روسيا، كما يتطلب الوقت حتى تحقق الدعاية الثورية دورها بين الجنود والعمال الألمان، ومن ثم فإن تروتسكي ـ الذي كان قد تولى رياسة الوفد الروسي في بريست ليتوڤيسك في يناير بعد أن كان المؤتمر قد سلخ شهرًا كاملاً من عمله ـ راح يعمل باستراتيـچية إطالة الوقت واستطاع أن يمد من المفاوضات لستة أسابيع طويلة، وراح يداور تاركًا المبعوثين الألمان يناقشون الموضوعات الكثيرة خارج نطاق المباحثات، (وغطى النقاش الأرض من نهر الدان إلى بير السبع، ومن الصين إلى بيرو،

(*) تروتسكي، ليون تروتسكي ولد (ليـڤ داڤيودڤيتش برونشتين) (١٨٧٠ ـ ١٩٤٠)، كان قومسيير الحرب (وزير الحربية) ١٩١٨ ـ ١٩٢٥ نفي من روسيا سنة ١٩٢٥ وقتل اغتيالًا سنة ١٩٤٠ يطلق على العقيدة السياسية التي كان يدعو لها:
Trotskyism ويقال لأنصاره Trotskyite

وتعرض لموضوعات غريبة مثل مدى استقلال نظام حيدر أباد تحت التاج البريطاني وسلطات المحكمة العليا للولايات المتحدة)[١] .

ولا يمكن أن يكون الجدل بديلاً للقوة العسكرية، ومع هذا فقد حقق تروتسكي نجاحًا له خطره وإن كان في الواقع نجاحًا محدودًا؛ فقد كانت القيادة الألمانية بسبب الهجوم الحاسم الذي تواجهه في الغرب أحوج ما تكون إلى الأمن والوقاية في الشرق، وهي لا تستطيع أن تحقق هذا إلا بالصلح وإلا بالقضاء على البقية الباقية من القوات العسكرية الروسية.

وبالإضافة إلى هذا فإن الـچنرال هوفمان كان قد اعتزم أن يضع حدًّا لهذا الانهيار المعنوي الذي يتعرض له الجنود بوساطة الدعاية البولشفية، وفي أول فبراير أوضح هندنبرج ولودندورف وهوفمان للسلطات المدنية الألمانية في برلين.

وفي بريست ليتوڤيسك أنه لا سبيل إلى مصانعة الروس لأبعد من هذا، وأنه يجب أن يوجه لتروتسكي إنذار قاطع، فإما أن يوافق على الشروط الألمانية، وإما أن تبدأ العمليات الحربية فورًا.

فإذا رفضت الحكومة القائمة في بتروغراد توقيع شروط الصلح المملاة عليها وجب أن يقوم الجيش الألماني بغزو روسيا وطرد البولشفيك من البلاد وإقامة حكومة روسية أخرى توقع معاهدة الصلح.

وكان لينين في أثناء هذا يعيد دراسة استراتيـچيته، استراتيـچية «الثورة البرقية» Blitz Revolution في ألمانيا والنمسا والمجر، وهي الاستراتيـچية التي وضعت على أساسها التخطيطات المقدرة من قبل

---

(١) نفس المرجع ص١١٦و ١٥٨ .

للسياسة البلشفية وإن كانت قد فشلت في تحقيق هدفها، وقد انتهى لينين مضطرًّا ـ بعد تردد طويل ـ إلى أن «حزب الحرب» الحزب الذي يدعو للحرب في ألمانيا له اليد العليا في البلاد، وأن الثورة لو جاءت إلى وسط أوروبا فستجيء متأخرة جدًّا، مما لا يمكن معه أن تمنع غزو الألمان لأراضي روسيا.

ومع وصول الجيش الروسي إلى حال لا يستطيع معها القيام بمقاومة مؤثرة، ومن ثم فإن كل نجاح حققته الثورة الروسية سيضيع بفعل الأسلحة الألمانية، «وستكون المخاطرة بتعريض مستقبل الثورة الاشتراكية للخطر على أساس احتمال أو فرصة قيام ثورة في ألمانيا في تاريخ معين، ستكون سياسة سيئة خاطئة؛ وقد أخبر لينين الزعماء البولشفيك في ٢٠ من يناير سنة ١٩١٨: «لا يحق لنا أن نعتمد على الفرص»، فالسوڤيت يحتاجون الوقت للانتعاش الاقتصادي ولإعداد جيش، ثم إن «تشكيل جيش اشتراكي نواته الحرس الأحمر قد بدأ لتوه، ومن ثم فإنه مع هذا الطابع الديمقراطي للجيش ستكون أي محاولة لخوض غمار حرب أخرى ضد رغبة غالبية الجنود محاولة لها نتائجها الخطيرة، إننا في حاجة إلى شهر حتى يتم إعداد جيش يدين بالمبادئ الاشتراكية».

وهكذا يبدو بوضوح أن روسيا لم تكن في وضع يمكنها من إثارة حرب ثورية، ولهذا فإنه لوقاية الثورة الروسية كان من الضروري عقد معاهدة مع ألمانيا مهما كان في هذا من مهانة وإذلال، أي أن روسيا ـ في إيجاز ـ يجب أن تنفذ عملية انسحاب استراتيـچية، وقد أجاب لينين على صيحات زملائه الذين وصفوا هذه المعاهدة بأنها عملية سلب واغتصاب من جانب ألمانيا بأنه لا يسره أن يحصل على سلم فيه ولاء وإخلاص ووفاء من جانب



لينين (١٨٧٠ ـ ١٩٢٤)

الألمان حتى لو ضمن هذا[١] .

وكان لينين مؤمنًا بالسياسة الواقعية، وكان الصلح في رأيه ليس نهاية في حد ذاته، بل على النقيض كان يعتبره كالحرب آلة للسياسة، وفي ضوء هذا كان من الواضح أن روسيا تحتاج السلم لدعم الثورة وإرساء قواعدها، وليس من الحكمة الإضرار بالثورة بآمال مبهمة تستند إلى احتمال قيام الثورة في بلاد أخرى.

ورضي لينين بعد تردد طويل بتجربة خطة تروتسكي التي تقول: «لا سلم ولا حرب مع ألمانيا»، ولقد اعتبر لينين هذا الموقف عملاً خطرًا، ونظر إليه على أنه «موقف سياسي دولي خطير».

وكان لينين محقًّا في هذا؛ لأن الألمان بمجرد أن تيقنوا مما أسماه الـچنرال هوفمان « إجراء لم يعرف من قبل» ـ، أي عدم الرغبة في السلم مع عدم الرغبة في الحرب في وقت واحد، تقدموا في أراضي روسيا إلى المدى الذي هدد استقلال روسيا كما هدد كيان الثورة.

وهنا أرغم البولشفيك في الثالث من مارس سنة ١٩١٨ على توقيع معاهدة بريست ليتوڤيسك التي فقدت بها روسيا ٣٤ ٪ من سكانها و ٣٢ ٪ من أراضيها الزراعية و ٥٤ ٪ من صناعاتها و ٨٠ ٪ من مناجم الفحم بها[٢] .

---

(١) "Lenih's Twentyone Theses for Peace"

في جريدة «براڤدا» Pravda عدد ٢٤ من فبراير سنة ١٩١٨، الترجمة الانجليزية في كتاب:

James Bunyan ahd H. H. Theses The Bolshevik Revolution, ١٩١٧ - ١٩١٨: Documents and Materials (Stahford, California, ١٩٣٤), pp. ٥٠٠- ٥٠٥.

وقد أخذ اصطلاح «الثورة البرقية» Blitz Revolution من كتاب:

T. A. Taracouzio, War and Peace in Soviet Diplomacy (Cambridge Mass., ١٩٤٠), Chap. III.

(٢) Foreign Relations of the United States op. cit., p. ٤٩٠.

ويجب أن يلاحظ أن هذه التسوية الضارة قد أزيلت كل آثارها لا بأسلحة السوڤيت بل بوساطة الحلفاء عندما تمت الهدنة في ١١ من نوفمبر سنة ١٩١٨ ثم نتيجة لمعاهدة ڤرسايل[١] .

وكان لمسرحية تروتسكي في بريست ليتوڤيسك كل ما كان لينين يخشاه، إلا أنها علمت البولشفيك درسًا، ذلك أنهم قد وضعوا في استراتيـچيتهم بعد ذلك اتجاهًا بين الحرب والسلم دون إغفال ما يمكن مواجهته من أخطار وما يمكن تحقيقه من كسب في الأمرين معًا[٢] .

ولكن لينين كان قد واجه الواقع وأدرك هذه الحقائق في تاريخ سابق لهذا، فهو قد حذر زملاءه قبل توقيع معاهدة بريست ليتوڤيسك بأسبوعين قائلاً: «إنكم لا تستطيعون أن تهزلوا بالحرب» فإن روسيا لو كانت تقصد حقًّا خوض غمار الحرب لما كان لها أن تسرح جيوشها.

وبعد خمسة أيام؛ أي في الثالث والعشرين من فبراير، قال لهم: «لقد حان الوقت لنضع حدًّا لهذه الجمل الثورية وأن نبدأ العمل الجدي فإذا لم يحدث هذا فإنني أستقيل من الحكومة.

إننا لكي نخوض حربًا ثورية فمن الضروري أن يكون لدينا الجيش الثوري الذي لا يتوافر لنا الآن...»[٣] .

ولقد ولد الجيش الأحمر نتيجة لهذه الكلمات، إن روسيا السوڤيتية لم تنزل قط عن إثارة الحرب بكل وسيلة ممكنة ـ سياسية، اقتصادية، نفسية وعسكرية ـ ولكنها بعد بريست ليتوڤسك لم تنس قط التجربة القاسية التي

(١) ألغي السوفييت معاهدة بريست ليتوڤسك في ١٣ من نوفمبر سنة ١٩١٨ .

(٢) Taracouzo op. cit. p. ٢٨.

(٣) Bunyan and Fisher, op. cit. pp. ٥١٢ - ٥١٣, ٥١٩.

واجهتها في فبراير ومارس سنة ١٩١٨، والتي أوضحت أنه بدون القوات المسلحة لا تحقق الوسائل الأخرى للحرب إلا النجاح الباهت الذي لا أثر له.

ولكن لينين لم يعتقد أن حملة بريست ليتوڤيسك بالحرب السياسية والنفسية قد ذهبت سدى، فعلى ما قال لمندوب بريطاني غداة توقيع المعاهدة: «إن هذه الحرب ستسوى في المؤخرة لا في الخنادق، ونتيجة لهذا الصلح الذي يقوم على النهب والسرقة اضطرت ألمانيا لأن تبقى في الميدان الشرقي قوات أكثر ـ لا أقل ـ مما كان لها فيه.

أما بالنسبة لما يقال من أنها ستستطيع الحصول على كميات أكبر من التموين من روسيا فتستطيع أن تطمئن؛ لأن المقاومة السلبية سلاح أكثر خطورة من الجيش الذي لا يستطيع القتال»[١] .

وفي الخطب الفياضة الضافية التي دافع فيها لينين عن التصديق على معاهدة بريست ليتوڤيسك حذر مستمعيه من أن التجارب المماثلة يجب أن لا تتكرر ثانية، «فلنحذر من أن نكون عبيدًا لكلماتنا، إن الحروب اليوم لا تكسب بالتحمس بقدر ما تكسب بالأفضلية أو السيادة الفنية»، فالتسوية مع الألمان يجب أن تعتبر نهضة قومية مثلها مثل انتعاش الألمان بعد الإذلال الذي واجهته بروسيا على أيدي نابليون، لقد أعطت بريست ليتوڤسك للروس فرصة للتنفس، وفي أثناء هذه الفرصة يمكن أن توطد الثورة.

وتكون هذه الفترة فترة هدنة تستمر طوالها الحرب ضد ألمانيا

(١) Bruce Lockhart, Memories of a British Agent (London ١٩٣٢) pp. ٢٣٩ – ٢٤٠.

الإمبراطورية بوسائل ثورية[١] .

ولكن فترة التنفس هذه لم تستكمل مادياتها ولم تطل فلم يكد الحبر الذي كتبت به معاهدة بريست ليتوڤسك يجف حتى واجه النظام السوڤيتي تدخلاً أجنبياً وحربًا أهلية في جبهات تتوزع من البلطيق إلى البحر الأسود ومن مورمانسك واركانجل إلى ڤـلاديـڤوستك، واستمرت الحرب لأكثر من سنتين وهددت ليس فقط بالقضاء على الثورة بل وبتمزيق الإمبراطورية الروسية تمزيقًا كاملاً.

وإذا كانت الثورة الروسية قد استطاعت النجاة فإن هذا كان معجزة ترجع جزئياً ـ على الأقل ـ إلى إصرار البولشفيك على متابعة الكفاح للبقاء، الكفاح بالسيف وبالدعاية، واستمرت قدمًا عملية تسليح الثورة، وأتت ثمارها عندما شقت فرق البانزر النازية طريقها متعمقة في الأراضي الروسية سنة ١٩٤١ .

وقد حذر الزعماء السوڤيت باستمرار منذ أيام لينين من أن تجربة التدخل الأجنبي ربما تتكرر، وأن الحرب بين الوطن الاشتراكي وبين الدول الرأسمالية أو الفاشية يجب توقعها والتأهب لها،وجاء في بيان المؤتمر العالمي السادس للحزب الشيوعي سنة ١٩٢٨: «لقد أثبتت الثورة البلشفية لكل شيوعي أمين أن الحاجة ماسة لتسليح الطبقة العاملة الكادحة، وأن واجب كل مواطن في الاتحاد السوڤيتي كمحارب للدفاع عن الاشتراكية أن يعد

(١) Wheeler Bennett نفس المرجع ص٢٦٠و ٤٠٩ ـ ٤٢٦، فقد نصت المعاهدة على وقف الدعاية الروسية في ألمانيا، ولكن الروس لم يظهروا أية نوايا لاتباع هذا إلا بما يمكن أن نصفه (بالنوايا السيئة).

العدة لمثل هذه الحرب إعدادًا سياسياً واقتصادياً وعسكرياً، وأن يعمل لتقوية الجيش الأحمر، وسلاح القوة للطبقة العاملة الكادحة، وأن يدرب الجماهير العاملة في غالبيتها على الفن العسكري»(١) .

ـ ٢ ـ

وكانت فترة التدخل الأجنبي والحرب الأهلية المدرسة العظيمة في الشئون العسكرية للاتحاد السوڤيتي، فمن هذه المدرسة خرج الجيش الأحمر، صحيح أنه أعد على عجل ولكنه مع هذا كان النواة لمنشأة عسكرية في المستقبل، ومن هذه المدرسة أيضًا خرجت جماعة من المدنيين فيها تروتسكي، فرونزي، تيموشنكو، فورشيلوڤ، وستالين، وكان لهذه الجماعة دور كبير لا في تنظيم الجيش وخوض غمار القتال فحسب، بل وفي تخطيط الاستراتيـچية الروسية في السياسة العالمية؛ وخرج كذلك من الحروب الأهلية بعض أعضاء الجيش الإمبراطوري القدامى وبخاصة توخاشـڤسكي Tukhachovsky وشابوشنيكوڤ Shaposhnikov، وكان لهؤلاء العسكريين القدامى أن يكتسبوا شهرة لأنفسهم في ظلال العلم الأحمر للاتحاد السوڤيتي، وأخيرًا فإن هذه الحروب قد دلت على أن الدعاية الثورية مهما كانت نافعة وناجحة فإنها لا تستطيع في ذاتها أن تكسب انتصارات عسكرية.

وبلغت الحرب بين البولشفيك وبين مختلف جيوش روسيا البيضاء ذروتها في خريف سنة ١٩١٩ وشتاء سنة ١٩٢٠، وتقاطرت العمليات الهجومية ضد موسكو من مختلف الاتجاهات، وبدا لوقت ما أنه من المستحيل أن

---

(١) نقله Taracouzio نفس المرجع ص٢٧١ .

يستطيع النظام الشيوعي البقاء، ولكن لم يلبث فرونزي أن أوقف تقدم كولتشاك Kolechak الاكتساحي الذي قطع به الأرض من قاعدته في سيبيريا حتى اقترب من مشارف العاصمة ثم هزمه واضطره للتقهقر عبر الأورال من جديد، وأوقفت الدفاعات السريعة التي أعدها عمال «بتروغراد» تقدم يودنيتش Yudenitch من ولايات البلطيق، ولكن كان أخطر هذه العمليات الهجومية العمليات التي قام بها جيش دنيكين Denikin في الجنوب والذي تمكنت وحداته من اختراق دفاعات البولشفيك عند ڤورونزه وفيما وراء أورال قبل أن تتوقف، وقد عطل من تقدم دينكين الحصار الذي قاومته تزاريتسين Tsaristyn (ستالينجراد الآن) والتي عرفت يوم ذاك باسم ڤردون الحرب الأهلية، وكانت دونها شك ڤردون الحرب العالمية الثانية في القتال ضد ألمانيا النازية.

وفي تزاريتسين ـ على ما تقول سجلات التاريخ الرسمي للحرب الأهلية ـ كان ستالين وڤورشيلوف وبوديني يحثون المدافعين على الثبات بالرغم مما يتكبدونه من خسائر، واستطاع المدافعون أن يرهقوا قوات دينيكين حتى بدا بوضوح أن لا أمل في إسقاط النظام البلشفي.

ولم تتوقف الحرب مع بولنده إلا بعد عام كامل عندما أوقف مكسيم ڤـيـچان(*) ـ الذي أعارته فرنسا لبولنده ليتولى قيادة قواتها ضد الروس ـ تقدم الروس عند أبواب وارسو؛ وفي ربيع سنة ١٩٢١ كان البولشفيك قد حققوا سيطرة لا منازع لها على روسيا، وكان تدخل الحلفاء قد انتهى، وكانت العلاقات السلمية مع جيران السوڤيت قد قامت وتوطدت.

(*) مكسيم ڤـيـچان (١٨٦٧ ـ) القائد العام للقوات الفرنسية عند الاستسلام لألمانيا في يونيو سنة ١٩٤٠ .



الجبهات في صيف سنة ١٩١٩

على أنه لما كانت الحرب الأهلية حرب طبقات، وكانت وليدة الحقد والكراهية التي تولدت لأجيال[1] في قلوب العمال والفلاحين، وكان أفراد الطبقة الوسطى والأرستقراطيين يقاتلون في الواقع من أجل بقائهم، فإن الحرب كانت قتالاً عنيفًا مليئًا بالوحشية ولكنها مع هذا لا يمكن أن تقارن بالحرب العالمية الأولى من ناحية تعداد القوات المشتركة فيها ولا ضغط القتال، ولا من ناحية طابع العمليات الحربية والاستراتيـچية البعيدة المدى، وفضلاً عن هذا، كانت الحرب الأهلية ـ على ما قال ونستون تشرشل ـ حربًا غريبة، حرب مناطق فسيحة ضاعت فيها جيوش تتكون من مئات الألوف؛ كانت الجيوش تزحف متقدمة ثم تتوقف وتتوزع وتذوب وتتبخر، هي حرب لا معارك فيها، مجرد إغارات ومذابح. وكنتيجة لهذا كانت مناطق فسيحة تصل مساحتها إلى مساحة بريطانيا أو فرنسا تتبادلها الأيدي جيئة وذهابًا، حرب تمثل أعلامًا على خريطة كبيرة، هي خطوط أمامية وستار «سجف» من الخيالة، ويقطع الفرسان مئات الأميال في اندفاع واحد بلا هدف وبلا نتيجة، فهي حرب قليلة الحماسة كثيرة المذابح لا يعرف الرحمة من خاضوا غمارها، وكل من يتقدم يجد أنه من السهل أن يتابع تقدمه، وكل من اضطر للتقهقر وجد أنه من الصعب أن يتوقف، وهي على الورق تبدو مماثلة للحرب العالمية الأولى في الميدانين الشرقي والغربي ولكنها في الحقيقة كانت أقرب إلى صورة الشبح، كان كولتشاك في البداية ثم من بعده دنيكين، كان التقدم الذي قيل له عمليات هجومية يغطي مناطق فسيحة، وكلما امتد التقدم للأمام كلما اتسعت الجبهة ووضح أن هذه السعة تسبب ترقيق القوة

(١) W. H. Chamberlin, The Russian Revolution, ١٩١٧ - ١٩٢١ (٢ vols, New York, ١٩٣٥), II ٣٣٥.

المهاجمة حتى وضح أن التقدم سيستمر حتى يكون للمهاجمين جندي واحد في كل ميل مربع، وعندما جاءت اللحظة المناسبة قام البولشفيك الذين يتركزون بقواتهم في الوسط ـ بالرغم من ضعف قواتهم هم أيضًا ـ بتوجيه الطعنات هنا وهنا، وانفجر البالون، وتحركت الأعلام للخلف بسرعة، وتبادلت الأيدي المدن والقرى، ووجد الناس أنه من الأوفق لهم أن يغيروا من آرائهم ومعتقداتهم.

ووضح أن الحواجز الاستراتيـﭽية القوية كنهر الـﭭولجا وجبال الأورال ليست أماكن للراحة، ولم تكن من معقبات استراتيـﭽية للاستيلاء على جبال الأورال أو فقدها، ولا قيمة ولا ضرر من اجتياز الـﭭولجا أو الارتداد إلى ما وراءه من جديد، حرب قليلة الخسائر في القتال غير محدودة عدد الذين أعدموا فيما بعد»[١] .

ولقد وافق ليون تروتسكي الذي كان يتولى توجيه معنويات الجيوش الروسية في الصراع، وافق على أن الحرب الأهلية حرب مصغرة، «ولكن الحرب الصغيرة تختلف عن الحرب الكبيرة من الناحية القياسية فقط إلا أنها كانت في الواقع نموذجًا حياً للحرب، وكانت مدرسة كبيرة كثيرة الدروس»[٢] .

ومع أن العقيدة الثورية للفلاحين والعمال كانت ذات أثر فعال في

---

(١) W. S. Churchill: the World Crisis, ١٩١٨- ١٩٢٨: The Aftermath (New York, ١٩٢٩), pp. ٢٤٠ – ٢٤١.

أما عن الخسائر التي تكبدها الروس في الأرواح في الحرب العالمية الأولى فيرجع إلى:

Stanislas Kohn and A. E. Meyendroff, The Cost of the War to Russia (New Haven, ١٩٣٢).

(٢) L. Trotsky, My Life (English translation, New Youk, ١٩٣٠) p. ٤٠٧.

النصر الذي حققه البولشفيك، كما كان لها من أثر أيضًا للكفاية العسكرية لضباط وضباط صف وفنيي الجيش الإمبراطوري فإن الدعاية التي استخدمت بمهارة وراء خطوط قوات روسيا البيضا كان لها دورها الفعال في تحطيم معنويات أولئك الذين يقفون موقف التضاد من الثورة؛ وإن كانت هذه الدعاية في الحقيقة قليلة الأثر عندما كان الحلفاء يمدون قوات دينكين وغيره بحاجتها من المعدات الحديثة.

وقد أثبتت مهارة ڤيـچان في إعداد القوات البولندية أن أي ضابط محترف درب ـ حتى ولو كان من البرجوازيين أو كان يمثل دولة رأسمالية استعمارية ـ يستطيع بنجاح أن يكسب أي حرب سياسية ما لم تمد هذه الحرب بالكفاية من الرجال والمدافع، ولقد أثبتت الحرب الأهلية في إيجاز أن الاستراتيـچية الثورية يجب أن تدعم بالكفاية العسكرية بل وحتى بالوسائل العسكرية التقليدية.

***

وكانت استعادة النظام «والضبط والربط» في مقدمة التدابير العسكرية التي جاءت نتيجة لاستقامة الرأي، والجيش الذي ينقصه (الضبط والربط) ليس بأكثر من دهماء مسلحين، غوغاء في غير ما نظام؛ فالثورة تبعًا لطبيعتها قوة مدمرة فيها كل عوامل التمزيق والتفكك وتتجه بعناصر مراحلها الأولية إلى الفوضى الكاملة لو أفسح السبيل لهذا.

وهنا الخطر لأن الفوضى لا يمكن أن تستمر طويلاً، ذلك لأنها ـ على ما قال لينين سنة ١٩١٧ ـ خطوة واحدة بين الفوضى وبين القضاء على الثورة.

وبالرغم من كل ما يقوله البولشفيك محاولة منهم لإنكار هذه الحقيقة، فإنهم في الواقع كانوا العامل الرئيسي الفعال في تمزيق الجيش القديم، فهم قد حثوا من البداية على الخروج عن الطاعة التي تفرض على الجنود، وحطموا السلطات التي للضباط، ومن ثم فإنهم عاونوا على قيام حال من الفوضى بزعم محاولة نشر فضيلة عقائدية. ثم واجه الزعماء السوڤيت الحاجة لتغير شامل، وأن يبدلوا من موقفهم، وأن ينقلبوا «من تحطيم الجيش القديم إلى تنظيم الجيش الجديد»، وتولى لينين وتروتسكي واجب إنشاء قوة عسكرية نظامية، وحدوا من ديمقراطية الجيش ومن حق الجنود في انتخاب قادتهم، وفرضوا العقوبات الشديدة على «الفرار من صفوف الجيش» وعلى «الجبن»، ومنح القادة السلطات اللازمة، وأصدروا وسام «العلم الأحمر» ليحل مكان كل الأوسمة العسكرية القديمة.

وأوضح تروتسكي أن في الجيش الجديد مكانًا للرقيب المدرب (شاويش التدريب) في طابعه التقليدي الذي عرفه الجيش القديم، وكل وحدة من وحدات الجيش: «يجب أن تتسلم تموينها بانتظام ولا يجب أن تترك مواد الغذاء لتتلف، ويجب أن تُطهى الوجبات الغذائية جيدًا، ويجب أن يتعلم الجنود نظافة أجسامهم، وأنهم يجب أن يدربوا تدريبًا جيدًا وأن يتلقوا هذا التدريب في الهواء الطلق كلما كان هذا مستطاعًا، كما يجب أن يجيدوا إلقاء الخطب السياسية موجزة مجملة واضحة، وأن ينظفوا بنادقهم ويغطوا أحذيتهم بالدهن، ويجب أن يدربوا على الرماية ليصلوا إلى مستوى عال من المهارة، كما يجب أن يعاونوا ضباطهم في ضمان اتباع الأوامر والتعليمات، بأن يبقوا على الاتصال بالوحدات الأخرى في

الميدان، وأن يقوموا بأعمال الاستطلاع وبأداء واجبات الحراسة، وأن يدربوا على التكيف مع الأحوال المحلية، وأن يعرفوا رتق «جواربهم» حتى لا تجرح أقدامهم.

ومرة أخرى يجب أن يلاحظوا طلاء أحذيتهم بالدهن[*]؛ هذا هو برنامجنا للسنة القادمة ١٩١٩ بعامة، وللربيع القادم بخاصة.

ونحن نرحب بكل من يود أن يصف هذا البرنامج العملي بأنه «عقيدة عسكرية»[١].

وهكذا أدرك السوفيت نتيجة للتجربة العملية كأي جماعة ثورية أن تعاليم العهد السابق لها من الفضائل أكثر مما كانوا يعتقدون. فللوصول إلى القوة أو السلطة في غالبية الأوقات الأثر الذي ييقظ من الغفوة ومن ثم فإن النظام الجديد ينتفع ببعض تعاليم وتقاليد الماضي، والثورة قد تكتسح الكثير من صور وتشكيلات الجيش، ولكن هناك الكثير من النظم العسكرية التي لا يمكن أن تغفلها أي صورة من صور الحكم مهما كان طابعها.

ومن الواضح أن تروتسكي قد حذر هذا؛ ذلك لأنه يقول: «إن غالبية

(*) عرض تروتسكي في الواقع لعدة موضوعات متباينة الاتجاهات مختلفة القيمة التقديرية لقيمتها وأثرها في النظام العسكري، وإن كانت تتفق في وجوب اتباعها والعناية بها ويفتقر إليها الجيش سواء أكان جيشًا لبلد طغوائي الحكم أم ديمقراطي النزعة، لأنه يرتبط بالأسس السليمة للجندية الصحيحة. وقد يبدو مدهشًا تكراره الإشارة إلى تغطية الأحذية بالدهن (الدبن في الاصطلاح العسكري العربي) وهنا يجب ملاحظة أهمية صلاحية الأحذية وليونة جلدها بالنسبة للمشاة المترجلين، والقوة الغالبة في الجيوش القديمة (المترجم)

(١) Quoted by Erich Wolenberg, The Red Army: A Study of the Growht of Soviet Imperialism (London, ١٩٤٠), pp. ١٥٧ - ١٥٨.



تروتسكي (١٨٧٧ – ١٩٤٠)

المبادئ والصعاب التي واجهها السوڤيت في عملهم الإنشائي طوال السنوات التي تبعت سنة ١٩١٧ تبدو أولاً في النطاق العسكري وكانت في غالبيتها مركزة فيه»(١) .

على أن البولشفيك لم يهجروا تمامًا الاستراتيـجية الثورية في قتالهم ضد كل العوامل التي تضاد الثورة، وكان الجيش الذي كونوه جيشًا من الفلاحين ومن الكادحين، وكانت الحرب التي خاضوا غمارها حرب طبقات، وكان الفلاحون والعمال الذين اعتمد عليهم البولشفيك هم الطبقات التي تفقد الكثير وتحتمل الغرم كله لو عاد النظام القديم، ولربما كانت للحرب التي قام بها المتطوعون وراء جبهات جيوش روسيا البيضاء الأثر المماثل للمقاومة العسكرية المنظمة التي قام بها الجيش الأحمر، ومكنت هذه وتلك من هزيمة دينكين وكولتشاك؛ لقد أنقذت قوات الجماهير بتروغراد من الغزو عندما تحطمت مقاومة الجيش، وكان لما قال لينين في المؤتمر الثامن للحزب الشيوعي في ٢٣ من مارس سنة ١٩١٩ نصيب كبير من الحقيقة، فلقد قال:

«إذا كان قد أمكن خوض غمار هذه الحرب بنشاط كبير وجرأة نادرة فذلك لأنه لأول مرة في التاريخ وجد جيش يعرف لماذا هو يقاتل، ثم ذلك لأنه لأول مرة في العالم يفهم العمال والفلاحون تمامًا أنهم وهم يدافعون عن

---

(١) My Life, p. ٤٣٧.

أما بالنسبة لما جاء خاصًا بالثورة الفرنسية فيرجع بخاصة إلى الصفحات ٢٣، ٢٤، ٧٥، ٩٦، ١٨٢ ـ ١٨٥ من كتاب:

R.R. Palmer, Twelve who Rouled: The Committee of Public Safety during the Terror (Princeton, ١٩٤١).

ص٢٣٣ ـ ٢٤و ٧٨و ٨١و ٩٦و ١٨٢ ـ ١٨٥ .

الجمهورية السوڤيتية الاشتراكية إنما يدافعون عن سيادة الجماهير الكادحة على الرأسمالية، وأنهم يقاتلون في سبيل قضية الثورة الاشتراكية العالمية للطبقات الكادحة في العالم كله»[(١)].

ولقد وقفت وراء الجيش تشكيلات متراصة[(*)] من الحزب الشيوعي، قوة دينامية تجاهد في سبيل عقيدة جديدة، وكان بعض الأفراد يشغلون وظائف «القوميسيريين» مع الجنود في الميدان، ولكن حيثما كان هؤلاء فإنهم كانوا التيار الكهربي الذي «يشحن» بالكهرباء آلة الجيش الأحمر ثم تدعم القوة الدافعة للقادة بأن «تترجم» من رغباتهم وتنقلها إلى أعمال.

وكانت رغبة القوميسيريين والقادة والجنود في الصفوف (هي) بمثابة الملاط الذي يربط الأحجار بعضها إلى بعض، بمثابة الإطار الحديدي الذي يربط كل وحدات الجيش الأحمر معًا في عقد واحد[(٢)].

لقد خرج البولشفيك من تجاريبهم في الحرب الأهلية بدرس فريد في بابه عن دور «المجتمع» في الحرب، وخرج لينين بخاصة بنظام فلسفي معقد، فلقد قال: بأنه ليس من الممكن تصنيف اتجاهات الطبقات العاملة وتبين مواقفها من الحرب وتنفيذها في مستويات معينة، ويرى أن الميل إلى السلم، عدم المقاومة، مقاومة الخدمة العسكرية، الإضراب العام ضد التعبئة وغير هذا من مختلف ألوان ومظاهر الاشتراكية الأوروبية الغربية، كلها لا معنى لها في حد ذاتها؛ ذلك لأن رد فعل الجماهير بالنسبة للحرب إنما يتقرر

---

(١) Cited by Taracouzio op. cit p. ٩٥.

(*) في الأصل استخدم الكاتب كلمة "Phalanxes" أي تشكيل المجموع في قولات، راجع الفصل الأول من الكتاب الأول.

(٢) D. F. White, The Growth of the Red Army (Princeton, ١٩٤٣), p ١٢٦.

تبعًا لنوع الحرب التي ستخوضها هذه الجماهير وتبعًا لأهداف هذه الحرب، الأهداف التي يجب أن تقدر وأن توزن، وهذه كلها مسائل وثيقة الصلة بفكرة كلاوزيـڤتز من أن الحرب ـ في بساطة ـ آلة أو وسيلة للسلم[١].

ولقد نظر الاتحاد السوڤيتي والشعب الروسي إلى العالم ـ منذ أيام الحرب الأهلية ومنذ أيام التدخل الأجنبي ـ على أنه ينقسم إلى معسكرين مسلحين، معسكر الاشتراكية ومعسكر الرأسمالية، وجاء في إعلان الاتحاد سنة ١٩٢٢: «إن عدم استقرار الموقف الدولي وخطر مواجهة هجمات جديدة ليوجبان إيجاد جبهة مشتركة بوساطة الجمهوريات السوڤيتية ضد تطويق الرأسمالية»؛ وكان هذا رد فعل طبيعي إزاء التدخل المسلح لبريطانيا وفرنسا واليابان والولايات المتحدة في السنتين الحرجتين ١٩١٨ و١٩١٩، وهو تدخل لم يستطع الروس أن يفهموا سببه وما زالوا يذكرون دائمًا بمرارة، وكانت كذلك نتيجة للنطاق الحاجز الذي حاولت به الدول منع رعايا روسيا من التسرب إلى بلادها، وحالت به بين رعاياها وبين الاتحاد السوڤيتي، كما كان كذلك عملاً طبيعياً لامتناع بعض الدول لسنوات طوال عن الاعتراف دبلوماسياً بالحكومة السوڤيتية.

ويعتبر الشعور بالعزلة والتطويق العامل الذي يحتمل مسئولية وجود عقلية تفكر دائمًا في الحرب في الاتحاد السوڤيتي وقد جاء هذا الشعور من البداية وبقي قائمًا حتى اليوم، وتعكس اللغة التي يتحدث بها الروس هذا

(١) عالج «تاركوزيو» Taracouzio في إفاضة وبمهارة تطور الفكرة السوڤييتية عن الحرب، راجع أيضًا:

D. F. White "Soviet Philisophy of War)in Political Science Quarterly, LI (١٩٤٣) p. ٣٢١ - ٣٢٥.

الطابع العدائي في كل شيء، فالروس يتحدثون دائمًا عن: «معركة الإنتاج» ـ «التقدم في القطاع الزراعي» ـ «القتال في جبهة الفحم» ـ «الجواسيس والمخربين في الصناعة»[١] .

وكان هذا التفكير الدائم في الحرب عاملاً مهمًّا في المقاومة الروسية الناجحة ضد الاعتداء النازي، ولكنه عامل مهم أيضًا يجب أن نذكره إذا أردنا أن نتفهم سياسة روسيا في الشئون العالمية، أنه نتيجة تبعية لسياسة غير ناجحة استمرت طوال الخمس والعشرين السنة الماضية[٢] .

وفي مثل هذا العالم الذي نعيش فيه يعتبر من قصر النظر ومن الخطورة بمكان أن تكون أمة ما غير متأهبة للحرب، ولقد وجدت الشعوب الديمقراطية نفسها في هذه الحال المؤسفة في السنوات التي تلت تسوية ميونخ، ولكن هذا يعتبر حماقة وغباء بالنسبة لدولة كروسيا وجدت نفسها ـ

(١) A. R. William, The Russians: The Land, the People, why They Fight (New York, ١٩٤٣), p. ٤٣ ff.

(٢) ينتقد ونستون تشرشل ـ الرجل الذي كان من أنصار التدخل سنة ١٩١٨ سنة ١٩١٩ ـ السياسة الأمريكية على أنها سياسة لم تكن منسقة مع أهدافها بل إنه ليشك فيما إذا كانت لنا يومذاك سياسة ما، ولو كانت فهو يقول عنها أنها في الواقع سياسة غير مخلصة.
وقد كتب سنة ١٩٢٩: هل كان الحلفاء في حرب مع روسيا السوڤييتية؟ بلا شك... لا، ولكنهم كانوا يطلقون النار على الروس حال رؤيتهم وقد قاموا بدور الغزاة للأراضي الروسية وسلحوا أعداء الحكومة الروسية، وحاصروا موانيها وأغرقوا بوارجها، وكانوا في الواقع يرغبون في إسقاطها ووضعوا الخطط لهذا، وقد كرروا أن ما يضايقهم.. كيف أن الروس قد استطاعوا أن ينظموا أمورهم الداخلية. نفس المرجع ص٢٤٣ ـ ٢٤٤ .
ونجد نقدًا عنيفًا مماثلًا في كتاب:
General W. S. Graves (Commander of the American of the American expediteionary force in the Soviet Far East); America's Siberian Adventure (New York, ١٩٣١).

بسبب نظامها الاجتماعي ـ تواجه دائمًا خطر الحرب، ومن ثم كان إصرار الاتحاد السوفيتي على الاحتفاظ بجيش أحمر وأسطول أحمر وقوة جوية حمراء بالقدر الذي يكفي لحماية نفسها ضد الهجوم الذي تعتقد أنه قادم لا محالة، ومن هنا أيضًا جاء تصنيع روسيا مع مشروعاتها للسنوات الخمس، هذه المشروعات التي جعلت الأولوية للصناعات الثقيلة وقدمتها على البضائع الاستهلاكية حتى يمكن أن تقف القوات المسلحة دائمًا في مستوى التعبئة الكاملة بما فيها من الجهد العنيف الذي تفرضه الحرب الحديثة.

وكنتيجة لهذا لم يتكرر فشل روسيا القيصرية أيام الحرب الثانية ضد الإمبراطورية الألمانية، لقد وضعت دعائم وأسس الانتصار الذي حقق في ستالينجراد قبل المعركة بحقبتين من السنين بل وأكثر عندما أوجد الجيش الأحمر، وعندما ما مر بمرحلة النضوج مع العناية بتنشئته.

ـ ٣ ـ

وكان ليون تروتسكي نقضًا حياً لحديث كارل كوتسكي بأن الحرب ليست أقوى النقاط في عمل «البوليتاريا» الطبقة الفقيرة الكادحة، فإن تروتسكي كان أبا الجيش الأحمر، وكان هو الذي نظم للنصر أثناء الحرب الأهلية، وكان المؤلف لجزء كبير من «العقيدة» التي قامت على أساسها وتبعًا لها السياسة السوفيتية العسكرية، ولو كان له أي سابق تجربة عسكرية لكان من العدالة أن يقال عنه «كارنو» Carnot الثورة الروسية، وهو لقب أطلقه تروتسكي كرمًا منه على مساعده الأول سكليانسكي Skliansk .

* * *

وكان تروتسكي في السابعة والثلاثين من عمره عندما تولى وزارة

الحرب (قوميسيير الحرب) في مارس ١٩١٨، ومع هذا فإن تروتسكي كان يستند إلى ماض في النشاط الثوري العدائي يمتد لعشرين سنة، وعلى خلاف لينين لم يكن تروتسكي أستاذًا عالمًا، بل كان سياسياً، ثورياً، ومنظمًا في الأعمال العامة متغطرسًا، يجيد التمثيل على مسرح الحياة، هذا فضلاً عن أنه كان دؤوبًا لا يجهده العمل، شجاعًا، صائب الرأي حسن التفكير لا يتوانى عن أداء واجبه، ومع أن تقديره للأمور العسكرية لم يكن دائمًا متممًا بالصواب إلا أنه كان ولا شك في الغالبية يصدر قرارته متفهمًا إلى حد بعيد المواقف التي تواجهه.

وكان الواجب الذي أوكل لتروتسكي، واجب تحقيق نظام عسكري من فوضى الثورة وفي خضم الحرب الأهلية والتدخل الأجنبي ليكفي لأن يذهب بعقل أي شخص أقل منه جهدًا وصبرًا وسعة أفق، وقد كتب عنه صحفي أمريكي يوم ذاك:

«وفي خضم هذه الفوضى برزت شخصية تروتسكي، كان أشبه ما يكون بالمذنبات (Comet like)، يندفع جيئة وذهابًا وسط خطوط الجيش الأحمر موزعًا الأوسمة الثورية الجديدة مصدرًا الأوامر بحكم الإعدام في كرم متماثل بين هذا وذاك، ناصحًا محذرًا، مهددًا متوعدًا، ولكنه في هذا كله يعمل لتحقيق النصر، وكان هو بلا شك واحدًا من العوامل الحاسمة التي مكنت في النهاية من وضع كل أراضي روسيا تحت راية السوفيت الحمراء[١].

وقد أدى النزاع الطويل بين تروتسكي وستالين إلى إنكار دور

---

(١) تشيمبرلين نفس المرجع ـ ج٢٠، ص٤٠ .

تروتسكي في قصة الثورة الروسية وفي تاريخ تكوين الجيش الأحمر.

والواقع أنه بالإضافة إلى ما توافر لتروتسكي من مواهب فلقد توافرت فيه أيضًا الخاصيات التي جعلت منه واحدًا من الشخصيات الممتازة في التاريخ العسكري الحديث، وإن كان تروتسكي لم ينل حقه بعدالة؛ فذلك لأن التاريخ في البلاد الطغوائية (هو) ما يقوله الديكتاتور لا ما تسجله الحوادث وتنطق به الأعمال.

ولم يزعم تروتسكي أنه أخصائي في المسائل العسكرية ولا أنه عبقري في الشئون الاستراتيـچية، وقد أشار عن حق بأنه في البلاد البرلمانية توكل وزارة الحرب ووزارة البحرية إلى محامين وصحفيين هم مثلي يرون الجيش من نوافذ غرف التحرير التي يعملون فيها. وكان الشيء الوحيد ذو الطابع العسكري في حياته الأولى أنه كان يقيم في الصرب وبلغاريا ورومانيا طوال أيام حروب البلقان، ويقول هو عن هذا: «ولكن كانت كل صلاتي بالمسائل العسكرية من الجانب السياسي لها، إلا أن الحرب العالمية جاءت بكل الناس ـ وأنا من بينهم ـ إلى الأوضاع التي تربطهم وثيقًا بالشئون العسكرية».

وقد عنى تروتسكي بتحليل المسائل العسكرية في دراسته لها، ولكنه كان يؤمن بأن ـ أهم شيء ـ أن الحرب تكملة للسياسة، وإن الجيش آلة في خدمة السياسة، مع بقاء مشكلات التنظيم العسكري والتكنولوچية العسكرية في القاعدة الخلفية لها، «ومن جانب آخر فقد اجتذب انتباهي أن سيكلوچية الجيش في معسكراته، خنادقه، معاركه ومستشفياته»، وهكذا كان تروتسكي ـ على ما يبدو ـ مزيجًا مركبًا من كلاوزيـڤتز وآنجلز ولينين.

ولم ينظر تروتسكي لنفسه قط على أنه خبير في الاستراتيـچية ولم

يتوافر له الصبر لتقبل أي لون من هواة الاستراتيـچية، هذه الهواية التي سببت الثورة انتشارها بين أعضاء الحزب؛ على أنه عندما كان واجبه كقومسيير للحرب يضطره لإصدار قرارات في مسائل ذات طابع استراتيـچي ـ كما حدث لثلاث مرات ـ فإنه كان يصدر قراره تبعًا للاعتبارات السياسية والاقتصادية لا تبعًا للاعتبارات الاستراتيـچية وحدها، ومن الضروري أن نشير هنا إلى «أن المسائل الاستراتيـچية الهامة لا يمكن أن تحل بغير هذا الأسلوب».

ولقد أحس تروتسكي بأنه من الضروري أن يستعين بمعاونة أولئك الذين تعتبر الشئون العسكرية صناعتهم،وهنا يقول تروتسكي: «أما في النطاق الفني وفي العمليات فلقد كان واجبي الأساسي أن أضع الرجل الصالح في المكان الذي يصلح له ثم أتركه ليستخدم إمكانياته ومواهبه» ولكن لما كان الجيش آلة للثورة فلقد فهم بأن وضعه يتطلب كي ينجح في عمله أن يمزج عمله في تنظيم الجيش بعمله في عضوية الحزب، ومن ثم يستطيع أن يقوم بدوره السياسي على أكمل وجه[١] .

* * *

على أنه لم يكن من مكان لأن يعمل البولشفيك لإعادة تكوين الجيش الإمبراطوري، فلم يكن من أمل في إحياء جيش القياصرة، كان الجيش في السنوات بين ١٩١٤ وبين سنة ١٩١٦ قد تكبد خسائر فادحة، وخاض غمار الحرب مفتقرًا إلى حاجته من غذاء وذخيرة وإمدادات، بل وكان يفتقر حتى إلى القيادة الحكيمة، وفي تاريخ بعد هذا قاسى الأمرين من مركبات النقص

(١) تروتسكي ـ نفس المرجع ص٣٤٩ ـ ٣٥٠ / ٣٥٨ .

السيكلوچية تبعًا للتقهقر، كما حطمت من كيانه العددي حوادث الهرب وفقدان الضبط والربط والشعور بإجهاد الحرب، وهنا يجب أن نضيف أيضًا الدعاية اليسارية الثورية والدعاية الانهزامية والدعاية لحرب الطبقات، وما سببه هذا كله من تفكك الجيش ثم من القضاء فيما بعد.

فلما أن بذلت محاولة لإحيائه بالقيام بهجوم جديد في صيف سنة ١٩١٧ فإنه ـ على ما أشار لينين ساخرًا: «لقد صوت الجنود في جانب السلم بأرجلهم لا بأيديهم».

على أن تسرب الضعف إلى روح الاقتتال في الجيش إنما يرجع إلى نهاية سنة ١٩١٦ ـ كما وضح للـچنرال بروسيلوف Brussilov، ومن ثم فإن بعض النقاد يرون بأن الدعاية البولشفية لم يكن لها من أثر كبير في النهاية التي تحققت وأنها لم تكن أكثر من «القشة التي قصمت ظهر البعير».

ولكن هؤلاء النقاد مع هذا يرون بأن السرعة التي تم فيها هذا الانهيار المعنوي فضلاً عن أنه كان انهيارًا شاملاً كاملاً إنما ترجع إلى الدعاية الثورية التي قام بها البولشفيك داعين للسلم، ويرون أيضًا بأنه لو لم تبدأ الثورة أو لو توافرت في البلاد حكومة قومية في فجر الثورة لكان من الممكن للجيش أن ينتعش وأن يستعيد نظامه كما حدث للجيش الفرنسي عندما انتعش من ثورة سنة ١٩١٧ العظمى[١].

---

(١) M. T. Florinsky, The End of the Russian Empire (New Haven, ١٩٣١).

الفصل التاسع، ويعرض المؤلف في هذا الفصل وجهة النظر بأن الدعاية البولشفية= =كانت في بساطة الخطوة الأخيرة في انهيار الجيش، على أننا نجد حديثًا مضادًا في كتاب:

D. F. White ،"Soviet Philosophy of Wea" Chap. I.

على أنه لا فلورنسكي ولا هوايت من الشيوعيين ولا داعية لهم، بل إنهما قد خرجا برأيين متضادين نتيجة دراسة كل منهما لموضوع واحد فقط من زاويتين مختلفتين، على أننا يمكن

على أن تروتسكي كان يوافق على أن الثورة والدعاية البلشفية التي سبقت الثورة، قد دمرتا الجيش.

وقد أكد الأستاذ مليوكوف Milyukov وزير الخارجية في حكومة الأمير لـڤوف Lvov بأن الجيش قد تحطم نتيجة للنزاع بين الآراء الثورية وبين الضبط والربط العسكريين العاديين بين «تحول الجيش إلى الديمقراطية» وبين «الاحتفاظ بقوة الاقتتال للأفراد».

وقد رد تروتسكي على هذا بأن المؤرخ يجب أن يعرف بأن كل ثورة عظيمة إنما تسبب تحطم الجيش القديم نتيجة لا لضعف الضبط والربط، بل بسبب اصطدام الطبقات البشرية، وقد كتب ألماني أوتي حظاً من الحكمة هو «آنجلز» إلى ألماني آخر هو «ماركس» في ٢٦ من سبتمبر سنة ١٨٥١: «بأن الجيش غير المنظم المعدوم الضبط والربط كان دائمًا العامل والنتيجة لكل ثورة ناجحة؛ ويثبت التاريخ البشرى في بساطة أن هذا الحديث قانون لا نزاع فيه»[(١)] .

ولقد قال تروتسكي أيضًا بأنه كان من مصلحة الأمة تصفية الجيش القديم تمامًا فإن «الجيش آلة الحرب» ولكن في حكم القياصرة «كان هذا الجيش قوة لها خطرها ضد الشعوب شبه المتبربرة فقط، ضد الجيران الصغار الضعاف، ضد الأمم المقطعة الأوصال، ولكنه لا يستطيع العمل في حلبة الصراع الأوروبية إلا كجزء من تحالف كبير، وهو لا يستطيع أن يقوم بدوره في الدفاع إلا باستناده إلى المسافات الواسعة، وتبعًا لاستحالة السير على

أن نجد رأيا سابقًا لهما في كتاب:

A. A. Brussilov, A Soldier's Notebook, ١٩١ - ١٩١٤ (London, ١٩٣٠ Chaps. X- XII.

(١) History of the Russian Revolution I, ٣٧٤ - ٣٧٥.

الطرق؛ لقد مكن التحرر الجزئي للطبقات الكادحة وإدخال نظام التجنيد العام من استحداث الجيش بالقدر الذي مكن فيه هذا أو ذاك من تحضر البلاد وتقدمها، أي أنهما أدخلا في الجيش كل المتناقضات الموجودة في الأمة التي كانت لا تزال أمامها ثورة برجوازية يجب أن تعمل لتحقيقها».

«صحيح أن جيش القيصر قد تكون وتسلح تبعًا للطابع الذي قام فيه هذا وذاك في الدول الغربية ولكن هذا كان أكثر مما يجب إجراؤه، فلم يكن هناك أي تناسق بين المستوى الثقافي للجندي الفلاح عامل الأرض وبين التكنولوچية العسكرية الحديثة»[١] .

والحقيقة أن كلمات تروتسكي تدل على تفهم عميق لواقع الوضع العسكري للروسيا في قارة أوروبا يوم ذاك. ومن الطريف حقاً، بل ومن الأهمية بمكان هذه المقارنة بين المستوى الثقافي للجندي الفلاح وبين الدراية الفنية التي يجب توافرها للفرد في ضوء العسكرية الحديثة، والعامل المهم ـ وإن لم يكن العامل الوحيد ـ كان هو جهل الأفراد في الجيش الإمبراطوري للقراءة والكتابة؛ وقد علق الـچنرال السير ألفرد نوكس الملحق العسكري الإنجليزي في روسيا إبان الحرب العالمية الأولى وأحد المتعمقين في دراسة الشئون العسكرية الروسية، علق على حقيقة «أن قرابة الخمسين في المائة من جنود سنة ١٩١٤ لم يكونوا يستطيعون لا القراءة ولا الكتابة، وأن المعرفة التي توافرت للباقين قد جعلت من الجندي رجلاً متحضرًا بشري التفكير، ولهذا فلقد كان من المستحيل أن يعطي لهذا الجندي أكثر من التدريب الأولى وأن تقدم له غير المعلومات القليلة عن الخرائط، والأسلحة وفن القتال

(١) نفس المرجع ـ ص١٧٠ .

(التكتيك)، أو أن يزود بالمعرفة الخاصة بسير الحرب»[١] .

وقد مجد تولستوي في روايته «السلم والحرب» war and peace هذا النوع من الجنود الذين يستجيبون دون شكوى للطبيعة، للطغيان، للهزيمة، للموت، ولكن مهما كان نصيب الجندي من الشجاعة كثيرًا أو قليلاً، فإن تقدم الفن العسكري وازدياد تعقد طبيعة العمليات الحربية كانا يجعلان المجموعة من هؤلاء الجنود أقرب إلى صورة الجيش، وكان تفهم هذه الحقيقة هو الذي جعل الجيش الأحمر فيما بعد يقوم بحرب عنيفة ضد الأمية وضد الجهل.

وكانت هناك أسباب أخرى هي التي جعلت تروتسكي يعتقد بل ويؤمن بأن الماضي الذي مات يجب أن يدفن معه موتاه، «فإن المظاهر العامة للجيش كانت من أصداء ومن ظلال المظاهر العامة لروسيا القديمة، وهي مظاهر إقطاعية الطابع تمامًا، وكان الضباط يعتبرون أفضل الجنود مجرد صبيان معدومي التفكير لا يتوافر لهم الشعور بالمسئولية الشخصية ولا يمكن إيقاظ هذه المشاعر أو بثها فيهم، كان هذا هو التقليد العام في الجيش الروسي... وفي القرن الثامن عشر كان (الـڤيلد ماريشال) سوڤوروف يصنع المعجزات من هذه المادة الخام، ولكن في القرنين التاسع عشر والعشرين كان جيش القياصرة يواجه الهزيمة إثر الهزيمة». وتبعًا لأنه كان جيشًا إقطاعياً تشكل على هذه الأسس القومية، أي الأسس الواضحة في بناء وتكوين

(١) Mai General Sir Alfred Knox, With the Russian Army, ١٩١٤- ١٩١٧ (٢ Vols., New York, ١٩٢١), I p. XXI – XXIV.

وابتداء من سنة ١٩٣٥ رفض الجيش الأحمر تجنيد الجنود غير الملمين بالقراءة والكتابة، وهذا أمر لم يكن ليتم في روسيا القيصرية.

الأمة والدولة ومن ثم كانت العلائم المميزة امتهان شخصية الجندي، روح «ماندرينية»(*) سلبية، جهل بصناعة الحرب والتي هي المهنة الأصلية للجندي، انعدام مبادئ التضحية والبطولة، وكانت سيادة الضباط ترجع إلى حقوق السيادة التي للطبقات، وكانت الصورة العامة هي صورة الكبت والقهر، بل كانت اللغة التي تستخدم لمخاطبة الجنود لغة مهينة»[١] .

ولم يكن من الممكن بقاء مثل هذه الحال في ظل حكومة اشتراكية، كما لم يكن من الممكن قيام جيش جديد على أسس برجوازية برلمانية ديمقراطية، يقول تروتسكي: «لقد قامت رياسة الجيش الأحمر على أساس وجود ديكتاتورية الطبقة العاملة في قمته، وقام الجيش على أساس اختيار الضباط بوساطة الحكومة السوڤيتية والحزب الشيوعي»[٢] .

وهنا كان واجب تروتسكي ـ كما رآه هو ـ فريداً في بابه: «إن المشكلة في البلاد الرأسمالية هي العمل للاحتفاظ بالجيش القائم أو بمعنى أدق إن المشكلة هي جعل الأفراد يقبلون على البقاء في الجيش واعتبار الجندية حرفة للحياة، ولكن مشكلتنا نحن أن نقوم بحركة تطهير واسعة لتنقية بقايا الجيش القديم، وأن نكون بدله جيشًا جديدًا، بل وأن نفعل هذا (تحت النيران) أثناء قتال العدو، وهذه مسألة لا نجد الوسيلة الصحيحة لها في أي

(*) في الأصل Mandarinesm نسبة إلى Mandrin وتعني الكلمة الأخيرة على ما أوضحها معجم ويبستر طبع نيويورك سنة ١٩٥٦، تعني طبقة النبلاء من موظفي حكومة الصين، ويبدو أن المؤلف يقصد هنا أن الجيش الروسي في حكم القياصرة كانت تتوافر فيه روح سلبية من الاعتزاز بالنفس، فالجنود يعرفون أنهم ليسوا من طبقات النبلاء ولا من الصفوة التي منها ضباطهم، وإنما هم من الطبقات الدنيا.

(١) Torostsky, History of the Russian Revolution I, ٢٥٣.

(٢) Bunyan and Fisher, op. cit. pp. ٥٦٩ – ٥٧٠.

كتاب، ويفسر هذا سبب ما أشعر به من القلق بالنسبة للعمل العسكري وتقبلي القيام بهذا الواجب إذ لا يوجد غيري يستطيع القيام به»[١].

على أنه مهما كان شعور تروتسكي نحو القيامة بعمل قوميسيير الحرب فإنه لم يبد أي تردد أو تقاعس في القيام بالعمل الذي وكل إليه إلى غاية ما يتوافر له من طاقة وإلى غاية ما يرجوه من إتقان؛ على أن أعقد المشاكل التي كانت تواجهه، مشكلة إزالة الآثار التي خلفتها الدعاية الانهزامية الهدامة الهادفة إلى المسالمة والتي آثارها السوڤيت ضد الجيش وضد الحرب قبل أن يصلوا إلى السلطة.

كان قد اعتزم على أن يوجد ـ مهما كانت درجة المقاومة ومهما كثرت العراقيل المعطلة ـ جيشًا من الفلاحين ومن الكادحين، وأن يحول الأمة الروسية إلى معسكر إسبارطي الطابع[*]، وأن يوجد ضمن إطار الثورة «نظامًا عسكرياً شيوعياً»، فكل ما حدث من قبل يجب أن يوجه توجيهًا عكسياً، (والعنف الثوري الذي كان وسيلة لتحقيق الحرية للكادحين يجب أن يتحول منذ الوصول إلى السلطة والحكم ليكون وسيلة لايجاد جيش منظم)، فلم يعد من مكان للحديث عن السلم وعن الأخوة البشرية في هذا الطابع المسالم الذي تحدث عنه تولستوي، «فنحن نعمل لإيجاد مجتمع شيوعي لا تنازع فيه، ذلك لأنه مجتمع بلا طبقات ولأن الأمم لن تنفصل بحدود دولية بل ستعيش معًا وتعمل كلها من أجل قضية مشتركة». ولكن هذه المدينة الفاضلة لا تزال تطلب الكثير من الجهد ولا يزال تحقيقها بعيد المنال، ذلك لأن الطبقات الحاكمة «لن تستجيب لهذا إلا مرغمة نتيجة

---

(١) My Life, p. ٣٤٩.

(*) نسبة إلى إسبارطة القديمة «المترجم».

للكفاح ضدها»، والثورة تؤمن باستخدام القوة تبعًا لأنه لا يمكن أن تتغير الأوضاع الاجتماعية إلا بحرب دامية؛ وتكوين القوات المسلحة الروسية مسألة حياة أو موت للأمة الروسية وللطبقات العاملة بها، ومن ثم «فإن كل عامل شاب بدلاً من أن يقضي يوم الأحد في احتساء الشراب يجب أن يتعلم الرماية»، فبتعلمه الرماية يؤدي أهم واجب عليه نحو الطبقة التي هو من أفرادها.

ويجب فرض الضبط والربط بالقوة والإرغام، بل وحتى عند الضرورة بتوقيع الجزاء بالإعدام لأفعال الجبن والهروب والجرائم العسكرية الأخرى، والثورة لا تسمح بتوافر الضبط والربط في الجيش بل ويجب عليها أن توجده، فليس من الممكن أن تتولى أمر الجيش هيئات أو لجان ولا أن ينتخب الجنود ضباطهم، بل يجب أن يكون الجيش في قبضة قوية تمثل السلطة العسكرية(١) .

وكان هذا دواء علقمًا يجب أن تبتلعه مرغمة هذه البلاعيم التي ترفضه لمرارته، ولكن يبدو أن تروتسكي كان قد حاز ثقة لينين كاملة، وعاونته هذه الثقة بالإضافة إلى ما توافر له من قدرة على الخطابة، ومن مهارة وحزم في الإدارة، عاونته على تحويل «الفوضى» إلى «نظام» وتحقيق النصر من هزيمة منكرة، وكان لينين ـ على ما قال هو نفسه يعرف بأن التاريخ في بعض

(١) راجع حديث تروتسكي كاملًا في Bunyan & Fisher نفس المرجع ص٥٦٩ ـ ٥٧٢، وفي خطبته يوم ٢١ من أبريل سنة ١٩١٨ في ص٥٧٢، وخطبته يوم ٢٠ من يونيو سنة ١٩١٨ وردت في كتاب:

James Bunyan, Intervention, Civil War and Communism In Russia April-December, ١٩١٨: Documents and Materials (Baltimore, ١٩٣٦), pp. ٢٦٨ - ٢٧٠.

الأوقات «يجعل المشكلات العسكرية لب أو نواة المشكلات السياسية»[(١)] .

وكانت جرأة من تروتسكي أن يستخدم في الجيش الأحمر «فنيين» و «أخصائيين» من الضباط وضباط الصف ممن كانوا في الجيش القديم، لقد كان هؤلاء موضع كراهية كل فرد وكان الناس يقولون عنهم: «ذوو العلامات الذهبية»، كان هؤلاء من النبلاء المثقفين ومن أولاد ثراة البرجوازيين، ولكن يقول تروتسكي: «لقد كان من الضروري أن نضع موضع التقدير ضباط الجيش القيصري بسبب تدريبهم الذي وصل بهم إلى مرتبة الاحتراف، وبدونهم كان لزامًا علينا أن نبدأ من جديد، وليس من المحتمل أن يمنحنا أعداؤنا الوقت الكافي لنصل بالتدريب إلى المستوى الضروري اللازم توافره»؛ وقد رد تروتسكي على القول بأن في استخدام أفراد عملوا في خدمة النظام القديم والحكم القيصري، «لكل شيء خطره، لقد كان من الضروري أن يتوافر لنا مدربون يعرفون شيئًا في فن الحرب، لقد تحدثنا إلى أولئك القادة بصرامة، وقلنا لهم: «إن في البلاد سيدًا جديدًا هو الطبقة العاملة، ويحتاج هذا السيد مدربين لتدريب الأفراد الجدد ولتعليمهم كيف يقاتلون البرجوازيين»، فإذا خدمونا بإخلاص فإننا نمنحهم كل معاونتنا ولكن إذا حاولوا القيام بأي عمل ضد الثورة، فسنجد طريقة خاصة لمعاملتهم»[(٢)] .

---

(١) Wollenberg نفس المرجع ص١ و ٣ ـ ٤ .

(٢) Bunyan and Fisher, op. cit. pp. ٥٧٠ – ٥٧١ Bunyan op. cit. p. ٢٦٧; My Life p. ٤٣٨. =

=كان السلاح الذي هدد به تروتسكي الضباط هو الاحتفاظ بأسرهم كرهائن وقد قال: «أن أولئك الذين يفكرون في خيانة الثورة يجب أن يعرفوا بأنهم إنما يخونون أسرهم، آباءهم وأمهاتهم وشقيقاتهم وأشقاءهم وزوجاتهم وأطفالهم» ولإعطاء هذا التهديد

ولقد كان هذا الإصرار من تروتسكي على استخدام ضباط من الجيش القديم سبب سوء علاقاته بزملائه، ولكنه باتباعه لبرنامجه برغم كل مقاومة ونقد فإنه لم يكون جيشًا فحسب في وقت قصير بل استطاع أن يستخدم جنودًا ممتازين بينهم توخاشـڤسكي tukhachevsky وشابوشنكوف Shaposhinkov الذي حقق للجيش الأحمر درجة من الاحتراف لم يكن من الممكن أن يحققها بأي وسيلة أخرى.

وبين إبريل سنة ١٩١٨ وأغسطس سنة ١٩٢٠ زاد عدد الضباط القدامي الذين عملوا في الجيش الأحمر ـ بينهم عدد من الأفراد الطبيين والبيطريين الذين لا يمكن أن يستعاض بهم غيرهم ـ على الثمانية والأربعين ألفًا، وإلى هؤلاء يجب إضافة مائتين وخمسين ألفًا من ضباط الصف الذين لا يمكن المبالغة في أهمية دورهم في الاحتفاظ بمعنويات الجنود والنهوض بمستوى الضبط والربط بينهم، ولقد ارتقى بعض هؤلاء درجات السلم العسكري إلى رتب الضباط، بل ووصل بعضهم إلى أعلى مراتب القيادة، وكان في مقدمتهم بوديني(*) النابغة الذي نال شهرة أيام الحرب الأهلية بزتها الشهرة التي نالها أيام الحرب العالمية الثانية، وقد بقي عدد كبير من ضباط الجيش القيصري في الجيش الأحمر بعد الحرب الأهلية واكتسبوا احترام حتى أولئك الذين عارضوا مجرد استخدامهم في البداية.

طابعًا مؤثرًا فقد اعتقل أفراد أسر الذين شك في خيانتهم للثورة، ولقد قال أحد الصحفيين الأمريكان «لو كان تروتسكي قاسيًا في هذا فإن طابع الثورة كان القسوة» Chamberlin نفس المرجع ج٢ ص ٣٠ ـ ٣٢ .

(*) سيمن ميخائلوڤيتش بوديني، ولد سنة ١٨٨٣، كان من ضباط الفرسان الذين ترقوا من صفوف الجند، منح لقب ماريشال الاتحاد السوڤييتي سنة ١٩٤٥ «معجم ويبستر ص١٩٠» «المترجم»

وهكذا قال ڤورشيلوف في الاحتفال بالذكرى الثامنة لتكوين الجيش الأحمر: «إنهم إخوة زملاء لنا وعلى استعداد للموت في سبيل حكومة العمال والفلاحين مثلهم في هذا مثل الزملاء في الحزب»[١].

ولكي يمكن دوام مراقبة ضباط الجيش القديم، ولتنفيذ الدعاية الحزبية بين الجنود، ولتعليم الجنود الفلاحين أغراض الثورة وأهدافها ودوافع الحرب الأهلية، ونتائجها، ولغير هذا من المسائل غير العسكرية، عين تروتسكي قوميسيريين سياسيين في كل وحدات الجيش الأحمر.

ولم يكن لهؤلاء القوميسيريين أن يتدخلوا في العمليات الحربية، بل كانوا مسئولين عن معنويات وإخلاص أفراد الوحدات التي يتولون إدارتها، فإذا هبط مستوى معنويات وحدة كان القوميسير السياسي المسئول عن هذا، وقد آمن تروتسكي بالحكمة الثورية القديمة القائلة «يطلق الرصاص على القوميسير غير الناجح لتشجيع الآخرين»[٢] Pour encourager les autres، ولهذا فإن مركز القوميسير لم يكن مطمح شباب الشيوعيين الصاعدين.

وفيما عدا غضب تروتسكي فإن القوميسير كان يتولى عملاً مجهدًا لا ينتهي فضلاً عن التعرض المستمر لرصاص العدو في أثناء المعركة.

وقد أحسن تروتسكي تقدير أعمالهم عندما قال عنهم:

«إنهم قد أوجدوا وأعدوا أقوامًا على أتم استعداد للموت في سبيل

---

(١) White, op. cit. p. ٢٠٧.

(٢) كانت السلطات العليا هي التي حدَّت من هذا الإسراف في أعداد القوميسسيريين على أن معاهد إعداد هؤلاء القوميسيريين كانت قد أنشأتها في البداية الحكومة البرجوازية الأولية إلا أنهم لم يوفقوا لأي نجاح سنة ١٩١٧ تبعًا لانهيار معنويات الجيش يوم ذاك.

قضية الطبقة العاملة».

على أنه ليمكن توافر العدد الكافي من القوميسيريين السياسيين درب الضباط الشيوعيون الشبان في المدارس العسكرية السوفيتية على هذا العمل، وكان على رأس شبكة مراكز التدريب هذه رجل من نيويورك اشتهر بتنظيمه لاتحادات العمال اسمه جولد فارب بتروفيسكي Goldfarb Petrovsky، ولم تزود مراكز التدريب الجيش الأحمر بالقوميسيريين القادة، بل وبجنود العصف المختارين أيضًا، وكان هؤلاء الضباط الشبان بعد فترات تدريب تتباين بين شهرين وستة شهور ـ تشتمل على تدريب عملي في جبهة القتال ـ يتولون أعمالاً ذات سلطات تزيد كثيرًا على ما يمكن أن يتولوه من أعمال تبعًا لتدريبهم العكسري[١] .

وقد حقق تروتسكي في تنظيمه وإمداده؛ بل وحتى في قيادته شخصياً للجيش الأحمر، حقق نجاحاً ملحوظاً يُعتبر واحداً من الأعمال الممتازة في التاريخ العسكري الحديث، على أنه لا يثير الدهشة أن تروتسكي بعمله هذا قد ضايق الكثيرين، وطئ أقدام الكثير، وصدم أكتاف آخرين، ومن ثم أثار معارضة عنيفة له في صفوف الحزب.

كان تروتسكي على كفاية للوقوف من خصومه موقف الند في ميدان الجدل والنقاش، وكانت لباقته وقدرته على الخطابة تجعلان في جانبه أفضلية، ولكنهم كانوا أقوياء، ولم تكن القدرة على الخطابة هي السلاح الذي يصلح لمقارعة هؤلاء الرجال الفارهين، وصحب النقاش حول السياسة العسكرية بكفاح أساس مرير للوصول إلى السلطة والسيطرة.

---

(١) Chamberlin op. cit, II ٣٤, ٣٦.

وكان بين الرجال الأقوياء الذين وقفوا في وجه تروتسكي رجل، كان من المقدر أن يلعب دورًا أهم وأكبر في تاريخ الجيش الأحمر، كان اسم هذا الرجل چوزيف ستالين[١]، الرجل الذي كان يوم كتابة هذه السطور يحمل فخورًا لقب ماريشال الاتحاد السوڤيتي.

ـ ٤ ـ

وقد حاربت المعارضة تروتسكي في عدة ميادين ومن زوايا مختلفة، وحاربته بخاصة في مسألة استخدام الضباط القدامى في الجيش، وفي الاستقلال الذاتي الذي يجب أن يكون للوحدات في الميدان، وفي مسألة حرب العصابات وفي أساليب الضبط والربط العسكريين، كما حاربته في الاتجاهات العامة التي قدرها للحرب الهجومية والحرب الدفاعية.

ولقد أجمل تروتسكي من الناحية الموضوعية موقف خصومه عندما كتب: «لقد حاولت المعارضة أن تجد في موقفها نظرية منطقية، لقد أصر المعارضون على أن الجيش المركزي القيادة هو الصورة الصحيحة في الدولة الرأسمالية، والثورة يجب أن تنفض أيديها من حرب المواقع الثابتة ومن الجيش المركزي القيادة أيضًا، إن روح الثورة هي القدرة على التحرك، القدرة على توجيه هجمات سريعة، والقيام بالمناورة، وأن تتشكل قواتها المقاتلة في قوات منفصلة صغيرة تتكون من جميع الأسلحة لا ترتبط إلى

(١) چوزيف ستالين، كان اسمه عند مولده، يوسيف ڤيسار يونوڤيتش د. زوجاشـڤيلي، ولد سنة ١٨٧٩ ومات سنة ١٩٥٣، تولي مركز السكرتير العام للحزب الشيوعي في الاتحاد السوڤييتي من سنة ١٩٢٢ حتى وفاته سنة ١٩٥٣، تولى مركز القائد العام للقوات السوڤييتية طوال الحرب العالمية الثانية، تولى رياسة الوزارة في الاتحاد ١٩٤١ ـ ١٩٥٣ . «المترجم».

قواعد، وتعتمد في عملياتها اعتمادًا مطلقًا على معاونة السكان الموالين لها، ويمكن أن تبرز فجأة وراء خطوط العدو... إلخ...، وفي إيجاز فإن تكتيكات الثورة هي تكتيكات الحروب الصغيرة».

وقد أمن تروتسكي بأن عقيدة خصومه ليست في الحقيقة غير «اعتبار عوامل ضعف روسيا هي المثالية التي يجب العمل لها»، ولقد شك في أن دروس الحرب الأهلية يمكن أن تطبق على حروب المستقبل غير المحددة الطابع والهدف[١] .

ولم يتقبل ستالين وڤورشيلوف الخضوع لسيطرة موسكو في مسائل الضبط والربط الخاصة بقواتهما، وكانا يعرفان أنهما بمهاجمتهما لأمر استخدام ضباط الجيش القديم فإنهما يحصلان على معاونة واسعة في صفوف الحزب وبين العناصر الصغيرة السن في الجيش الجديد، وكانا يعرفان أيضًا أن حرب العصابات صورة من التقاليد الشعبية المتأصلة في المجتمع الروسي، وأنهما يستطيعان أن يكتسبا أنصارًا أكثر عندما يقفان إلى جانب هذه الحرب ويفضلانها على الأساليب الأوروبية التي تتفق ومنطق حياة المجتمع الأوروبي، ولكن الواقع أن الخلاف والتضاد كان أعمق بكثير من المدى الضيق نسبياً الذي يمكن أن تثيره مثل هذه المشاكل.

وبدأ إذ ذاك نقاش حول النظريات العسكرية، والآراء والاتجاهات الاستراتيـچية، والأسس التي يقوم تبعًا لها تنظيم الجيش، على أنه كان في مقدمة الموضوعات التي عرضت للنقاش والجدل مسألة لها أهميتها: هل كانت هناك أو لم تكن عقيدة عسكرية ماركسية خالصة».

---

(١) My Life, p. ٤٣٨.

والواقع أن بعض قادة الجيش الأحمر النابهين والذين صنعوا أنفسهم وصقلتهم التجارب وبخاصة أمثال فرونز Frunze وڤورشيلوڤ Voroshilov وچوسڤ Gusev وكذلك توخاشڤيكي ظنوا بأنهم يمكن أن يستخلصوا من تجارب الحرب الأهلية نظرية عسكرية جديدة «للبوليتاريا» الثورية تقضي على أي نظرية عسكرية سابقة، فإذا ما وجدت هذه النظرية العسكرية الجديدة أو كان من الممكن صياغتها كان من الضروري أن تستخدم هدياً وتوجيهًا للجيش الأحمر.

ولقد كتب فرونز وچوسڤ سنة ١٩٢١: «من العوامل الأساسية لضمان استغلال أقصى قوة يمكن أن تتوافر للجيش الأحمر، عامل تحويله إلى تنظيم عمودي متماسك من القمة إلى القاع، فترتبط أقسامه، ليس فقط بأيديولوچية سياسية مشتركة، بل وبوجهات نظر متحدة متماثلة بالنسبة للمشكلات العسكرية التي تواجه الجمهورية، مع الاتفاق على وسائل حل هذه المشكلات، وبخاصة الاتفاق على أسلوب تدريب الجنود على القتال»[(١)] .

وقد رأى المسئولون عن الإدارة الفعلية للجيش أن مثل هذه النظريات ليست إلا محاولة لفرض سيطرة الحزب على هيئة أركان الحرب، وتدخلاً من الحزب في تطور الفكر العسكري، وتوقيع العقوبات على أولئك الذين لا يرتضون سيطرة هذه الرياسة؛ وكان لهذه المخاوف نصيبها من الواقع؛ ذلك لأن الكبت الذي تستخدمه الدولة الطغوائية لم يلبث أن امتد أثره إلى الشئون العسكرية.

---

(١) M. Frunze, Selected Works (Moscow, ١٩٣٤), p. ٧. على ما نقلها White في نفس مرجعه السابق ص١٦١، ويلاحظ أن المؤلف عدل هنا من الترجمة.

وقد أنكر تروتسكي وجود أي نظرية عسكرية ماركسية، وقال: «إن الماركسية تستند إلى العلوم التاريخية والاجتماعية، وليست الحرب علماً ولن يكون هناك علم للحرب ومع أن الحرب تعني بعدة علوم إلا أنها ليست في حد ذاتها علم، والحرب فن عملي وفيه مهارة، فكيف يمكن أن تصاغ مبادئ فن الحرب بمعاونة الأسلوب الماركسي؟

إن هذا مستحيل، ومثله في الاستحالة مثل عدم إمكان إيجاد نظرية في فن العمارة أو كتابة كتاب في علم البيطرة بمعاونة الماركسية(١) .

وإلى أبعد من هذا فإنه حتى لو وافق المرء على أن «العلم العسكري له كل مظاهر العلم فليس من الممكن بحال ما أن تقوم دعائم هذا العلم في ضوء العقيدة الماركسية، ومحاولة تكييف هذه العقيدة في النطاق الخاص بالشئون العسكرية لهي محاولة خاطئة لها خطرها»، ومضى تروتسكي في حديثه ليحذر من أن مناقشة مثل هذه الأمور يجب ألا تثقل بالمصطلحات التي جاءت بها الماركسية، ولا أن تستخدم فيها الكلمات ذات الرنين العالي ولا هذه الأشياء التي غالبًا ما تتحول لتكون أصدافًا بلا لآلئ(٢) .

وقد أبدى تروتسكي استعداده ليتقبل أن العقيدة الماركسية قد يمكن أن تقرر الاستراتيـجية العريضة للثورة البلشفية في السياسة العالمية، ولكنه

(١) Ttotsky, How The Revolution Developed. Its Militqry (Power Moscow, ١٩٢٤).

على ما نقلها S. Gusev في بحثه المرسوم بعنوان:

"Our Disagreements in Question of War"

المنشور في العدد الخامس عشر لسنة ١٩٢٤ من مجلة The Bolshevist ص٣٤ ـ ٤٩ والذي ترجمة Illw. T. B وكما نقله White في كتابه:

"Soviet Philosophy of War" loc. cit., p. ٣٣٩.

(٢) Trotsky, ibid, cited by White, Growth of the Red Army, p. ١٦٧.

عارض المحاولات الأيديولوچية التي تجيء عن هواية لا احتراف للاقتراب من النظرية العسكرية ومحاولة إيضاحها دون الإشارة إلى تجارب الأمم الأخرى، وتجارب النظام القديم في روسيا نفسها، «وعندما تتطور الاستراتيچية تبعًا لوجهة نظر الثوريين صغار السن تكون النتيجة فوضى لا قيمة لها»؛ سيما وأنه هناك عوامل لها طابع الدوام تؤثر في الحرب كالقوى البشرية والجغرافية بخاصة، وهذه يظل لها تأثيرها حتى لو تغيرت التكنولوچيا وتغير البناء الاجتماعي والتنظيم السياسي، ومن ثم فإن هذه العوامل الدائمة نسبياً يجب أن تدرس بعناية كعوامل انتقال في الميدانين الداخلي والخارجي على السواء، وقد أضاف تروتسكي هنا أن الدور الأساسي للاستراتيچية بالنسبة للاتحاد السوڤيتي «أن يكون الروس متيقظين وأن نبقى أعيينا مفتوحة»[١] .

على أنه مهما بدت وجهات نظر تروتسكي معقولة منطقية لمن يدرس الشئون العسكرية دراسة موضوعية ولكنها أثارت وأغضبت الشيوعيين، وكان. ميخائيل. ف. فرونز هو المتحدث الرئيسي باسم الشيوعيين، ووراء فرونز وقف ستالين يشد من أزره، ولم يكن فرونز جديدًا على الدرب بل كان له نشاط ثوري إيجابي منذ سنة ١٩٠٤، وكان العبقرية الموجهة لتنظيم غير قانوني في الجيش القديم إلا أن أول عمل جدي أسهم به أكسبه شهرة واسعة كان قيادته للجيوش التي عملت في الشرق ضد «كولشاك» وعملت بعد ذلك في القرم ضد «رانجل»، وخرج فرونز من الحرب الأهلية «كتكتيكي» و«كاستراتيچي» من الدرجة الأولى.

(١) White نفس المرجع ص١٦٤، ١٦٥ .

ومع أن فرونز لم يكن قريناً لتروتسكي في الجدل والنقاش إلا أنه كان خصمًا عنيدًا له قدره، وإلى أبعد من هذا فإنه كان في جانب «الملائكة» أي أنه كان يستند إلى الرجل الذي سيخلف لينين.

وفي سنة ١٩٢٤ عين فرونز نائب رئيس المجلس العسكري الثوري وبالتبعية كان على رأس الجيش الأحمر، وفي يناير سنة ١٩٢٥ عين قوميسير الشعب للشئون العسكرية والبحرية، وبعد ذلك بقليل لم يعد لتروتسكي أي نفوذ في السياسة السوڤيتية.

ومع أن فرونز مات قبل نهاية العام في سن مبكرة هي سن الأربعين، إلا أنه مات بعد أن أدخل على تنظيم الجيش وإجراءاته عدة اصطلاحات.

«وعلى ما يقول فرونز فإن العامل الأساسي لصياغة عقيدة عسكرية (كافية) صالحة هو تمشيها مع الأهداف العامة للدولة، وتكيفها مع الموارد المادية والمعنوية التي تتوافر لها، أي للدولة»، ثم إن هذه العناصر موجودة قائمة وكل عمل أولئك الذين يصوغون النظريات العسكرية أن يتفهموا هذه العناصر وأن يجمعوا بينها في وحدة واحدة متناسقة مع «التعاليم الأساسية للعلم العسكري وتبعًا لاحتياجات الفن العسكري»:

وهنا في هذه المرحلة من الحديث كان فرونز يختلف قليلاً عن تروتسكي الذي واجه الصعاب عندما وقف يجادل فرونز وڤورشيلوف أمام المؤتمر الحادي عشر للحزب سنة ١٩٢٢ .

على أن فرونز ذهب إلى أبعد من هذا واضعًا كل شيء موضع تقديره، ويقول بأن مساحة أرض الجمهورية السوڤيتية وقلة عدد الجنود الروس نسبياً توجبان أن تكون النظريات التكتيكية والاستراتيچية الأساسية

للجيش الأحمر ذات طابع هجومي، وأن تستخدم في حرب خفيفة الحركة تقوم على المناورة على نقيض حرب المواقع والخنادق التي كانت طابع عمليات ١٩١٤ ـ ١٩١٧؛ وقد أوضحت تجارب الحرب الأهلية أن القوات الثورية تتوافر لها طاقة خاصة للقيام بحرب المناورة مع الصلاحية لهذا، هذا فضلاً عن أن روح الثورة تتطلب نشاطًا مستمرًا مع الجرأة في القيام بحرب العصابات وغيرها من الوسائل التي تمكن من نقل الحرب داخل الأرض التي يحتلها العدو، ولما كان من غير الممكن لأسباب سياسية وعسكرية التوصية بحرب دفاعية، وجب أن تلعب التحصينات دورًا صغيرًا، أو ألا يكون لها أي مكان في التنظيم السوفيتي(١) .

وهنا يجب أن نلاحظ أن تروتسكي وزملاءه المحترفين ـ فيما عدا توخاشـفيسكي ـ قد رأوا أنه ليس من الممكن أن يقال إطلاقًا، أو أن يصدر حكم قاطع بأن الهجوم أو الدفاع، صحيح أو خطأ، جيد أو رديء.

صحيح أنه لا يمكن تحقيق النصر إلا بالهجوم، ولكن الثورة معنية أولاً بالهجوم السياسي الذي يمكن أن يتمشى مع الدفاع الاستراتيـجـي؛ ثم إن الإجهاد الذي أصاب روسيا بعد الحرب العالمية الأولى وبعد الحرب الأهلية، وتقاعس الفلاحين وترددهم في القيام بمغامرات عسكرية أخرى، وكذلك الاقتصاد المتخلف والحاجة الماسة إلى إيجاد قوات مسلحة كبيرة

(١) أجمل «هوايت» White ولخص آراء فرونز في الفصل السادس من كتابه، الذي يعتبر أفضل ترجمة إنجليزية للنقاش الكبير الذي دار سنة ١٩٢١ ـ ١٩٢٢، وقد كتب هذا الكتاب على أساس كتابات الذين أسهموا في هذا النقاش، وعلى أساس سجل إجراءات المؤتمر السوفييتي الحادي عشر للعمال والفلاحين والقوزاق وممثلي الجيش المنعقد بموسكو سنة ١٩٢٢ .

العدد جيدة التدريب، كل هذا في جملته يوصى بالحذر والحرص عند التفكير في الهجوم العسكري، وحرب الإجهاد الدفاعية هي الحرب الوحيدة التي يمكن أن تتفق عليها الطبقات التي تكون الجمهورية الروسية، ثم هي أيضًا الصورة الوحيدة للحرب التي تمكن من الاستغلال إلى غاية ما يمكن للمساحة الكبيرة وللموقع الجغرافي وللاقتصاديات المتخلفة للبلاد.

وإلى أن تستطيع روسيا أن تُطَوِّرَ من مواردها وتبني وتقيم من قوتها الصناعية فإن هذه هي الاستراتيـچية الوحيدة التي يمكن معها الأمل في النجاح، هذا عدا أنه لا يمكن أن تتوافر عقيدة عسكرية يمكن أن تصلح لكل أمر طارئ.

وقد وضع سـﭬيتشين ـ وهو ضابط سابق في الجيش القيصري استخدم أستاذًا في كلية أركان الحرب ـ هذه الآراء في السطور التالية:

«من الضروري في كل حرب أن يخطط لها سلوك استراتيـچي خاص بها، ولكل حرب ظروفها وملابساتها التي تتطلب منطقًا خاصًّا، بدلاً من اتباع طابع متماثل في كل حرب.

وفي الإطار الواسع للنظرية العامة لصناعة الحرب المعاصرة نجد العوامل التي تسمح باستراتيـچية مختارة لهذا الظرف المعين»[١] وفي إيجاز فإن الاستراتيـچية الصحيحة هي الاستراتيـچية المرنة.

وكان الكيان الدائم للتشكيل العسكري في الجمهورية الروسية هو بدوره كذلك مثار نقاش جدلي طويل، وناقش أولئك الذين يتولون الأمر

(١) A. Svechin, Strategy (second edition, Moscow, ١٩٢١). pp. ٨ - ٩ cited in translation by White, p. ١٦٣.

هذا الكيان للوصول إلى قرار: هل يجب أن يكون الجيش الأحمر جيشًا عاملاً دائم التكوين له طابع الاحتراف، وتكون الجندية بالنسبة لأفراده حرفة وصناعة؟ أو هل يكتفي بأن يكون صورة من صور الميليشيا، قوات تتجمع للتدريب ثم تسرح حتى تضطر الحاجة إلى تعبئتها بسرعة لقتال العدو؟

وكان لهذه المسألة أهميتها تبعًا لما لها من صلة وثيقة بالجدل الذي يدور حول العقيدة العسكرية الماركسية؛ وفي الإجابة عن هذين السؤالين، أو بمعنى أدق للوصول إلى قرار حاسم في الكيان الدائم للتنظيم العسكري للقوات الروسية استوحى الشيوعيون وجهات نظرهم من ماركس وآنجلز اللذين قالا بأن الصورة المثالية للتنظيم العسكري للدولة الشيوعية هي «الميليشيا» وقد تأثر أولئك الشيوعيون أيضًا بـچان چوريه Jean Joures الذي كتب كتابه «الجيش الحديث» Larmée Nouvelle الصادر سنة ١٩١٤، وكان لكتابه أثره في توجيه الآراء الاشتراكية في أوروبا[(١)] .

على أن تروتسكي وقف من مسألة «الميليشيا» موقفًا أقل قوة من موقفه من مسألة العقيدة العسكرية.

بل إنه لم يقف موقفًا محددًا واضحًا حتى ليمكن القول بأنه من الممكن أن يتقبل ـ مع بعض التحفظات ـ فكرة الجيوش الإقليمية، فإذا ما وضعنا الإصلاحات العسكرية لسنة ١٩٢٤ـ ١٩٢٥ موضع التقدير استطعنا أن نقول بأن فرونز أيضًا لم يكن راضياً عن أن يقف موقفًا يسارياً متطرفًا من

---

(١) راجع الفصل السابع للحديث عن ماركس وانجلز، وراجع الفصل الخامس عشر للحصول على معلومات عن چان چوريه، والروس في الغالبية يتنكرون للآراء التي جاء بها أولئك الذين ارتبطوا بالدولية الثانية ولكن مع هذا التنكر فإنهم لم يستطيعوا إطلاقًا الإقلال من قيمة ما خلفوه وراءهم من كتابات وآراء.

المسألة، ولكن مع هذا فإن الضباط المحترفين لم يتقبلوا شيئًا غير «الجيش النظامي»، الجيش العامل الذي يتكون من جنود محترفين دائمين، وقد عرض توخاتشيـڤسكي في لباقة وجهات نظرهم، ونجح توخاتشيـڤسكي في إجمال قضية الجيش العامل وضرورة وجوده لإمكان قيام إمبراطورية شيوعية معتدية.

* * *

وكان ميخائيل ن. توخاتشيـڤسكي (١٨٩٣ ـ ١٩٣٧) ملازمًا في فجر العمر بالجيش القيصري عند ما انضم إلى البولشفيك سنة ١٩١٧، وكان بطل الحرب ضد بولنده، كان ذكياً، لبقًا، ماهرًا، شجاعًا، طموحًا.

وكانت تتوافر له وطنية روسية بدائية، وتبعًا لأنه كان من نسل كونت أوف فلاتدرز فلربما يكون قد أمل في أن يكون نابليون الأحمر، كان الجيش هو الشيء الوحيد الذي يشغله، ولقد نجح إلى حد بعيد في مختلف المراكز التي شغلها من مدير الأكاديمية العسكرية إلى رئيس هيئة أركان الحرب، وقد أعدم سنة ١٩٣٧ أثناء حركة التطهير الواسعة التي حدثت إذ ذاك متهمًا بالخيانة، إلا أن تفاصيل هذه التهمة لم تعرف وما زالت من الأسرار الغامضة التي تختفي في ملفات الكرملين ***والواقع*** أننا في دراستنا لتوخاتشيـڤسكي لا نستطيع أن نقرر أكان هو ـ في حقيقته ـ شيوعياً مخلصًا، أم وطنياً قومياً، أم رجلاً طموحًا كانت كل أطماعه في التقدم على أساس كفايته العسكرية. ولربما كان الوصول إلى قرار حاسم في هذا البحث هو الذي يمكننا من أن نقدر سبب وقوفه كهدف لجماعة من الرماة حملة البنادق سنة ١٩٣٧[١].

(١) لمعرفة قصة حياة توخاتشيـڤسكي يمكن الرجوع إلى كتاب: =

وكان توخاتشيفسكي يعتقد بأنه من الممكن بوساطة الهجوم السياسي والهجوم العسكري أن تصل الشيوعية إلى باقي بلاد العالم في أعطاف ما يمكن أن يقال له الإمبراطورية العسكرية.

وقد عورضت نظريته عن التقهقر والارتداد على وثبات في هذه المناطق الفسيحة من روسيا على أساس أن فقدان الأرض المنتجة له تأثيره في إمكانيات الأمة في الحرب.

هذا عدا أن غزو الأرض له أهميته بالنسبة للدولة الثورية لأن هذا يمكن الجيش المتقدم من نشر الثورة أولاً، كما يمكنه أيضًا من تجنيد الطبقات الكادحة المستغلة في بلاد العدو، وكفاح الطبقات مرحلة لها أهميتها من مراحل كل حرب.

وقد اقترح توخاتشيفسكي أن يكون للشيوعية الدولية هيئة أركان حرب عسكرية تعني بإعداد الخطط لاستخدام الطبقات الكادحة المسلحة في نشر الثورة في العالم، ولكن مع ترك الاعتبارات السياسية والأيديولوجية جانبًا فإن الغرض الأساسي في كل حرب هو الحصول على النصر بتدمير جيش العدو وقواته المسلحة، وهذا شيء على ما يقول توخاتشيفسكي لا يتحقق إلا بالهجوم المستمر الذي لا هوادة فيه[١].

ويمكن أن تأمل الدولة الثورية التي تتبع استراتيجية هجومية في نجاح تخطيطها وكسب المعارك التي تخوضها قواتها المسلحة إذا ما توافر لها

= M. Berchin and E. Ben - Horin, The Red Army (New York, ١٩٤٢), pp. IIC- ١١٤.

(١) White, op. cit., Chap. VII passim

راجع أيضًا مقال توخاتشيفسكي الذي وسمه بعنوان: War as a Problem of Military Struggle في دائرة المعارف السوفييتية المجلد ١٢ .

جيش عالي المستوى من ناحيتي الاحتراف والمهارة، وهذا المستوى العالي لا يمكن أن تدركه الميليشيا، وقد كتب توخاتشيڤسكي وهو بعد في السابعة والعشرين من عمره كتيبًا صغيرًا هاجم فيه الميليشيا قائلاً: إنها تنظيم لا يصلح للحكومة السوڤيتية ولا للحزب الشيوعي اللذين يعملان لتأمين الثورة داخل روسيا ولنشر كفاح الطبقات في العالم كله لخارجها، وعلى النقيض فإن الميليشيا أصلح تنظيم يتفق مع المنطق ***والواقع*** ، بل وأقوى تنظيم عسكري لدولة برجوازية قد وصلت إلى ذروة تطورها الرأسمالي؛ وفي المجتمع البرجوازي تعتبر شبكة الخطوط الحديدية الجيدة العامل الفعال بالنسبة لحجم الجيش وتعداده، كما تكون العامل الكبير الأهمية بالنسبة لتطوره الفني، وهنا لا يكون تدريب الجيش مهمًّا بالقدر الذي لتدريب هيئة أركان الحرب التي تكون هي الناحية البارزة في الصورة كلها، «ذلك لأننا عندما ننظر للأمر من الناحية العسكرية السلمية الكاملة فإننا نجد أن «الكيف» يعوضه «لكم»، ويكون تعداد الجيش بديلاً لكفاية ومهارة أفراده».

وفي الجيوش الرأسمالية ـ كما هي الحال في المجتمع البرجوازي من ناحية عامة ـ يمكن للطبقة الصغيرة الحاكمة أن تسيطر على الجماهير نتيجة لاحتكارها الموارد المادية، وهنا تكون الميليشيا متكيفة تمامًا ومتمشية مع النظريات والإجراءات السياسية للرأسمالية.

ولكن الأحوال في الدولة الثورية تخالف هذا وتباينه، فستواجه الثورة الاشتراكية حربًا مستمرة حتى تتحطم هي وتدمر أو حتى تنتشر الثورة في العالم كله، ومهما كانت الحال فلا حاجة إلى مناقشة نظام الميليشيا، إذ لا مكان لها هنا.

ومع هذا فإن للجمهورية السوڤيتية في نفس الوقت جيشًا من العمال، جيش يقوم على أساس أداء الخدمة العسكرية إجبارياً، ومع الوقت يكون التجنيد دولياً ويتخطى كفاح الطبقات الحدود القومية، وعندما يحمل علم الثورة إلى خارج أرض السوڤيت يتقاطر من حوله الجنود العمال المدربون من سكان البلاد المغزوة، وهذا يؤكد نجاح السياسة الهجومية المليئة بالجرأة(١) .

لقد كان هذا برنامجًا جريئاً، وكانت جرأة أكبر من أن تحتملها الحكومة السوڤيتية، ولهذا بقي الشيوعيون يتابعون دفاعهم عن نظام الميليشيا، ينتقدون استخدام الأخصائيين العسكريين البرجوازيين، ويحذرون من «أولئك الذين يمتطون الخيل»، وفشلت إصلاحات سنة ١٩٢٤ أن تحسم هذا النزاع؛ لأنها أقامت جيشًا من المحترفين يصل عدده إلى ٥٦٠.٠٠٠، كما أوجدت ميليشيا إقليمية تتكون من ٤٣ فرقة، وهكذا فإن فرونز الذي وقف أصلاً إلى جانب تكوين الميليشيا ضد إنشاء الجيش العامل تولى الأمر على الجيش الأحمر وليس هو بالجيش العامل في جملته، كما أنه ليس بميليشيا إقليمية في كل وحداته، ولكنه كان خليطًا مثمرًا؛ ذلك لأن هذه الحال سمحت لشبان الاتحاد السوڤيتي طوال السنوات الحرجة أن ينتفعوا الانتفاع كله من الاستكمال التقليدي والفني من تنظيماتها العسكرية، كما أنها ظلت في نفس الوقت تقدم للجيش العناصر الجديدة التي كانت نواة التقدم في الآراء السياسية والاستراتيـچية(٢) .

---

(١) M. Tukhachevsky, Die Rote Armee und die Miliz.
الترجمة الألمانية طبع لبزج ١٩٢١ وبخاصة الصفحات ٩ ـ ١٠، ١٨، ١٩، ٢٥، ٣١ .
(٢) يعتبر كتاب:

على أننا في عنايتنا لدراسة أوجه الخلاف بين أولئك الذين أسهموا في النقاش والجدل حول السياسة العسكرية السوڤيتية ١٩٢١ ـ ١٩٢٤ قد يكون من السهل أن نتعرف النقاط التي اتفق عليها أولئك الذين أسهموا في النقاش، فالجيش الروسي يجب أن يكون جيشاً للطبقات وأن يتكون من العمال والفلاحين، وإلى غاية ما يسمح للبرجوازيين ومن على شاكلتهم من الجماعات الأخرى فإنهم يتولون الأعمال التي وصفها تروتسكي «بالأعمال القذرة» في كتائب الأعمال وما يماثلها، وكذلك أن يشتمل القسم الذي يقسمه جنود الجيش علي الولاء ليس للجمهورية السوڤيتية فحسب بل والولاء للطبقة العاملة أيضًا: «وإنني أتعهد بأن أحتفظ بشرفي كمحارب في جيش العمال الفلاحين»[(١)]، وأن الضبط والربط يجب أن يتوافر دائمًا بحال جيدة، كما أن وحدة القيادة يجب أن تتحقق نظرياً لو لم يمكن أن تتحقق فعلاً، وألا تمتد سلطات القوميسير السياسي إلى المسائل الخالصة للشئون العسكرية؛ وقد اتفق أيضًا على ضرورة الدفاع عن الثورة ضد «المؤامرة الدولية الرأسمالية المسلحة»، وأن السياسة العسكرية للحكومة السوڤيتية ـ مهما كانت الصورة التي تجيء فيها ـ يجب أن تقوم على أسس شيوعية ونظرة ثورية في الحياة، وأن موارد الأمة يجب أن تتطور وأن تتسع الصناعة إلى الحد الذي لا يجعل للتحديدات المادية أي أثر يعطل من نمو وكفاية الجيش الأحمر.

N. Basseches, The Unknown Army (New Youk, ١٩٤٣).

أحسن مرجع لايضاح النظرية العسكرية السوڤييتية وتاريخها، أما عن اصلاحات سنة ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥ فيرجع إلى كتاب White نفس المرجع الفصل الثامن (Frunce's Arny).

(١) يرجع لمعرفة نص القسم إلى كتاب Bunyan and Fisher، نفس المرجع ـ ص ٥٧٤

ـ ٥ ـ

على أن المتناقضات التي بدت في المسائل العسكرية السوڤيتية طوال السنوات من ١٩١٨ إلى ١٩٢٤ إنما ترجع إلى ثلاثة عوامل رئيسية هي:

أولاً: كانت نتيجة حتمية للفوضى التي جاءت بها الثورة نفسها والتي أربكت تنظيم كل الوكالات والإدارات، ودفعت المدنيين غير المدربين إلى مواقف لها خطرها في احتمالهم مسئولية إدارة الحرب، ولا شك أن ما حققه لينين وتروتسكي وغيرهما إلى غاية ما استطاعوا ليعتبر شيئًا ممتازًا؛ ذلك لأن العوامل التي توجد «مهيجًا ثورياً» ليست بالضرورة هي نفس العوامل التي توجد استراتيـچياً عسكرياً كفؤًا.

وثانيها: أن النقاش الذي دار خاصًا بالسياسة العسكرية لم يدر داخل نطاق الإطار الضروري للسياسة الخارجية، وعلى سبيل المثال لم يكن أولئك الذين اشتركوا في النقاش على بينة تمامًا بما إذا كانت المسئولية الأولى للحكومة النهوض بالثورة الدولية أو أن مسئوليتها الأولى أن تضمن نجاح الشيوعية في البلاد؛ وفي المراحل الأولى لمفاوضات بريست ليتوڤسك كان من الواضح أن انتباه لينين موجه نحو العمل على قيام حرب أهلية أوروبية، ثم تباينت السياسة بعد ذلك من وقت إلى آخر، كما اختلفت وتعدلت بتغير الأفراد أنفسهم.

ولكن كان من الواضح أنه إلى أن يتم الوصول إلى رأي في هذه المسألة الأساسية فمن غير المفهوم مناقشة مسائل أخرى مثل أفضلية الدفاع على الهجوم؛ أو المناورة وخفة الحركة ضد المواقع والتحصينات.

إن أهمية العلاقة التي تربط بين السياسة الخارجية والسياسة العسكرية

لتتطلب الدراسة العميقة في كل أمة في العالم، ولهذا لم يكن من المتوقع أن تكون هذه الأهمية واضحة مفهومة للبولشفيك من البداية.

وثالثها: ـ كما قيل من قبل ـ كان النقاش الخاص بالمسائل العسكرية نتيجة للأطماع الشخصية والكفاح الأساسي بقصد السيطرة على الحزب.

وبالتبعية السيطرة على الحكومة؛ لقد بقي لينين مريضًا لسنتين تقريبًا قبل وفاته في يناير سنة ١٩٢٤، وكانت حالته تزداد سوءًا يومًا بعد يوم، وفي طوال هذا الأمد كان اختيار خليفته يشغل كل فرد، ويؤثر في كل نقاش سياسي، كما كان يؤثر في السياسة العامة نفسها.

على أن استيلاء ستالين على السلطة وما صحب هذا من عمليات كبت في نطاق واسع داخل صفوف الشيوعيين قد أدى إلى السير بخطى واسعة نحو إيضاح الكثير من المسائل المهمة؛ ومع استثناء حل الكومنترن في تاريخ حديث فإن ستالين لم يغفل إغفالاً تامًّا عن الطابع الدولي للحركة الشيوعية، وإن كان الاتجاه العام لسياسته كان اتجاهاً قومياً، وكان هذا الطابع القومي يزداد وضوحًا يومًا بعد يوم، وكان بلا شك يعني العناية كلها في الشئون الخارجية بأمن الاتحاد السوفييني أكثر مما يُعنى بنقل الثورة إلى ما وراء الحدود الروسية؛ وقد يمكن أن توضح حياة ستالين أهدافه إلى حد ما ومن جهة أخرى فإن هذه الأهداف كانت تتأثر إلى حد ما أيضًا تبعًا للتطورات خارج روسيا وبخاصة قيام ألمانيا النازية، وما أبداه هتلر علانية وصراحة من تطلعه للاستيلاء على الأراضي السوڤيتية، ومع أنه قد حدثت بعد تحولات في الاتجاه الأساسي لسياسة ستالين إلا أن أقوى ما في هذا الاتجاه ظل ثابتًا يتبع الاتجاه الأصلي.

وعلى خلاف ما حدث للينين وتروتسكي وكثير من البولشفيك الآخرين فإن چوزيف ستالين لم ينف إلى خارج روسيا، كان ستالين قد قام بكفاح لا هوادة فيه ضد النظام القيصري من سنة ١٨٩٦ إلى سنة ١٩١٧، وقد قبض عليه وسجن لمدد طويلة أكثر من مرة بسبب أعماله الثورية، ولكن كل الكفاح الذي قام به كان كفاحًا سرياً في أرض روسيا، وفي أرض الوطن الأم بقي يقاتل من أجل الشيوعية ومن أجل الوطن وقضيته.

ولم يكن ستالين وافر الثقافة، ولم يكن صاحب نظرية خاصة، ولكنه مع هذا أبدى إصرارًا على متابعة تنفيذ مبادئ ماركس كما فهمها هو.

وقد كسب طوال سيطرته على آلة الحزب الشيوعي تجربة واسعة ودراية بالمسائل السياسية، ثم هو رجل «واقعي» لو كان من الممكن أن يتوافر رجل له هذا الطابع، ومع هذا كان ستالين لغزاً بالنسبة لباقي العالم؛ فقد بقي لجيل كامل يخطط السياسة العسكرية السوڤيتية، ويعد الجيش الأحمر إعدادًا فنياً ومعنوياً للكفاح العظيم ضد ألمانيا، هذا الكفاح الذي بدأ في يونيو سنة ١٩٤١ .

ولخمس عشرة سنة بعد وفاة فرونز في سنة ١٩٢٥ كان النائب الأول لستالين في المسائل ا لعسكرية هو الماريشال كليمنتي ڤورشيلوڤ، وكان ڤورشيلوڤ ثورياً من المدرسة القديمة ولد في لوچانسك(*) التي أطلق عليها اسم ڤوروشيلوڤجراد تكريمًا له، وقد ولد ابنًا لرجل يعمل في تعدين الفحم، وصحبه الفقر من فجر حياته، واحتمل شتى صنوف الحرمان، ومن ثم دفع دفعًا إلى النشاط الهدام وهو في فجر العمر، وانضم للبولشفيك سنة ١٩١٧

(*) مدينة في اكرانيا الشرقية سكانها ٢١٣.٠٠٠ نسمة.

وعمل مع ستالين في الجبهة الجنوبية طوال الحرب الأهلية، وكان على صلة وثيقة به وبخاصة في الدفاع عن «تزاريتسين».

ولما كان ڤورشيلوف واحدًا من أعدى خصوم تروتسكي، فضلاً عن أنه كان من الناحية الرسمية من المعارضين لنظرياته، كان من الطبيعي أن يختاره ستالين قوميسيرا للحرب.

وفي عهد ڤورشيلوف كان الجيش الأحمر واحدًا من أقوى الجيوش في العالم، «صحيح أن تطور الجيش الأحمر يرجع إلى جهود الدولة كلها بمختلف إداراتها، ولكن ما من شك في أن نصيب ڤورشيلوف في هذه الجهود كان كبيرًا[١]».

وكان ڤورشيلوف يؤمن بالضبط والربط وقوة الابتكار والكفاية المهنية أكثر من إيمانه بالنظريات في صناعة الحرب، وقد عاون على توجيه المراحل العسكرية لمشروعات السنوات الخمس، ولهذا فمن الضروري أن يعترف له ببعض الفضل في نجاح الاقتصاديات السوڤيتية للحرب.

ومن بين الأشياء الأخرى التي يرجع إليه فيها بعض الفضل إدراكه أهمية عدم مركزية الصناعة، وكذلك فضل نقل المصانع الحربية نحو الشرق.

على أنه بسبب الفشل في الحرب ضد فنلندة عين خلفًا له قوميسيرا للحرب، وفي سنة ١٩٤١، وكل إليه الدفاع عن منطقة ليننجراد ثم لم توكل إليه أي قيادة عسكرية في الميدان بعد ذلك.

ولما كان ڤورشيلوف في الغالبية سياسي الطابع أكثر من أن يكون

---

(١) Berchin and Ben Horin, op. cit., p. ١٠٤.

راجع أيضًا ص ١٠٠ ـ ١٠٤ من نفس المرجع.

جندياً فإنه قد وقف نفسه للأعمال الإدراية، وكخصم قديم لتوخاتشيـڤسكي فإنه لم يكن في البداية راغبًا أن يوكل إليه أي دور مهم في المسائل الخاصة بالجيش الأحمر، ولكن كفاية توخاتشيـڤسكي أدت به ـ بعد خمس سنوات قضاها يتولى أعمالاً صغيرة بسيطة ـ أن يتولى العمل كمساعد لقوميسيير الحرب مع رياسته لهيئة أركان الحرب.

وكان توخاتشيـڤسكي لاڤورشيلوف هو الذي شجع الدراسة النظرية للشئون العسكرية، وبتوجيه توخاتشيـڤسكي توافرت في الجيش الأحمر كتابات عسكرية من طراز ممتاز(١) .

وقد عدل توخاتشيـڤسكي من وجهات نظره الأولى عن الاستراتيـجية السوڤيتية تبعًا للتطورات الجديدة التي حدثت خارج روسيا، وتبعًا لنمو حركة التصنيع في الاتحاد السوڤيتي، وعلى سبيل المثال ففي مقدمته لكتاب «قانون خدمة الميدان» طبعة سنة ١٩٣٦ عارض نظرية الطاقة الخاصة للمناورة من جانب الجندي السوڤيتي، وبذلك فكأنه عارض طاقته الخاصة على القيام بالهجوم، ولقد كتب: «إن مسألة كيفية التغلب على قوة النيران الحديثة للخصم لا يمكن أن تتعلم من هذه النظرية، لقد كان

(١) كتب توخاتشيـڤسكي وشابوشنيكوف دراسات ممتازة عن الحرب البولندية، وفي سنة ١٩٢٧ نشر شابوشنيكوف كتابه عن هيئة أركان الحرب

(The Brain Trust of the Army).

وظهر كتاب تريندا فيلوف

(The Character and Operations of the Modern Army).

سنة ١٩٢٩، كما صدرت سنة ١٩٢٧ مجلة (الفكر العسكري)

Voysennania Mysl

ووفقت صفحاتها لنشر مقالات طلية عن الاستراتيـچية والتكشيك.

هناك بعض الزملاء الذين يؤكدون أننا في تدريبنا جندي الجيش الأحمر على الهجوم نحتاج عددًا أقل من القنابل التي يحتاجون إليها لتدريب الجندي في أي جيش رأسمالي وذلك بسبب التباين وبسبب الأفضلية في الروح المعنوية التي تتوافر لجندي الجيش الأحمر، ولكن خداع النفس هذا يؤدي فقط إلى خسائر لا ضرورة لها وإلى مضار لها خطرها، إن النظرية لا تتمشى مع ما يطلبه الرفيق ڤورشيلوف من أن نتعلم كيف نكسب الحرب بأقل خسارة في الدماء»[(١)] .

ومع أن توخاتشيـڤسكي قد اعترف بنمو وازدياد قوة الدفاع إلا أنه بقي مؤمنًا بأن الهجوم هو الاستراتيـچية الوحيدة التي تمكن من النصر، وكان توخاتشيـڤسكي على دراية بالمؤلفات العسكرية الأجنبية وكان يشير إلى ديجول بكلمات: «كاتب عسكري فرنسي نابه» وتحدث بحديث طيب عن عقيدة ليدل هارت الدفاعية.

كتب سنة ١٩٢٧ معبرًا عن رأيه في أن الحرب الأوروبية القادمة ستكون أوسع مدى وأكثر عنفًا من حرب سنة ١٩١٤ ـ ١٩١٨، وقال بأنها قد تستخدم حرب الخنادق ومعارك الإجهاد، ولكن لما كان الهدف في كل حرب هو تدمير قوات العدو والاستيلاء على موارد قواه الاقتصادية فإن هذا الهدف لا يمكن تحقيقه إلا بالهجوم.

وقال في خطبة ألقاها في يناير سنة ١٩٣٥ بأنه ربما تكون أهم الخاصيات التي يجب توافرها في الجيش: المرونة وتوافر الموارد، «نحن نحتاج الرجال الذين يستطيعون عندما يواجهون التطورات الفنية الحديثة ـ

---

(١) Berlin and Ben- Horin, op. cit. p. ١٣٢.

كالاستخدام الآلي ـ أن يغيروا من خططهم بسرعة البرق، من الصعب أن نغفل استخدام الفرسان وما عدا هذا من أسلحة الحرب الأهلية وأن نستخدم استخدامًا صحيحًا خفة الحركة التي للطائرات والقوات الميكانيكية[١] .

ويبدو أن ستالين قد اقتنع أيضًا بأن الهجوم وحده هو الذي يمكن أن يحقق النصر؛ ويقال إن ستالين قد قال للمؤرخ هـ. ج. ويلز: «من هو الذي يريد قائدًا عسكرياً لا يستطيع أن يفهم بأن العدو لن يستسلم، بل يجب أن يتحطم؟»[٢] .

على أن ستالين قد عرف هو وكل أولئك الآخرين المعنيين بالشئون العسكرية ألا تنجح استراتيـچية ما إلا إذا عوونت بتعبئة كاملة لاقتصاديات الأمة ولمواردها المعنوية، ومن ثم فإن دور ستالين البارز في العقيدة السوڤيتية للحرب وفي التاريخ العسكري الحديث لا يوجد في التصريحات والبيانات التكتيكية ولا في النظريات الاستراتيـچية بل فيما حققه من تصنيع الاتحاد السوڤيتي وفي تدريب وإعداد الرجال والنساء والأطفال للصناعات المختلفة وللإسهام في الحرب الآلية، وليبث في السكان كجملة واحدة هذا التأهب السيكلوچـي الذي كان كبير القيمة في مقاومة النازيين.

---

(١) راجع لادراك وجهات نظر توخاتشيـڤسكي وتقدير قيمتها كتاب:

"White, Soviet Philosophy of War" Loc. cit., pp. ٣٤٢ – ٣٤٦

أما بالنسبة لهذه الفقرة التي نقلت في هذه الصفحة فيرجع إلى:

Michael Freund (ed), Weltrüstung Geschichte der Umwâlzungen des Wehrwesens der Nationen im Jahre (١٩٣٤ - ١٩٣٥), in. Dokumenten (Essen, ١٩٣٤ - ١٩٣٥), p. ٧٦.

(٢) Berchin and Ben- Horin, op. cit., p. ١٣٠.

لقد أعدت حكومة ستالين العدة لحرب شاملة في مستوى، قليلون في العالم لخارج الاتحاد السوڤيتي هم من يعرفونه أو يمكن أن يتفهموه، ولم ينل ستالين لقب الماريشال الذي منحه لنفسه بسبب اشتراكه في القتال بميدان الحرب بل بدراسته لمختلف الوسائل والطرق التي يمكن بها استخدام الموارد الاقتصادية والقوى البشرية في البلاد إلى الحد الذي يمكن معه الانتفاع بكل ما توافر لها (للبلاد) من إمكانيات عسكرية.

وهكذا كانت القوى الدافعة المحركة لمشروعات الخمس السنوات هي خوف الحرب والهزيمة، وهذه مسألة محتملة إلى حد بعيد إن لم تكن مؤكدة، وكان فرونز سنة ١٩٢٤ قد أشار إلى أنه بسبب تخلف الصناعة الروسية في جملتها بعامة وبسبب الطابع البدائي للصناعات الآلية بخاصة فإن الجيش الأحمر لا يمكن أن يزداد عدده ولا أن يتقدم في نوعه، ومن ثم فإنه لا يمكن أن يقف على قدم المساواة مع غيره من الجيوش.

هذا فضلاً عن أن الجندي الروسي كان إلى حد بعيد غير مدرب بالقدر الذي يوجد فيه الاتجاه أو الحس الآلي، أو بمعنى أدق أن تتوافر له فكرة استخدام الآلات، الأمر الذي يوجد منه اتساع نطاق التصنيع في البلاد؛ وكان ڤورشيلوڤ قد حذر بدرجة أكبر التخلف الفني الذي يعانيه الجيش الأحمر، وقد وصف حال صناعات الحرب قبل سنة ١٩٢٨ بأنها «فوضى في غير نظام» وأنها لهذا تعتبر «المسألة الخطيرة بالنسبة للروسيا» وهذا سبب قوي للهزيمة.

وقد حذر أيضًا من أن السكك الحديدية وغيرها من وسائل المواصلات الداخلية في جملتها تعتبر غير كافية لحاجيات حرب حديثة، وقد طالب بزيادة تدريب الجنود إلى مستوى الجيوش الأخرى دون زيادة عدده؛



راجع صفحة ٢٥٦

لأن «الكم» ليس معوضًا للنقص في «النوع».

ومن هنا كان في تقديره أن الهدف الرئيسي لمشروعات السنوات الخمس يجب أن يكون إقامة هذه الصناعات وثيقة الصلة بإنتاج مواد الحرب وأن توضع الأسس للتعليم الفني للروس.

وقد أعطيت معدات الجيش ـ طوال فترة التصنيع ـ الأولوية على المطالب الأخرى، وكانت لها أيضًا الأولوية لإعداد ما تحتاجه من مواد خام من عمال مهرة؛ وقد ظن عدد كبير من المراقبين لما يدور على المسرح السوڤيتي طوال السنوات العشر بين ١٩٢٨ و ١٩٣٨، ظن هؤلاء أن ندرة البضائع الاستهلاكية في الاتحاد السوڤيتي ترجع إلى عدم كفاية ودقة إدارة وتنظيم الصناعة، ولكن على ما دلت عليه الحوادث كان السبب الرئيسي هو توجيه اقتصاديات الحرب بتضحية كل شيء من أجل مصالح الجيش وفي سبيل التأهب العسكري[١].

(١) من أهم وأول الكتب التي أوضحت الأسس الاقتصادية للقوة العسكرية السوڤييتية كتاب:

Max Warner, The Military Strength of the Powers (New York, ١٩٣٩).

انظر الفصل الثاني منه. وأحدث بل ولربما أفضل مجمل عام بالإنجليزية لإيضاح النواحي العسكرية في مشروعات السنوات الخمس (١٩٢٨ ـ ١٩٣٢و ١٩٣٣ ـ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ ـ ١٩٤٢) الفصل التاسع من كتاب:

(White, Red Army, Chap. IX.)

الفصل الذي وسمه بعنوان:.(The Impact of Industrialization)

ويوجد بالروسية مقال قيم من قلم A. Baikov بعنوان:

"The Economic Basis of the Defence System of the U. S. S. A" in Voyennaia Mysl November, ١٩٣٩, p. ٢١ – ٣٦.

ونقلت إلى فقرات منه إلى الإنجليزية الآنسة ف. ت. بيل.

ومن الممكن استخدام العدد الكبير من الأرقام لإيضاح مدى اتساع الصناعة طوال السنوات من ١٩٢٨ إلى ١٩٤١، وربما كان أعظم حقيقة عددية هو حركة السكان من الريف إلى المدينة، من الزراعة إلى الصناعة بين سنة ١٩٢٦ وسنة ١٩٣٩، وقد جاء الجزء الأعظم من حركة الانتقال هذه عقب بدء مشروع السنوات الخمس الأولى سنة ١٩٢٨، ففي قرابة العشر سنوات زاد عدد الصناع في الاتحاد السوفيتي من نحو ١٦ ٪ في الجملة إلى نحو ٤٦ ٪، وقد أمكن تحقيق هذا نتيجة انخفاض الجماعات الزراعية من ٧٧ ٪ في الجملة إلى أقل من ٤٧ ٪، ولم يحدث شيء مثل هذا التحول في المركز الاقتصادي في أمة ما وفي وقت قصير في كل تاريخ الجنس البشرى، بل لم يحدث على التحقيق إطلاقًا في التاريخ الحديث.

* * *

ولقد يمكن القول بأنه قد أمكن تحقيق هذا التحول بالأيدي العاملة إلى التصنيع، نتيجة لإقامة المزارع التعاونية ونتيجة للاستخدام الآلي في الزراعة.

وهكذا كانت الهجرة من الريف إلي المدينة اضطرارًا، ولم تستخدم حكومة موسكو أي وسائل سليمة لهذا، ومن ثم فقد سببت الهجرة اضطرابًا واسع النطاق في الأوضاع الاجتماعية نجم عنه الكثير من المتاعب.

ولا شك أنه لم يكن من الميسور أن تتوافر إرادة حديدية لأي زعيم سوفيتي غير ستالين ليستطيع إقامة هذا التخطيط الاقتصادي الذي انتزع كل عوامل الإنسانية من جذورها.

لقد قاسى الروسي الأمرين في هذه السنوات، ولكنهم ولا شك

أدركوا بعد سنوات ـ في ضوء التطورات التي جاءت فيها بعد ـ أنهم قد أنقذوا الثورة واحتفظوا باستقلالهم القومي، ذلك لأن إمكانيات الاتحاد السوڤيتي في الحرب قامت على أساس الوضع الجغرافي للروسيا، وعلى أساس موارد البلاد و «كم» و «نوع» القوى البشرية في الاتحاد.

على أن هذه الموارد لم تكن بذات بال ولا قيمة ما لم تتحول إلى آلة للحرب بالصناعة الحديثة، ولم تكن القوى البشرية لتصبح ذات أثر فعال ما لم يتوافر لها «الحس الآلي» والمعرفة باستخدام الآلات، وهذا الحس وهذه المعرفة لا يتوافران إلا لدولة صناعية يمكن أن تزود بها شبابها، المادة الخام للقوات المسلحة(١) .

❊ ❊ ❊

ولم يكن التصنيع في روسيا ـ ومن وجهة النظر العسكرية ـ في «الكم» فحسب، بل وكان في «النوع» أيضًا، ففي مشروع الخمس سنوات الثاني اتسع نطاق صناعات الدفاع لمرتين ونصف مرة بالنسبة لمدى الاتساع في جملة الصناعات، وكانت نسبة هذا الاتساع في مشروع الخمس السنوات الثالث كنسبة ٣: ١، وكان لإمداد المصانع الحربية باحتياجاتها الأولوية على أي شيء آخر، وكان الاهتمام بجودة انتاجها كبيرًا إلى حد أن نسبة الزيادة مع الجودة في صناعات الحديد والصلب وغيرهما من المعادن تثير الإعجاب.

وحدث تقدم كبير في النقل بالسكك الحديدية، وأمكن هذا ـ على ما

(١) استطعت الوصول إلى المعلومات عن تعداد السكان في الاتحاد السوڤييتي بوساطة الأستاذ فرنك نوتستين وزملائه في إدارة بحوث السكان بجامعة برنسيتون، أما عن النتائج الاجتماعية لمشروع الخمس السنوات فيرجع إلى كتاب:

W. H. Chamberlin, Russia's Iron Age (Boston, ١٩٣٤).

قال الماريشال ڤورشيلوف ـ لأن روسيا «تكون وحدة اقتصادية متناسقة، ولهذا فإنه من السهل توجيه التطورات وعوامل اطراد التحسين في الوجهة الضرورية»(١).

وكان التقدم من ناحية «الكم» ممتازًا أيضًا؛ ففي سنة ١٩٣٨ كان الاتحاد السوڤيتي قد ارتفع من بلد زراعي متخلف إلى بلد صناعي من الطراز الأول.

وقد استهدفت مشروعات السنوات الخمس عدة أغراض أخرى لها أهميتها في الجهد العسكري للاتحاد السوڤيتي، فقد وجد احتياطي كبير من العمال المهرة وأنصاف المهرة، وأمكن الوصول إلى هذا الاحتياطي الكبير عن طريق التجنيد الإجباري جزئياً، ووزعت صناعات الحرب ولهذا أمكن تقليل مدى تعرضها لغزو العدو، وقامت المصانع التي أرسيت هياكلها إلى أن يتم أعدادها، وصدقت فراسة أولئك الذين نظروا إلى هذه الهياكل على أنها قوى دافعة لاستكمال كل شيء للإعداد الصناعي، ووثبت إلى الوجود مدن جديدة كبيرة في شرق العاصمة، بل وحتى فيما وراء جبال الأورال، وأعدت الخطط لتهجير المصانع للشرق عند قيام الحرب، وبحثت كل التدابير لتحقيق الاكتفاء الذاتي، ووجه جزء كبير من الدخل القومي لنفقات القوات المسلحة.

على أنه أمكن تحقيق هذا كله نتيجة لتقبل الأهلين للمزيد من التضحيات.

---

(١) The Land of Socialism Today and Tomorrow.

تقارير المؤتمر الثامن الحزب الشيوعي في الاتحاد السوڤييتي، مارس سنة ١٩٣٩ (موسكو ١٩٢٩). راجع كذلك كتاب تايكوف نفس المرجع.

ولم تعرف ألمانيا وحدها تحويل «زبدة» المدنيين إلى مدافع للجيش[١]، ومثل هذه السياسة لا يمكن الحكم عليها أو لها إلا بنتائجها والروس وحدهم هم الذين يستطيعون أن يقولوا بأن بقاءهم كأمة يستحق الثمن الذي دفعوه طوال السنوات من ١٩٢٨ إلى ١٩٤١ .

ومع هذا فمن الممكن ملاحظة أن الاتحاد السوڤيتي لم يرفع مستويات إنتاجه حتى بالنسبة للمواد الخام إلى المستوى الذي رفعت إليه ألمانيا النازية إنتاجها، ولم تصل إمكانيات الاتحاد السوڤيتي للحرب إلى المستوى الذي بلغته الإمكانيات في الولايات المتحدة، «وكان معنى هذا أنه في حالة قيام حرب طويلة الأجل ضد ألمانيا أو ضد ألمانيا واليابان معًا لا يكون الموقف في جانب روسيا، وعلى حين أن روسيا قد أوجدت احتياطياً كبيرًا في الآلات العسكرية والأسلحة فإن طاقتها لسدّ أي نقص في هذا الاحتياطي تعتبر غير كافية ما لم تسد هذا النقص باستيراد كميات كبيرة من المواد من خارج البلاد»[٢] .

من أجل هذا كان ستالين حكيمًا في تجنب الاشتباك في الحرب في جبهتين بأن يمنع ـ بأي ثمن ـ قطع علاقاته مع اليابان، وذلك تبعًا لأن الاشتباك مع دولة ثانية كبيرة سيزيد من مطالب روسيا من المواد الخام فضلاً عن تعريضه لمواصلات روسيا القارية والبحرية للخطر.

---

(١) كان السفير چوزيف ديـڤس في الكثير من الأحوال مجرد مراقب في المسرح السوڤييتي، ولكنه كان سريع التقدير إلى أن الاستعدادات للحرب الشاملة كانت هي المفتاح الذي فتح الكثير من المسائل المغلقة ومن أجل هذا يكون كتابه كتابًا له أهميته:

Mission to Moscow (New Yourk, ١٩٤١).

(٢) White, op. cit., p. ٣٣٢.

ومن أجل هذا أيضًا عرف ستالين ـ كما قال تروتسكي من قبل ـ أن روسيا تحسن القتال كعضو في حلف، وأن النصر الذي يمكن للجيش الأحمر أن يحققه لن يتم إلا إذا استمر وصول مواد الحرب وعتادها بوساطة الإعارة والتأجير من الولايات المتحدة وبريطانيا.

ولهذا السبب كان إلحاح السوفيت لضرورة بدء القتال في جبهة ثانية طلبًا مفهومًا كتكملة للحرب التي تستند إلى حلف روسي ـ بريطاني ـ أمريكي.

ويبدو أن ستالين قد أدرك من البداية أن الصناعة الحديثة في الاتحاد السوفيتي يجب أن تستند إلى أمة متحدة متماسكة يستعد كل الأفراد للقيام بدور إيجابي لآخر رجل ولآخر امرأة.

وكما قيل من قبل كانت الحرب تشغل تفكير كل أفراد الشعب الروسي منذ أيام التدخل الأجنبي سنة ١٩١٩ ـ ١٩٢٠، وقد غرست الحكومة بوساطة الصحافة هذا الشعور في أذهان الناس، كما غرسته بوساطة منظمات الحزب والجيش الأحمر، وبالاحتفالات السنوية في الميدان الأحمر لذكرى السابع من نوفمبر.

وكانت مادة الدعاية الروسية إبراز أن الاتحاد السوفيتي أمة من العمال والفلاحين الكادحين تدور من حول دول رأسمالية.

والدول «الإمبريالية والرأسمالية» ـ، أي كل العالم غير السوفيتي، ـ هي تبعًا ـ لطبيعة الأشياء ـ أعداء المجتمع السوفيتي وأعداء الدولة السوفيتية.

وهكذا كان من الطبيعي أن يزداد الخوف من الحرب نتيجة لقيام

النازية ولإحيائها الإمبريالية الألمانية، وللدعاية الألمانية المضادة للبولشفيك، وللحلف المضاد للكومنترن ثم لتزايد قوة الألمان العسكرية في أوروبا.

***

وفي سنة ١٩٣٨ كان تحت قيادة هتلر أقوى جيش في أوروبا، أكد في حديثه عنه أكثر من مرة أنه سيستخدمه لتحقيق «الاتجاه نحو الشرق» على حساب الاتحاد السوفيتي، وكل من قرأ كتاب كفاحي لهتلر يعرف أنه قد حمل على زعماء روسيا ووصفهم «بالمجرمين الملوثين بالدماء، بالمجرمين المعدومي الإنسانية الذين ينتسبون إلى أمة تتوافر لها طباع الوحوش مع قدرة كبيرة على الكذب والتضليل، وبقيت إذاعة برلين من سنة ١٩٣٣ إلى سنة ١٩٤٣ تكرر هذا يومًا بعد يوم فيما عدا فترة صغيرة أيام اتفاق ستالين ـ هتلر بين سنة ١٩٣٩ وسنة ١٩٤١ .

ولكن حتى قبل بروز هتلر كانت الاستعدادات النفسية لتوجيه شعوب السوفيت للحرب قائمة مستمرة، وعلى أساس الخوف من الحرب ورغبة في تقوية القومية الروسية ودعم عقيدة الشيوعية، استطاع ستالين أن يجعل الاستعدادات العسكرية فن الحرب وصناعتها الشغل الشاغل كل يوم لعمال روسيا وفلاحيها وطلبتها وموظفيها المدنيين(١) .

وفي سنة ١٩٢٧ قامت منظمة رسمية باسم "Osoaviakim" (من oso تعني «لأجل الدفاع» Auizkhim وتعني «الطيران والكيميا») لتكون الهيئة

---

(١) Berchin ahd Beh - Horin, op. cit., op. cit., p. ١٤٩.
وكذلك فإن الفصل التاسع الموسوم بعنوان: (Total Praparedness) مناقشة جيدة للموضوع.

الأساسية التي عن طريقها تتم تعبئة السكان المدنيين، وقد أنشئت المنظمة الجديدة ـ أوسوڤياخيم Osoavizkhim – على أساس أن جميع المواطنين يجب أن يسهموا في الحرب القادمة، ومن ثم يجب أن يعدوا بالقدر الكافي للقيام بدورهم هذا، فقد عاونت المنظمة ليتوافر الحس الآلي في أفراد الشعب استعدادًا للحرب الميكانيكية، كما عاونت في نشر «عقيدة الدفاع» بين الناس ليستطيعوا القيام بدور إيجابي في مقاومة العدو، وفي سنة ١٩٣١ كان أعضاء هذه المنظمة أحد عشر مليونًا، وكان هدفها أن يتضاعف هذا العدد في السنة التالية، وأعدت المنظمة البرامج وفرق التدريب لتعليم الناس الرماية بما في هذا إعداد المتصيدين المهرة، كما دربتهم على حرب الغازات، والدفاع الجوي، والتحرك على الجليد بالزحافات والهبوط بالمظلات، ودربت الكثيرين على الطيران الحربي وأعدت الفرق الدراسية لأعمال الإدارة والمواصلات، بل ودربت الناس على الكثير من الموضوعات الأخرى ذات العلاقة بالجهد الحربي.

على أننا لو أردنا أن نخرج من التعميم إلى التخصيص استطعنا أن نقول بأن مئات الألوف قد دربوا على استخدام الأسلحة، ودرب عدد أكبر على قيادة السيارات بمتباين أنواعها.

بل نستطيع أن نقول بأن كل السكان قد دربوا تدريبًا عاماً فضلاً عن مئات الألوف قد دربوا تدريبًا فيه طابع التخصص الفني.

ولا يوجد في أي بلد في العالم لخارج الاتحاد السوڤيتي منظمة مثل الـ (أوسوڤياخيم) هذه، ومن ثم يجب الاعتراف لها بالفضل في هذه المقاومة البطولية التي قام بها سكان الاتحاد السوڤيتي ضد الغزو الألماني، وبدون هذه المنظمة من الصعب أن نصدق بأنه كان من الممكن أن تسطر هذه

الصفحات الخالدة لستالينجراد ولينينجراد وسباستبول وما كان ليمكن أن تحدث مثل هذه التعبئة ومثل هذا الدفاع ضد الإغارات الجوية في كفاية ويسر (١).

وقد يكون من المستحيل أن نقدر المساهمة الرائعة التي أسهمت بها نساء الاتحاد السوفيتي في الدفاع الشامل عن أرض روسيا، وأمكن بقانون الثامن من أغسطس سنة ١٩٢٨ قبولهن كمتطوعات في القوات المسلحة، بل وتجنيدهن للقيام بأعمال خاصة.

ومع أن الأصل كان استخدام النساء في غير أعمال القتال إلا أنهن عملن في صفوف الكثير من الواحدات على قدم المساواة مع الرجال.

وكان ٦٠ ٪ من عدد الأطباء والجراحين في روسيا من النساء.

ولهذا فقد كان عملهن في الخدمات الطبية مساهمة لا غنى عنها، ولم يحدث في أي بلد في العالم أن كان نصيب النساء في الأمن القومي كنصيب النساء الروسيات(٢)، ولقد أغفلت روسيا حاجز الجنس أو النوع البشرى منذ أن بدأت الإعداد للحرب الشاملة، وكان استخدام النساء يتمشى مع النظرية الماركسية للأمة المسلحة ومع العقيدة الماركسية بأن الجيش لا ينفصل عن جملة الشعب.

---

(١) يرجع في الحديث عن الدفاع ضد الإغارات الجوية لكتاب:
H. C. Casaidy, Moscow Dateline, ٩٤١ - ١٩٤٣ (Boston, ١٩٤٣).
أما في الحديث عن المنظمة فيرجع إلى الفصل التاسع من كتاب:
(Berchlin and Ben-Horin)

(٢) Berchin and Ben- Horin
نفس المرجع الصفحتان ١٥٢ ـ ١٥٣ .

وكان من الواضح لتعبئة الناس للحرب الشاملة أن كل الأمة ـ لا عمالها في الصناعات وفي الأرض ـ هم وحدهم الذين يقومون بنصيبهم في الحرب، ولقد أخبر مولوتوف مؤتمر الحزب في مارس سنة ١٩٣٩ بعد اغتصاب هتلر لأرض تشيكوسلوفاكيا بأيام قليلة أنه لم تعد في روسيا طبقات، وأن سياسة ستالين قد عملت دائمًا لإنهاء تقسيم المجتمع إلى مستغِلين (بكسر الغين) وإلى مستغَلين (بفتح الغين).

وقد لا يكون هذا صحيحًا ولكن مهما كانت الحقائق فإن الحكومة السوڤيتية قد عملت لإزالة الكثير من بقايا نظام الطبقات، وعلى سبيل المثال فإن دستور سنة ١٩٣٦ جعل التجنيد فريضة على كل المواطنين على نقيض قانوني سنة ١٩٢٥ وسنة ١٩٢٨ اللذين نصا على أن الجيش وقف على العمال والفلاحين.

وزاد قانون التجنيد العام لسنة ١٩٣٩ من نطاق الخدمة العسكرية، فقد جعل القانون الجديد كل المواطنين «الذكور» بين سن الثامنة عشرة والأربعين صالحين للخدمة في القوات المسلحة دونما تقدير لجنس (في التقسيم الخاص إلى شعوب) أو قومية أو تعليم أو وضع اجتماعي(١) على أنه لا يمكن أن ندرك تمامًا التغييرات الأساسية التي جاء بها القانون الجديد ما لم نقرأ النصوص التشريعية والتقارير والخطب التي ألقيت والمناقشات التي دارت قبل صدور هذا القانون.

---

(١) يرجع لدراسة الدستور السوڤييتي لسنة ١٩٣٦ إلى كتاب:

Anna Louise Strong, The New Soviet Constitution (New Youk, ١٩٣٧).

أما بالنسبة لقانون سنة ١٩٣٩ فيرجع إلى كتاب (White) من ٣٦٣ ـ ٣٦٦، وإلى مقال (K. Voroshilov) في جريدة Voyennaia Mysl عدد سبتمبر ١٩٣٩ .

صحيح أن هذا قد جاء تبعًا للحاجة ولمواجهة الزيادة في الجيش الأحمر والقوة الجوية الحمراء، وحاجتهما إلى المزيد من الضباط وضباط الصف والجنود الذين يتوافر لهم نصيب من التعليم والثقافة، ولكن من الضروري أيضًا أن نرجع بهذا إلى نمو الولاء الوطني والوعي القومي بسبب الحرب الأوروبية والتي كانت تبدو في الأفق.

وتوجد علائم مؤكدة حتى قبل سنة ١٩٣٩ تدل على أن ستالين قد أمر بالعمل على تقوية الشعور بالقومية الروسية كقوة دافعة للتعبئة الشاملة، ولقد طغت فكرة العمل للحرب القادمة على الدعوة للثورة الدولية في الطابع الذي بشر لها به في الأيام الأولى، وفي سنة ١٩٣٤ كانت النغمة القومية التي تنشدها براڤدا:

(«من أجل الوطن، وفي سبيل الوطن» ـ هذه هي الصرخة التي تضيء شعلة البطولة، شغل قوة الابتكار الخلاقة في كل ميادين بلادنا المتعددة الجوانب الموفورة الثروة؛ إن الدفاع عن الوطن هو القانون الأعلى في الحياة، الحياة من أجل الوطن، من أجل شرف البلاد ومجدها وقوتها ورخائها)[(١)] .

وفي سنة ١٩٣٧ جاءت الفرصة للاحتفال بيوم قومي لذكرى مرور ١٢٥ سنة على معركة بورودينو Borodino ومن ذلك التاريخ وجدت روح جديدة هي «روح سنة ١٨١٢» تبنتها جريدة الجيش «النجمة الحمراء» (ردستار) ومجلة «الفكر العسكري» وغيرهما من الصحف الشعبية، وقد كشف عن الهدف وراء هذا كله صراحة فيما بعد، كان الهدف إثارة الوحدة القومية، وإحياء تعلق الأفراد بالتقاليد المجيدة للروسيا، والسمو بالمشاعر

(١) الترجمة الانجليزية من:

(Max Eastman, Stalin's Russia (New Youk, ١٩٣٤). p. ٢٦.

الوطنية الجديدة»[١] .

وقد خلا القسم الجديد الذي يطلب من جنود الجيش الأحمر أن يقسموه من الإشارة إلى الدولية كما قلل من حدة صراع الطبقات، كان القسم يلزم الجندي بأن «يتعلم فن الحرب» وأن يكون «أميناً شجاعًا خاضعًا للنظام عاملاً للنهوض والتقدم» وأن يستجيب لأول نداء «للدفاع عن الوطن عن جمهوريات الاتحاد السوڤيتي»، وأن يكون هذا الدفاع «بحكمة وبشرف دون أن يدخر قطرة واحدة من دمه في سبيل النصر الكامل على العدو»، وكانت هذه الصرخة أبعد مدى مما جاء في القسم الأول الذي فرض إلزاماً كبيرًا بالولاء للطبقة الكادحة في العالم «البوليتاريا الدولية»[٢] .

وقد كرر ستالين الحديث عن الدافع الوطني في كل تصريحاته وخطبه منذ فجر الحرب ضد ألمانيا، وكانت البلاغات اليومية تصدر في جريدتي «براڤدا» و «ازڤيستيا» تحت عنوان «آخر الأنباء من جبهة الحرب في سبيل الوطن»، وفي إذاعة بتاريخ الثالث من يوليو سنة ١٩٤١ تحدث ستالين عن الحرب ضد ألمانيا على أنها «حرب التحرير»، «حرب تحرر وطننا»، وفي إذاعة ٦ من نوفمبر سنة ١٩٤٢ تحدث ثانية عن «الحرب من أجل الوطن ضد الغزاة الألمان» و «استقلال وحرية وطننا العظيم»، وفي الأوامر اليومية ليوم ٥ من أغسطس سنة ١٩٤٣ حيا ستالين الجنود الذين سقطوا صرعى أثناء القتال لإعادة الاستيلاء على «أوريل» و «بلجرود» ووصفهم بأنهم «الأبطال الذين سقطوا في الصراع من أجل حرية الوطن الأم».

(١) ملاحظات ص (٢٨٣ ـ ٢٨٧) الفصل التاسع من كتاب White.

(٢) نص الترجمة الإنجليزية في كتاب Wollenberg .

ووضع ماريشالات القرن الثامن عشر ـ العصر الذهبي للعسكرية الروسية ـ قبلة لهدى الجيل الحاضر، وأشير يوم ذاك إلى سوڤوروف أكثر مما يشار إلى ماركس وآنجلز.

وكان من الواضح أن ستالين القومي، زعيم حرب التحرير وماريشال الإتحاد السوڤيتي، قد قطع شوطًا بعيدًا منذ أيام لينين، لينين الذي هاجم القومية، وعلى حين كان لينين يقول: «ليس باشتراكي من لا يضحي بوطنه في سبيل الثورة الاشتراكية» كان ستالين يقول بأنه لا يمكن النزول عن شبر واحد من أرض روسيا للمعتدين الألمان، ولم يكن هذا تحولاً أيديولوچـياً واسع المدى من جانب ستالين، بل كان إدراكًا منه لحقيقة أن جملة موارد الاتحاد السوڤيتي لا يمكن أن تُبعأ إلا بإثارة روح الوطنية في جميع الأفراد على مثال ما حدث سنة ١٨١٢(١)، فلم يكن ستالين الطابع الذي يمكن أن يكون معه (بونابرت حديث) ينقل الثورة في أوروبا كلها بقوة السلاح.

***

وفي هذه الأثناء حدثت تغييرات واسعة النطاق في الجيش الأحمر، ففي مارس سنة ١٩٣٤ عندما سمحت النتائج المادية لمشروع السنوات الخمس زيد عدد جنود الجيش الأحمر من ٥٦٠.٠٠٠ إلى ٩٤٠.٠٠٠ ثم وصل العدد إلى ١.٣٠٠.٠٠٠ في سنة ١٩٣٥، وفي هذه السنة أيضًا تم إعداد

(١) لمعرفة اتجاهات الحزب بالنسبة لسوڤورف، باجراتيون، كوتوزوف والكسندر الأول ارجع إلى كتاب:

Eugene Tartlé, Napoleon Invasion of Russia, ١٨١٢.

الترجمة الانجليزية طبع نيويورك سنة ١٩٤٢ .

جيش الشرق الأقصى على أن يكون قوة ذات كفاية ذاتية، وفي سنة ١٩٤٦ كان ٧٧ ٪ من قوة الجيش الأحمر ضمن الوحدات العاملة الدائمة، أي إن ٢٣ ٪ فقط كانت في وحدات الميليشيا، وبذلك انعكست النسبة التي كانت هي الطابع البارز في الجيش الأحمر سنة ١٩٢٤، وفي مارس سنة ١٩٣٩ كان الجيش الأحمر بأكمله يتبع تنظيم الجيش العامل.

ولقد قال ڤوروشيلوف في مؤتمر الحزب: «لقد وضح أن اتخاذ النظام الإقليمي كقاعدة لقواتنا المسلحة يتعارض مع احتياجات الدفاع عن الدولة وذلك بمجرد أن بدأت الدول الإمبريالية الكبيرة تزيد من تعداد جيوشها ومن دوام تشكيلها طبقًا لمرتبات الحرب حتى في وقت السلم»(١) .

وفي الوقت الذي كانت فيه الزيادة في العدد والتغيير في التنظيم تسير قدمًا كان الجيش الأحمر يعاد المرة تلو الأخرى إمداده بحاجته من العتاد تبعًا لتقدم الإنتاج الصناعي، ومن ثم كان الجيش الأحمر في جملته جيشًا جديدًا.

وتقدمت القوات الجوية الحمراء بخطى واسعة، وبرغم التعليقات القاتمة التي أكثر النقاد الأجانب في حديثهم عن السلاح الجوي السوڤيتي، فإن هذه القوات الجوية كانت في الواقع قد وصلت إلى مستوى عال وأضحت قوة صلبة، وأمكن أيضًا إعداد احتياطي كبير في الذخائر والعتاد والمواد وأمكن جعل الضباط في مستوى المحترفين، وكان لقانون سنة ١٩٣٩ / ١٩٤٠ ـ إلى جانب هذا أيضًا ـ فضل تنظيم سلم الدرجات العسكرية بما في هذا إعادة استخدام الألقاب العسكرية القديمة: چنرال ـ أميرال ـ ڤيلد ماريشال؛ وزيدت المرتبات والأجور، وتقدم نظام الإسكان،

---

(١) White, op. cit., P. ٣٦٠.

وغير هذا من الميزات وبخاصة للضباط.

وعنى أيضًا بأمر الضبط والربط، وأعيدت التحية العسكرية، وأعطى الضباط الصغار كل فرصة للترقي[١] .

على أنه نتيجة للمظهر السيئ الذي بدا فيه الجيش في المراحل الأولية للحرب ضد فنلندة أوكلت للماريشال «تيموشنكو»[*] مسئولية النهوض بمستوى القوات المسلحة وكفايتها، ولهذا فإنه عندما بدأ الألمان هجومهم في يونيو سنة ١٩٤١ كان الجيش الأحمر قد وصل إلى مستوى كبير من الكفاية نتيجة لتدريب جيد متواصل في الشهور الأخيرة منذ تولى تيموشنكو الأمر.

وقد حدث تطور آخر في السياسة السوڤيتية يوضح مدى رغبة ستالين في تحقيق الكفاية العسكرية؛ فلقد كان اقتسام السلطة بين ضباط الجيش الأحمر وبين القوميسيريين السياسيين موضع نقاش وتنازع منذ أيام الحرب الأهلية، صحيح أن سلطة القوميسيريين كانت طوال السنوات ١٩٣٥ ـ ١٩٤٠ عرضة للكثير من التحديدات، ولكنها لم تكن معطلة تمامًا، ولهذا كان قرار الثاني عشر من أغسطس سنة ١٩٤٠ بإلغاء عمل القومسيريين أمرًا يثير الدهشة، على أن هذه الوظائف أعيدت ثانية عقب الغزو الألماني للروسيا ثم ألغيت من جديد للمرة الثانية في أكتوبر سنة ١٩٤٢ .

وكان نظام القومسيريين مهمًّا من ناحية جزئية بسبب ما نقدره من قيمة للدور الثوري الذي للجيش، كما كان له أهميته من ناحية أخرى لما

(١) يراجع الفصلان الثاني والثالث من كتاب (Werner) والفصل العاشر من كتاب (White)
(*) تيموشنكو: سيميون كوتستا. Timoshenko
ولد سنة ١٨٩٥، ماريشال السوفييت في الحرب العالمية الثانية.

يضعه من تحديدات على طبقة الضباط الذين هم موضع الشك، ولهذا السبب أو لغيره كان إلغاء نظام هذه مكانته وله مثل هذه الأهمية هو في الواقع تفهم للقوة المتزايدة للجيش كهيئة مستقلة.

وكانت المهارة التي عملت بها هيئة أركان الحرب للجيش الأحمر من المظاهر البارزة في الحرب الألمانية ـ الروسية، ولهذا التقدير أهميته؛ ذلك لأن الذين اعترفوا به وتحدثوا عنه أناس من خارج الاتحاد السوڤيتي أو يعيشون خارج حدود روسيا، وكانوا يتوقعون أن حركة التطهير الواسعة النطاق التي حدثت سنة ١٩٣٧ وأبعدت عن القوات المسلحة رجال مثل الماريشال توخاتشيـڤسكي وغيره لابد وأن توجد نوعًا من الفوضى والاضطراب في القيادة العليا.

والواقع أن هذا الاضطراب كان من الضروري أن يحدث لو لم يسبب النجاح الذي حققه مشروع السنوات الخمس، وتعبئة كل السكان للحرب، والتغييرات المليئة بالجرأة التي حدثت في تكوين وتنظيم الجيش الأحمر قد أزالت كل العقبات السيكلوچية وغيرها التي كانت لحركة التطهير، هذا فضلاً عن أن رئيس هيئة أركان الحرب الجديد: «شابينكوڤ» قد ضمن بقاء سياسة ثابتة واستراتيـچية محددة دائمة للاتحاد السوڤيتي، ولكن الأسباب الحقيقية لإعدام الماريشال توخاتشيـڤسكي وغيره من كبار الضباط يحوطها الغموض وتبدو الأحاديث عنها متعارضة متضادة.

ـ ٦ ـ

على أن استراتيـچية ستالين العسكرية في السنوات من ١٩٣٣ إلى ١٩٤١ لم تتمش مع النظرية الشيوعية، فمنذ أن تولى هتلر السلطة في ألمانيا

كان العالم يعيش في حالة حرب وقد عرف العالم جزءًا من هذه الحرب على أنها «الحرب البيضاء» للنازية، وعرف الجزء الآخر على أنها «حرب ساخنة» معارك وقتال في حروب محدودة في الحبشة وأسبانيا والصين والنمسا وغيرها؛ وفي الحرب الأسبانية وحدها اتبع ستالين كلمات لينين وتعاليمه الخاصة بتحويل «الحرب الدولية» إلى «حرب أهلية»؛ وفي أسبانيا أيضًا كان ستالين يعمل بتأثير تكتيكات هتلر وموسوليني كما كان يعمل تبعًا لنظريات لينين.

أما في أي مكان آخر فإنه (ستالين) نظر إلى المشهد الدولي للمسرحية على أساس أن الاتحاد السوڤيتي دولة عسكرية كبيرة، أكثر من أن ينظر إليها باعتبار روسيا دولة ثورية.

وكان هدف دبلوماسيته ـ الهدف الذي حققه وعمل له ليتـڤنيوف النابه القادر ـ الدفاع عن الاتحاد السوڤيتي بوساطة أمن جماعي، وأسهمت الأحزاب الشيوعية في البلاد الأخرى ـ بتوجيه من موسكو ـ تكوين جبهة متحدة مع الجماعات البرجوازية للعمل ضد المعتدين، ولكن تبعًا لنصيحة لينين لم تنفذ سياسة تكتلية، وعلى النقيض فإن الشيوعيين في فرنسا وغيرها لم يقوموا بالمعاونة، بل وتولوا القيادة في إعادة التسليح، وحدث فقط بعد «ميونخ».

عندما ترك الاتحاد السوڤيتي وحده في عزلة تامة ـ أن بدأ ستالين يستخدم الشيوعية الدولية لدعم الاتفاق مع هتلر، ويستخدمها كسلاح ضد «الحرب الإمبريالية» لسنة ١٩٣٩، ولكن الكبت العنيف للشيوعية في ألمانيا وإيطاليا لم يمكن ستالين حتى من مجرد الظن بإمكان استخدام الشيوعيين فيها «كطابور خامس» لمعاونة الاتحاد السوڤيتي إثر الغزو الألماني

لروسيا سنة ١٩٤١ .

والواقع أنه من الحقائق ذات الأهمية الكبيرة في هذا العصر الذي نعيش فيه أنه لا ستالين ولا الاتحاد السوڤيتي بل هتلر وألمانيا النازية هما العامل لتحول الحرب الدولية لسنة ١٩٣٩ إلى حرب أهلية في الطابع الذي جاء في تعاليم لينين الثورية، وكانت الفاشية لا الشيوعية هي التي قدمت «الكويزلنجيين» و «اللاڤاليين» و «الموزليين» نسبة إلى كويزلنج النرويجي ولاڤال الفرنسي وموزلي الإنجليزي فقد انقلبت الشيوعية إثر الاعتداء النازي على الاتحاد السوڤيتي إلى دعوة للوطنية، كما تحول «الإشتراكيون» إلى «وطنيين» في سنة ١٩١٤ وحصلوا بذلك على تقدير لينين ورضاه.

وكان الجيش الأحمر ـ كما رأينا ـ قبل النجاح الألماني في بولندة قد اتخذ استراتيـچية عسكرية منسقة، استراتيـچية هجومية وضع تخطيطها توخاتشـڤيسكي، بالرغم من أنه هو وشابوشنيكوڤ كانا قد رأيا بأن أي حرب أوروبية سوف تكون في نطاق واسع إلى الحد الذي يجعلها حرب إجهاد تضطر معها روسيا للوقوف موقف الدفاع لبعض الوقت(١) .

ولهذا فقد عني بوضع عقيدة عسكرية تتمشى مع هذا وتضمنتها قوانين خدمة الميدان الجديدة لسنة ١٩٣٦، وقد جاءت هذه العقيدة على أساس مبدأ الدفاع في عمق، ولم تقم مقاومة الغزو على أساس التحصينات والمواقع، بل على أساس المرونة والمناورة، وأشير إلى أن الأسلحة الحديثة وبخاصة الدبابة يمكن أن تستخدم بوساطة جيش يقف في دفاع استراتيـچـي في نفس الصورة التي يستخدمها فيها جيش يقوم بالهجوم.

---

(١) يرجع إلى الفصول الرابع والحادي عشر والثاني عشر من كتاب "Werner" ففيها حديث طيب عن النظريات الاستراتيـچية السوڤييتية قبل سنة ١٩٣٩ .

والواقع أن قوانين خدمة الميدان لسنة ١٩٣٦ قد أكدت أهمية ـ كما أكدت الحاجة إلى ـ التعاون التام بين جميع الأسلحة في العمليات الهجومية والدفاعية على السواء، وينطبق هذا المبدأ بخاصة على السلاح الجوي، ومع أن القوة الجوية الحمراء قد نسقت عملها مع الجيش فإنها لم تتطور في ضوء نظريات «دوهيه» وغيره عن السلاح الجوي المستقل المنفصل عن الأسلحة الأخرى، وعمل السلاح الجوي الروسي في صورة أقرب إلى الدور الذي قام به «اللوفتواف» السلاح الجوي الألماني بالتعاون مع القوات البرية.

على أن الإطناب الذي جاء في قانون خدمة الميدان لسنة ١٩٣٦ عن التنفيذ التكتيكي للدفاع الاستراتيـچـي وضح أهمية الجندي الفرد والضابط الصغير، فقد جاء في القانون «ضرورة تشجيع القادة بكل وسيلة ممكنة لقوة الابتكار المنطقية التي يبرزها صغار الضباط والجنود»، «ويجب أن يستغل القادة هذه القوة للنجاح في المعركة؛ ذلك لأن الابتكار السليم يقوم على أساس التفهم الصحيح لنوايا القائد»[(١)] .

ومن هنا كانت المشكلة أن يوضح القائد لقائد السرية وجنوده الأغراض التي تستهدفها القيادة العليا، وقد أدرك ستالين هذه الصعوبة، وإن كان لم يذكر لها حلاً حاسمًا، فهو يقول: «نحن القادة نرى الأشياء والناس والحوادث من زاوية واحدة هي من أعلى لأسفل ولهذا فإن أفقنا محدود إلى حد ما، ولكن الجماهير من ناحية أخرى ترى الناس والحوادث والأشياء من زاوية أخرى هي من أسفل لأعلى وهكذا فإن أفقهم هم أيضًا

(١) الفصل الأول من قانون خدمة الميدان للجيش الأحمر لسنة ١٩٣٦، الفصل الأول: المبادئ العامة، وقد حصلت على ترجمة انجليزية له قام بها ف. ت. بيل بوساطة جيش الولايات المتحدة.

محدود إلى حد ما، ولنجد الحل الصحيح للمشكلة يجب أن نجمع بين التجربتين والنظريتين، وإذ ذاك فقط تكون إدارة الرجال صحيحة»(١).

وكانت هذه ولا شك تفهمًا دقيقًا لأهمية قوة الابتكار في الأفراد، وهي التي أدت إلى كفاية الجندي الأحمر وبالتالي إلى دورها المؤثر في العمليات الدفاعية ١٩٤١ ـ ١٩٤٣.

***

وكان من حسن حظ الاتحاد السوڤيتي أنه بالرغم من التقديس للعامل الهجومي استطاع (الاتحاد) أن يوجد الاستعداد الكافي للدفاع، وللدفاع بعمق بخاصة، ذلك لأن غزو الألمان لبولندة سنة ١٩٣٩ وانهيار فرنسا في الربيع التالي قد سببا ضرورة إعادة بحث العقيدة العسكرية السابقة، وكانت الرغبة البارزة للاتجاه السوڤيتي في الشئون المدنية بإحداث تغيير في أسلوب عمل الحزب نوعًا من المرونة يسهل تطبيقه في الشئون العسكرية، واستعداد الجيش الأحمر وإقباله على سرعة تغيير أي تخطيط قائم بضغط الأحوال الجديدة هو الفضيلة البارزة في الجيش الأحمر وأفراده طوال أوقات الشد والجذب لسنة ١٩٤١ ولسنة ١٩٤٢، وكان حتى الضباط الصغار قد فهموا الحاجة للتكيف التام المتواصل تبعًا للمشكلات التي برزت عند مواجهة الهجوم الألماني(٢).

وقد ووجهت روسيا بعد انهيار بولندة بموقف جديد من ناحية أمن

(١) نقلها الماريشال توخاشفيسكي وقدمها في دراسته بعنوان:

"On the New Field Service Regulations" in The Bolshevist, May August, ١٩٣٧. Translated by U.T. Bill.

(٢) Leonard Engel, "The Red Officer Corps" in the Infantry Journal, LII (١٩٤٣), ١٨ – ٢٤.

وسلامة حدودها الغربية، وكان امتداد وطول هذه الحدود هو الخطوة الأولى في استراتيـچية جديدة وذلك لاحتمال استخدام الأرض المجاورة لهذه الحدود كمنطقة فاصلة buffer ضد الضغط الأول لأي هجوم ألماني؛ ففي سبتمبر سنة ١٩٣٩ سار الجيش الروسي عبر أرض بولندة وحصل على موافقة هتلر لاحتلال منطقة تنتهي بحدود طبيعية على نهر بوج Bug، وفي مارس سنة ١٩٤٠ كان الهجوم على فنلندة واستولت روسيا على مواقع دفاعية مساحلة لخليج فنلندة مع تعديل الحدود عند كاريليا Karilia(*)، وفي يونيو التالي نزلت رومانيا عن «بسارابيا»، وفي أغسطس سنة ١٩٤٠ احتل الروس جمهوريات البلطيق الثلاث، وكانت نتيجة هذا الاتساع الإقليمي أن حصل الاتحاد السوڤيتي على «الوسادة» التي تحتمل السرعة الابتدائية والمفاجأة ـ أهم عاملين في الحرب البرقية، وبمعنى آخر استطاع الاتحاد السوڤيتي أن يزيد من عمق المنطقة الدفاعية.

وأمدت الحملة الألمانية على فرنسا سنة ١٩٤٠، والتي لم تختلف كثيرًا عن حملة سنة ١٩٣٩ ضد بولندة، أمدت روسيا بصورة كاملة صحيحة واضحة للحملة التي وجهت ضدها (ضد روسيا) بعد عام كامل.

وقد قدر الروس أن الألمان سيعتمدون على المفاجأة والسرعة والهجوم الجوي علي المواصلات وقوافل الإمداد والتموين، سيعتمدون على حرب خفيفة الحركة تهدف للتطويق والإفناء، أي للقيام بمعركة «كانِّي» في أوسع نطاق حدث في تاريخ العالم منذ فجر البشرية.

وكان هتلر قد أصر على أن يحاول ما ظن ڤالكنهاين وسيخت وليب

(*) الأرض في شرق فنلندة وعند كاريليا karilia «معجم ويبستر ص ٧٩٨ «المترجم».

وغيرهم عدم إمكان عمله، ألا وهو توجيه ضربة قاضية ضد الروس في وقت قصير نسبياًّ.

وكان الروس يثقون ـ وهم على صواب ـ أنهم ليسوا كالبلاد الواطئة يمكن اجتياح أراضيهم بسرعة، وليسوا كبولندة يمكن أن يضطرب نظام تحركاتهم بسبب العمليات الجوية العنيفة، ولكنهم في نفس الوقت عرفوا أنهم يحتملون عبئًا كبيرًا في مواجهتهم للغزو لقوات هائلة وافرة العدد والعدد، ولكن من المشكوك فيه أنهم قد فكروا إطلاقًا ـ ولا حتى بطريقة مبهمة ـ فيما واجهوه فعلاً من أنهم لم يستطيعوا الحصول على قوة المبادأة قبل صيف سنة ١٩٤٣ .

وكان ما على الروس أن يفعلوه واضحًا جلياًّ، كان عليهم أن يبقوا الجيش الأحمر متماسكًا بأي ثمن، كان عليهم أن يتجنبوا تطويق العدو لهم ما أمكن، والوحدات التي لا تستطيع التخلص والنجاة يجب أن تقاوم لآخر طلقة ولآخر رجل، وكان عليهم أن يساوموا «بالمسافة» لاكتساب «الوقت»، ومعنى هذا أنهم يجب أن يرغموا الألمان على التعمق في الأراضي السوڤيتية دون أن يصلوا إلى تحقيق قرار ما.

ولكن الأرض التي يحتلها الألمان يجب أن تترك لهم وهي عديمة النفع، أي أن يخلفها الروس وراءهم مخربة، وإن كان من الضروري في نفس الوقت أن تكون في غير أمن بسبب حرب العصابات، وعاجلاً أو آجلاً ستعطي حرب الإجهاد للجيش الأحمر الفرصة العظيمة التي كان يتدرب لأجلها منذ أيام الحرب الأهلية، فرصة تدمير العدو بمعركة هجومية، «وتبعًا للنظرية السوڤيتية الجديدة تجيء صورة «الحرب البرقية» في ختام

الحرب لا في بدايتها»[١].

ولم يتأثر الروس في اتخاذهم استراتيـچية التقهقر والانسحاب بروح الهزيمة التي سادت ڤيـچان وبيتان، بل كان الروس في الواقع ينفذون سياسة الدفاع الإيجابي التي وضعها الـڤيلد ماريشال ريترڤون ليب من قادة جيش هتلر[٢]، ولابد أن يكون الروس قد وضعوا الحقائق الجغرافية والتقاليد التاريخية موضع التقدير وأن يكونوا قد وضعوها على قدم المساواة، ولابد أن تكون المسافة وأن يكون البرد والمطر والأوحال، قد وقفت كلها تسد طريق ذلك الذي كاد يكون الشخص الذي غزا الروسيا، وربما تكون الموانع الطبيعية في بعض الأحيان وبالنسبة للحرب «الميكانيكية» الآلية أصعب اجتيازًا من مجاري الأنهار وسلاسل الجبال، وعندما ثارت العاصفة فوق الاتحاد السوڤيتي في يونيو سنة ١٩٤١ عادت أذهان الناس في كل مكان إلى سنة ١٨١٢، وكان اسم نابليون على كل شفتين، وليس من المستبعد أن يكون كوتوزوف الشخص الذي برز يوم أن حدثت معركة يورودينو كان يقف إلى جانب ستالين طوال الأيام القاتمة من يونيو إلى ديسمبر سنة ١٩٤١، إن الكثير مما كان يبدو في تصرفات ستالين يدل على

(١) Max Werner, Attack Can Win in' ٤٣. (Boston, ١٩٤٣) P. ٣٥.

(٢) الترجمة الإنجليزية لكتاب (Die Abwehr) طبع برلين سنة ١٩٣٨ بقلم ل. س. بوسوني، S. T. Bosony، وكذلك كتاب:

D. Vilfroy, Defence (Harrisburg, ١٩٤٣).

على أنه يوجد رأي يقول بأن الروس لم ينزلوا قط عن استراتيـچية الهجوم ولكنهم تحملوا ضربات قاسية عندما حاولوا تنفيذ هذه الاستراتيـچية على أن هذا يبدو لي أقل احتمالًا من الاعتقاد بأنهم قد عادوا من البداية إلى استراتيـچية الدفاع على مثال ما حدث سنة ١٨١٢.

هذا[١] .

وقد يكون من الضروري أن نقول هنا كلمة عن تروتسكي الذي نفي وامتهن واغتيل، لقد حذر دائمًا ضد النظرة الجامدة في الاستراتيچية والتي تنظر نظرة واحدة لكل الأشياء في كل الأوقات، لقد نصح «بالتكيف» و «المرونة» على أنهما أصلح وأفضل للمجتمع الثوري، ويتمشيان مع المبادئ العسكرية السليمة، وقد أثبت الزمن صدق فراسة تروتسكي وصواب رأيه.

ولكن ستالين كان عملاقًا، كأن قلبه قُدَّ من الصخر واقتطعت أعصابه من الصلب وكانت أعصابه من الجليد يوم أن قبل احتمال مسئولية الأمر بالتقهقر، ولقد يمكن أن يقاس بناء الماريشال ستالين على أساس حقيقة أن قراراته كانت قرارات عسكرية حكيمة ولم تكن قرارات استهدفت تقوية مكانته ولا دعم نظام حكمه.

ولابد أن يكون الكثيرون قد شكوا في إمكان احتمال أي ديكتاتور الثبات تحت وقع سلسلة من الضربات التي تهدد كيان بلاده على مثال ما هدد به كيان الاتحاد السوڤيتي سنة ١٩٤١ وسنة ١٩٤٢، ولم يفعل ستالين مرة واحدة ما فعله هتلر من إخفاء حقيقة الموقف فإن النصر يتطلب تماسك معنويات الشعب، وفي إذاعة ستالين لليوم الثالث من يوليو سنة ١٩٤١ قوة دافعة عجيبة، لقد طلب من الناس أن يخربوا الأرض وأن يقاتلوا كلهم أمة واحدة في حرب عصابات لا هوادة فيها، لقد كان رائعًا .. وكانت هذه هي الحرب.

(١) مثال هذا خطبته التي ألقاها في ٧ من نوفمبر سنة ١٩٤١، صحيح أن شبح كوتوزوف لا يمكن أن يكون هو الذي وجهه للتمسك بموسكو والدفاع عنها بأي ثمن، ولكن على أساس الخطوط العريضة للاستراتيچية فإن التشبيه يعتبر منطقيًا وسليمًا.

ولقد قال: «في حالة تقهقر قوات الجيش الأحمر يجب أن يتم نقل كل ما يسير على عجلات، ويجب ألا يترك للعدو آلة واحدة، ولا عربة واحدة من عربات السكك الحديدية، ولا رطل واحد من القمح، ولا جالون واحد من الوقود السائل».

«يجب أن يقود عمال المزارع التعاونية ماشيتهم معهم، وأن يسلموا قمحهم لسلطات الحكومة لنقله للخلف، أما ما لا يمكن نقله من القمح والوقود والمعادن فيحرق ويدمر».

«وفي المناطق التي يحتلها العدو، تشكل جماعات من الراكبين والمترجلين للقيام بحرب العصابات في كل مكان، لقتل جنود العدو، ونسف الكباري والطرق ونزع خطوط البرق والتليفون وحرق الغابات والمستودعات ووسائل النقل، ويجب ألا يشعر العدو بالراحة والهدوء في مناطق الاحتلال هذه، بل يجب أن يقتل جنوده في كل خطوة يخطونها، وأن يكون الفشل مآل كل ما يضعونه من تدابير».

ولقد قام الجيش الأحمر بتنفيذ خطة الحرب الطويلة المدى بإشراف الكرملين وتحت قيادة القادة الشبان النابهين الذين نالوا شهرة في التجربة القاسية ـ تجربة القتال[١]، وكان الدفاع الإيجابي على ما قامت به القوات السوڤيتية يعني ـ على ما جاء في كلمات المعقب السوڤيتي الأستاذ منز Minz ـ «القتال من أجل كل بوصة من الأرض، والتمسك بكل قرية وكل مدينة إلى غاية ما يمكن، وتكبيد العدو أكثر ما يمكن من الخسائر، وإجهاد جنوده

(١) أصدق عرض بالإنجليزية لهذا الحديث يوجد في الفصل العاشر من كتاب:
Max Werner, The Great Offensive (New York, ١٩٤٢) Chap. x.

والقيام بعمليات هجوم مضادة لا نهاية لها»[١] .

وقد وصف الـچنرال سوكولوڤيسكي Sokolovsky ـ رئيس أركان الحرب للماريشال تيموشنكو ـ هذه التكتيكات بإصطلاح جديد هو: «الطحن البرقي» Blitzgrinding[*]، والدفاع الإيجابي يتطلب أن كل وحدة يحدق بها ـ كبيرة أم صغيرة ـ يجب أن تستمر في القتال ضد الغزاة [**] الأمر الذي وصفه الألمان بأنه «مقاومة خالية من الحكمة والمنطق»، ويتضمن أيضًا حربًا منظمة بعناية للعصابات وهي حرب قد ألفها الروس في تاريخهم الطويل، وهي صورة تشك فيها وفي قيمتها الجيوش الحديثة تبعًا لتعقد طوابع أسلحة ومعدات ومواصلات وتموين هذه الجيوش؛ إنها حرب تعني تضحية عشرات الملايين من الناس، ***والواقع*** أن الاتحاد السوڤيتي كان أقرب إلى صورة الأمة المسلحة من أي دولة أخرى على مختلف عصور التاريخ.

---

(١) نقلها سولزبرجر من رسالة له إلى جريدة النيويورك تايمز عدد ٤ من يونيو سنة ١٩٤٣، وقد كتب سولزبرجر في شهر يونيو سلسلة من المقالات للنيويورك تايمز عن الجيش الأحمر، وقد كتب مقالا «قيمًا» في عدد مجلة النيويورك تايمز عدد أول من أغسطس سنة ١٩٤٢ بعنوان «الآن جاء دور الطحن البرقي».

(*) Blitzgrinding اصطلاح اصطنعه الروس على مثال الاصطلاح الألماني Blitzkrieg الحرب البرقية، ويعني الاصطلاح الروسي القيام بعملية «جرش» وسحق لقوات العدو بسرعة وفجأة وعلى نطاق واسع وذلك لتحطيم قوات العدو (المترجم).

(**) كان الغرب قد وضع بدوره مثل هذه المبادئ وإن كانت لم تنفذ على نطاق واسع، وكانت هي أصول فكرة الدفاع الشبكي وهي تكوين المنطقة الدفاعية من سلسلة من المواقع تقاتل لآخر طلقة ولآخر رجل مع قيامها بهجوم مضاد أثناء انشغال العدو تجاه بعض المواقع الأخرى له.

ولكن على طول مدى الحرب الدفاعية كان هدف الجيش الأحمر دائمًا أن الهجوم هو الذي يحقق النصر عن طريق إفناء كل قوات العدو في الميدان.

ولقد حقق هجوم شتاء سنة ١٩٤٢ وشتاء سنة ١٩٤٣ نجاحًا جزئياً ذلك لأن الروس، علي نقيض الألمان، كانوا متأهبين للعمليات النشطة في درجة حرارة دون الصفر، ولكن لا يمكن الشك في أن الحملة الروسية في صيف سنة ١٩٤٣ تصور صدق ما قاله ستالين من أن طاقة الجيش الأحمر على استعادة قوة المبادأة من الألمان ليست وقفًا على الشهور من ديسمبر إلى مارس فقط.

ـ ٧ ـ

وقد يكون من التعجل الزعم بأن الاستراتيـچية العسكرية الروسية في أوروبا والشرق الأقصى قد حطمت بعد الغزو الألماني، بل الواقع أن هذه الاستراتيـچية هي استراتيـچية السلامة والأمن للاتحاد السوڤيتي.

ولقد قال ونستون تشرشل عن السياسة الروسية: «إنها لغز يحطيه الغموض ولربما كان له مفتاح لحل مغاليق هذا المفتاح هو مصلحة روسيا القومية»(١).

إن الوقت وحده هو الذي سيمكن من الحكم على ستالين، هل كان روسيًا أكثر من بطرس الأكبر أو كان شيوعياً أكثر من لينين، ولكن (كانت هناك) في الجو بعض علائم يمكن بها لدارسي السياسة أن يتعقبوا مسير حياة ستالين، ولكن تعقب حياته لهو عامل جديد في السياسة الأوروبية بل

(١) أذاعه بتاريخ أول أكتوبر سنة ١٩٣٩ .

والسياسة العالمية[١] .

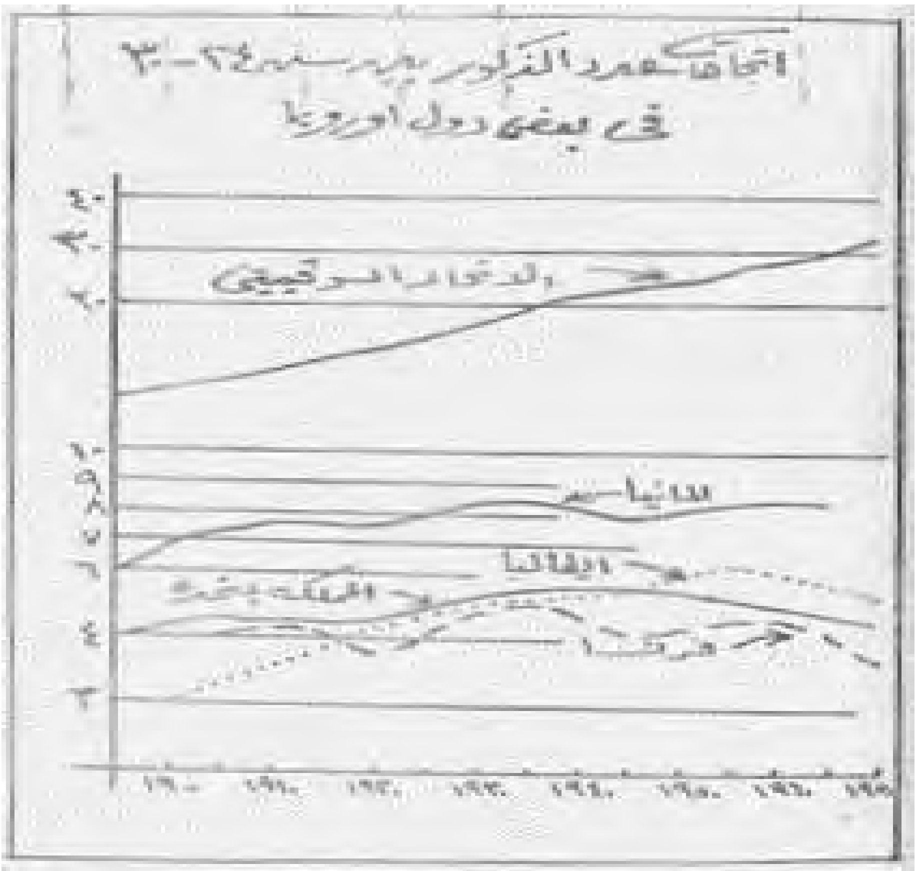
إن روسيا تتوافر لها كل العوامل الأساسية للقوة وكل العوامل الضرورية لإمكانيات الحرب، فمساحتها واسعة جدًّا وفيها الكثير من الموارد الطبيعية فضلاً عن ازدياد تعداد سكانها بدرجة كبيرة حاسمة[٢]، وفيها مجتمع صناعي، ونظام سياسي دينمائي، قد تسبب هذه الحرب ضعف الأمم الأخرى ولكن الاتحاد السوڤيتي والولايات المتحدة الأمريكية سيخرجان من هذه الحرب في قوة هائلة، وربما قبل أن يصل القرن العشرون إلى نهايته يكون الاتحاد السوڤيتي أقوى أمة في العالم.

ولكن كيف يمكن أن تستغل هذه القوة الهائلة لمستقبل الجنس البشري؟

إن مؤتمري طهران وموسكو يجعلانا نأمل في أن قوة روسيا ستكون عاملاً فعالاً للسلم كما كانت عاملاً فعالاً مؤثرًا في الحرب.

(١) Werner, Military Strenght of the Powers Chaps. I and II.

(٢) Frank W. Notestein, "Some Implications of Population Chang or Post- War Europe" in Proceedinges of The American Philosophical society Vol. ٨٧ (١٩٤٣), pp. ١٦٥ – ١٧٤.



راجع صفحة ٢٧٩

حديث المراجع

الفصل الرابع عشر

لينين ـ تروتسكي ـ ستالين

النظرية السوفيتية للحرب

بقلم إدوارد ميد ايرل

الخريطة الموجودة في هذا الفصل منقولة عن كتاب (The Red Army) بقلم إيريك وولنبرج Erich Wollenberg طبع لندن سنة ١٩٤٠، أما الرسمان التخطيطيان فقد نقلا بإذن من «مكتب أبحاث السكان» ببرنسيتون ـ نيوجيرسي.

على أنه بالنسبة لدراسة الثورة الروسية إلى غاية ما نوقش أمرها في هذا الكتاب يمكن الرجوع إلى الكتب الآتية:

H. Chamberlin, the Russian Revolution ١٩١٧ - ١٩٢١, ٢ Vols (New York, ١٩٣٥).

John Wheeler- Bennett, Brest-Litovsk, The Forgotte Peace (London, ١٩٣٨).

John Reed, Ten Days that Shook the World (New York, ١٩٣٥).

Winston S. Churchill, The Aftermath: The World Crisis ١٩١٨ - ١٩٢٨ (New - York, ١٩٢٩).

C. K. Cumming and W. W. Pettit, Russian- American Relations (New - Haven, ١٩٢٠).

Michael T. Florinsky, The End of the Russian Fmqirc. (New Haven, ١٩٣١).

T. A. Taracouzio, War and Peace in Soviet Diplomacy (Cambridge, Mass, ١٩٤٠).

وقد أعد James Bunyan مجموعة من الوثائق والمواد عن الثورة الروسية قدمها في كتابه: ١٩١٨ – ١٩١٧ The Bolshevik Revolution إصدار (ستانفورد يونيـڤرسيتي، كاليفورنيا ١٩٣٤).

كما يمكن الرجوع أيضاً إلى:

James Banyan, Intervention, Civil War and Communism in Russia, April- December ١٩١٨ (Baltimoie, ١٩٣٦).

Publication of the Department of State, Papers Relating to the Foreign Relations of the United States, ١٩١٨, Russia, ٣ vols. (Wshington, ١٩٣٢).

أما عن الدراسات الخاصة بزعماء الثورة الروسية فيمكن الرجوع إلى:

V. I. Lenin, Works (English translation, New York, ١٩٢٩).

D. S. Mirsky, Lenin (Boston, ١٩٣١).

Harold J. Laski. "Vladimir Ilich Ulyanpv (Nicloay Lenin)" in Encyclopedia of the Social Sciences (١٩٣٧ Leon Trotsky, My Life

(New York, ١٩٣٠).

Leon Trotsky, the History of the Russian Revolution (English translation, ٣ vols. inone, New York, ١٩٣٧).

ونجد مجموعة طيبة من الكتب تعرض أحاديث ممثلي الحلفاء وألمانيا وروسيا الإمبراطورية منها:

Major Gineral Sir Alfred Knox, With the Russian Army ١٩١٤ - ١٩١٧, ٢ vols (New York, ١٩٢١).

Major General Max Hoffman, War Diaries and Other Papers, ٢ vols. (English translation, London, ١٩٢٩).

Bruce Lockhart, Memories of a British Agent (London ١٩٣٢).

General A. A. Brusilov, a Soldier's Note Book ١٩١٤ - ١٩١٨ (london, ١٩٣٠).

Major General W. S. Graves, America's Siberian Adventure (New York, ١٩٣١).

L.L. Strakhovsky, The Origins of American Intervention in North Russia (Princeton, ١٩٣٧).

وللدراسات الخاصة بالجيش الأحمر والخلافات في الرأي التي قامت حول مشكلات التنظيم العسكري أثناء الفترة الأولى للحكم السوفيتي يرجع إلى:

Michail Tukhchevsky, Die Rote Armee und die Miliz

(German translation, Leipzig, ١٩٢١)

ويرجع لأوجه تفضيل إنشاء جيش عامل في كتاب:

M. Frunze. Works, in Russian (Moscow, ١٩٢٧).

ولأوجه تفضيل إنشاء نظام الميليشيا في مقال:

S. Gusev, "Our Disagreemenst in Questions of War", in Russian (The Bolshevik, No. ١٥, ١٩٢٤, pp. ٣٤- ٤٩).

ويمكن الرجوع إلى التحليلات اللماعة والدراسات الواعية العميقة عن الجيش الأحمر في المجموعة التالية من المؤلفات التالية:

Max Werner, The Military Strength of the Powers

(New York, ١٩٣٩).

D. F. White, the Growth of the Red Army (Princeton,١٩٤٣).

Erich Wollenberg, the Red Army, a Study of the

Growth of Soviet Imperialism (London, ١٩٤٠).

Nicolaus Basseches, the Unkown Army, (New york, ١٩٤٣).

Michel Berchin and Eliahu Ben - Horin, The Red Arym,

(New - York, ١٩٤٢).

N. Vishniakov and F. Arkhipov, The Structure of the

Armed Forces of the U. S. S. R., in Russian (Moscow, ١٩٣٠).

N. V. Piatnitskii, the red army of the U. S. S. R., in Russian (Paris, ١٩٣٢).

Leonard Engel, "The Red Officer Corps" Infentry

Journal, L II (١٩٤٣, ١٨ - ٢٤).

T. Adamheit, Rote Armee, Rote Welt- Revolution, Roter

Imperialismus (Berlin, ١٩٣٥).

وقد حلل Max Wevner العقيدة العسكرية والاستراتيـچيـة للجـيش الأحمر في كتابيه:

The Great Offensive (New York, ١٩٤٢).

Attack Can Win In, ٤٣ (Boston, ١٩٤٣).

وكذلك نجد أحاديث طيبة عن هذا في الكتب الآتية:

Triandafilov, The Character of Operations of Modern

Armies, in Russian (Moscow, ١٩٢٩).

Michail Tuckhachevsky. "War as a Problem of Military Struggle" in Russian (Great Soviet Encyclopedia vol XII).

Boris Shaposhnikov, The Brain Trust of the Army

in Russian (Moscow, ١٩٢٧).

A. Svechin, Strategy, in Russian (Moscow, ١٩٢٧)

L. S. Amiragov "On the Character of Future Wars"

in Russian, in War and Revolution, July-August, ١٩٤٣

D.F. White, "Soviet Philosophy of War" Politica

Science Quarterly LI (١٩٣٦), ٣٢١ - ٣٥٣.

The Field Service Regulations of the Red Army in

Russian, (Moscow, ١٩٣٦).

والأخير صدر بدلاً من الكتاب طبعة سنة ١٩٢٩، وقد كتب Michail Tukhachevsky دراسة جيدة في المقارنة بين الكتابين القديم والجديد نشرت بالروسية في عدد مايو ـ أغسطس سنة ١٩٣٧ من مجلة The Bolshevik

وتوجد مادة طيبة عن الموضوعات الاستراتيـچية والتكتيكية في الجريدة السوڤيتية اليومية «النجمة الحمراء» Krassnaya Svesda، وفي المجلة الشهرية «الفكر العسكري» Vayennaia Mysl

ونجد بعض دراسات طيبة عن (اقتصاديات الحرب في روسيا السوڤيتية) في المؤلفات التالية:

William H. Chamberlin, Russia's Iron Age (Boston ١٩٤٣).

Ambassador Joseph E. Davies, Mission to Moscow

(New York, ١٩٤١).

Albert Rhys Williams, the Russians (New York, ١٩٤٣).

K. Voroshilov, the Defence of the U. S. S. R., in Russian

(Moscow, ١٩٢٧).

H. C. Cassidy, Moscow, Dateline ١٩٤١- ١٩٤٣ (Boston ١٩٤٣).

وكذلك...

The Land of Socialism Today and Tomorrow.

التقارير المقدمة للمؤتمر الثامن عشر للحزب الشيوعي السوڤيتي

(١٠ ـ ٢١ من مارس ١٩٣٩) موسكو ١٩٣٩ .

A. Baikov. "The Economic Basis of the Defence System of the U. S. S. R". in Russian in Voyennaie Mysl (November ١٩٣٩), pp. ٢١ - ٣٦.

"Soviet War Economy" The Economist, CXLI

(London, ١٩٤١), ٣, ١٧ - ١٨.

الفصل الخامس عشر

ماجينو وليدل هارت

عقيدة الدفاع

بقلم إيرفنج جيبسون

في سنة ١٩٣٩ ذهب الشعب الفرنسي إلى الحرب بروح تختلف عن تلك التي خاض بها الفرنسيون المعركة في فجر الحرب العالمية الأولى، ففي سبتمبر سنة ١٩١٤ عندما كان الألمان يتقدمون نحو باريس استطاعت نيران الوطنية الفرنسية ـ التي كانت تشتعل في عنف وقسوة كما كانت الحال أيام «مالبلاكويه» سنة ١٧٩٣ وسنة ١٨٧٠ ـ أن تخرج النخبة من المقاتلين الذين أوقفوا الغزاة الألمان عند المارن. وفي سنة ١٩٤٠ لم تتوافر مثل هذه الروح القوية، ولم يمكن إثارة حماسة الجيوش الفرنسية بعد الهزيمة التي منيت بها إثر الهجوم الألماني المفاجئ، ولم توجد عمليات التقهقر المتتابعة القدرة أو الطاقة للقيام بهجوم مضاد، وانتهى هذا كله بالتسليم والاستسلام.

ويمكن أن نرجع أسباب الوهن والضعف والروح الانهزامية وافتقار الرغبة في القتال والتضحية إلى عاملين اثنين:

١ ـ الصراع السياسي العنيف الذي كثيرًا ما جرّ الجيش للاشتراك فيه.

٢ ـ كثرة الخسائر التي تكبدها الفرنسيون في الحرب العالمية الأولى.

على أنه كانت هناك عوامل أخرى كثيرة مثل تخفيض مدة الخدمة في الجيش إلى فترة لا تعتبر كافية للتدريب والإعداد، بل وعاونت على إيجاد

تجوال فكري بلغ ذروته في «السلبية»[*] وسبب تقاعس فرنسا في فجر الحرب، ولكن كانت العوامل السياسية والعسكرية هي التي تحتمل المسئولية الرئيسية (السبب الرئيسي) لسقوط فرنسا[١] .

وعندما برزت الجمهورية الثالثة إلى الوجود نتيجة لحرب سنة ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ وبدأت تبني وسائل الدفاع عن كيانها سادت الاعتبارات السياسية من البداية كل مناقشات الهيئة التشريعية لإعادة تنظيم الجيش، وأثبت مبدأ «الأمة المسلحة» ـ المبدأ الذي قام على أساسه الجيش البروسي ـ أثبت أن أمن فرنسا وسلامتها في المستقبل لا يمكن ضمانهما إلا باتباع فرنسا لنفس المبدأ، ولكن قتال جماهير باريس وما قامت به للدفاع عن العاصمة قد أخاف «ثيار»[**] كما أخاف البرجوازيين إلى حد أنهم رفضوا هذا المبدأ في جملته وتفاصيله ذلك لأن الجيش الذي يخدم أفراده مدة قصيرة الأجل لا يمكن الاعتماد عليه بالقدر الكافي، كانوا يريدون قوة بوليسية كبيرة، وبذلك فإن

(*) في الأصل Culminatint in the passive، وقد ترجمت هنا في المعنى الحرفي، وإن كانت في الواقع قد استهدف أن هذا التحول الفكري اندفع اندفاعًا كبيرًا إلى الاتجاه السلبي مغفلًا الانصراف إلى العمل الإيجابي «المترجم».

(١) أوضحت هذه الحقيقة محاكمات «ريوم» التي استمرت من ١٩ من فبراير إلى٣ من إبريل سنة ١٩٤٢، والتي كشفت عن حقائق تثير الدهشة عن حال الجيش الفرنسي وبخاصة ما كان يحدث من تدخل الساسة في اختيار الأفراد للمراكز الكبيرة المدنية منها والعسكرية على السواء مما أضعف معنويات الأفراد وأخل بالضبط والربط في الجيش، ولم تتوافر لي أي سجلات رسمية عن هذه المحاكمات، والمصدر الرئيسي لمعلوماتي عن هذه المحاكمات رسائل ممثلي الصحافة الأمريكية.

(**) ثيار ـ لويس أدولف ثيار (١٧٩٧ ـ ١٨٧٧) ـ مؤرخ وسياسي فرنسي «معجم» ويبستر طبع نيويورك سنة ١٩٥٦ ص١٥١٤ . (المترجم).

الدفاع عن الوطن والكرامة والدفاع عن الممتلكات كانا يقدمان سياستين مختلفتين بالنسبة للتسليح.

وأخيراً أمكن الوصول سنة ١٨٧٣ إلى حل وسط بتقسيم جملة المجندين سنوياًّ إلى قسمين: أحدهما يعمل أفراده في الجيش لخمس سنوات، والثاني الذي أطلقوا عليه deuxième portion «الجزء أو القسم الثاني» يخدم أفراده في ا لوحدات العسكرية لستة شهور. ولم يمكن بعد سنة ١٨٧٣ فصل السياسة عن التشريع العسكري الفرنسي، وانعكس تقسيم الجيش إلى قسمين: ميليشيا أهلية، وجيش عامل محترف تتوافر لأفراده كفاية ومهارة، انعكس هذا بتقسيم الأمة إلى ملكيين وجمهوريين، ثم إلى راديكاليين ومحافظين، وفي إيجاز إلى يمينيين ويساريين.

وبلغ الصراع السياسي ذروته في قضية دريـڤوس(*) وما بعدها، وطهر الجيش من أشخاص أقوياء كثر الشك في أن لهم اتجاهات رجعية.

«وعاشت جمهورية سنة ١٨٧٥ في رعب ورثته عن حوادث يوم ٢ من ديسمبر سنة ١٨٧١ «الانقلاب الذي قام به القادة ـ الـچنرالات» وظنت الجمهورية أنها قد اقتلعت كل عوامل الضعف من جذورها بعد قضية دريـڤوس ولكن الواقع أنها نجحت فقط بالقدر الذي يمكن أن يقال معه

(*) الفريد دريـڤوس (١٨٥٩ ـ ١٩٣٥) ضابط فرنسي اتهم بالخيانة وعزل وسجن، ثم أطلق سراحه فيما بعد عندما أثبتت إعادة التحقيق أنه كان ضحية مؤامرة، فضلًا عما قيل أن الاضطهاد الديني كان عاملًا فعالًا في قضيته «معجم ويبستر ص٤٤٣».
وقد كتب كثيرون من أعلام الكتاب الفرنسيين عن قضيته ودافعوا عنه، وكانت القوة الدافعة وراء هذه الكتابات كلها راجعة إلى الدين أيضًا «المترجم».

عنه أنها سارت سيراً طيباً[١] إلى حد ما، وفي سنة ١٩٠٥ خفضت مدة الخدمة في الجندية إلى سنتين، وفي سنة ١٩١٣ قامت حركة رجعية تستهدف إطالة مدة الخدمة العسكرية ولكنها كانت حركة موقوتة أوجدتها ظروف ودوافع خارجية.

وقد زاد التشريع العسكري الألماني الذي صدر في فجر تلك السنة من قوة تشكيل الجيش الألماني في وقت السلم ووصل بتعداد ذلك الجيش إلى ثمانمائة ألف مقاتل، ولموازنة هذه الزيادة الألمانية كان على الحكومة الفرنسية أن ترجع إلى جعل الخدمة العسكرية لثلاث سنوات، وذلك بسبب أن قلة نسبة المواليد في فرنسا لم تمدها إلا بنصف العدد الذي يصل لسن الخدمة العسكرية في ألمانيا سنوياً.

وأثارت هذه العودة لإطالة مدة الخدمة اليساريين ليقوموا بجهود جديدة، وفي انتخابات سنة ١٩١٤ سجل الإشتراكيون مزيدًا من أصوات الناخبين ووصلوا مقاعد النيابة وهم يقسمون على ضرورة وضع حل «لحماقة التسليح»[٢] .

وفي الحادي عشر من نوفمبر سنة ١٩١٨ التقطوا من جديد خيوط «المسالمة» التي أرغموا على أن يسقطوها من بين أصابعهم عندما بدأت الحرب العالمية الأولى، وطالبوا بالعودة إلى قانون سنة ١٨٧٣ وبتنسيق

(١) A. Geraud (Pertinax) (Gamelin)Foreign Affairs, XIX. ٣١٨، (١٩٤٢) وإشارة جيرو إلى (أنها سارت سيرًا طيبًا إلى حد ما) ترجع إلى حقيقة أنه كان هناك النقص الملموس في المواهب وقوة الابتكار في الجيش الفرنسي، فلم «ينتج» يخرج منه غير رجال ضعاف أمثال جاملان.

(٢) L. Souchon, Feue l'armee francaise (Paris, ١٩٢٩), p. ٧٢.

الخدمة لكل أفراد الجيش في نفس الصورة التي كانت تطبق على أفراد الجماعة الثانية أي الخدمة القصيرة لمدة ستة شهور فقط، وكانوا يستمدون الوحي من كتاب زعيمهم چان چوريس «الجيش الجديد» L`armée Nouvelle(*) الذي نشر قبيل قيام الحرب العالمية الأولى والذي طالب فيه بتشكيل ميليشيا أهلية تخدم لمدة ثمانية شهور فقط(١).

وكما حدث سنة ١٩١٣ سببت الدوافع الخارجية فشل هذه المحاولة لإنشاء جيش قصير مدة الخدمة العسكرية، وجاء الصراع مع ألمانيا على التعويضات وأزمة الرور بمدد لليمينيين وأخصائيهم الكولونيل فابري Fabry الذي قام بعرض مشروع الحكومة(٢)، وكان النزاع على وجهتي النظر

(*) چان ليون چوريس (١٨٥٩ ـ ١٩١٤) زعيم اشتراكي فرنسي وكاتب كبير، تولى سنة ١٨٨٣ منصب الأستاذية لتدريس الفلسفة في جامعة تولوز، ولكنه استقال بعد سنتين عند اختياره عضوًا في الجمعية الوطنية، احتضن قضية العمال في اضرابات عمال الفحم والزجاج بمدينة «كارمو» ولفتت وقفته هذه الأنظار إليه مما جعله يتولى زعامة الاشتراكيين في المجلس الوطني سنة ١٨٩٣، وفي سنة ١٩٠٢ عندما أثارت قضية دريـڤوس ضجة كان له دور كبير فيها، له عدة مؤلفات أهمها: «التاريخ الاشتراكي، ١٧٨٩ - ١٩٠٠» الذي طبع سنة ١٩٠١، وفي يوم ١٦ من يوليو سنة ١٩١٤ اقترح في المؤتمر الاشتراكي الذي عقد في باريس القيام باضراب عام لمنع الحرب العالمية الأولى، وقد اغتيل بسبب هذا بأن أطلق عليه مجهول الرصاص في شارع دي كرواسا يوم ٣١ من يوليو «المترجم».

«معجم ويبستر ص٧٨٤». E. Encycl. Vol. vpp. ٧٣٥

(١) ذهب البعض إلى أبعد من هذا مطالبين بنزع السلاح تمامًا، (راجع "Souchon" نفس المرجع ص٧١) أو تخفيض مدة الخدمة إلى ثلاثة شهور مع اطلاق حرية الإحتراف لخدمة طويلة الأجل، راجع كتاب المؤلف العسكري النابه «المقدم: إ . مايير».

Lt. Col. E. Mayer, La guerre d'hier et l'armée demain (Paris, ١٩٢١ Passim).

(٢) General Duval, "La Crise de notre organisation militaire", Revue de Paris, VII ١٩٢٦, ٧٥٩

ويقول دوڤال أنه يرجع إلى موقف فابري عدم الرجوع في سنة ١٩٢١ إلى قانون سنة=

طويلاً ومريرًا، وافق على تخفيض مدة الخدمة في الجندية إلى ثمانية عشر شهرًا[(١)] .

وفي انتخابات سنة ١٩٢٤ فازت التكتلات اليسارية وبدأت حكومة هريو[(*)] لتوها إعادة النظر في قانون العام السابق، وتقرر ليس فقط تخفيض مدة الخدمة العسكرية بل وإعادة تنظيم العسكرية في فرنسا وتنفيذ مبدأ «الأمة المسلحة» إلى غاية ما لهذا من معنى.

وأعد القوانين المنظمة لتعبئة كل موارد الأمة عندما تضطر للقتال من أجل بقائها.

على أنه بعد مثل هذه المناقشات السياسية العنيفة لم يكن من الممكن إبقاء المناقشات داخل حدود الاعتبارات الخالصة للفن العسكري، ولهذا فإنه لكي نفهم الآراء الأساسية في قوانين سنة ١٩٢٧ ـ ١٩٢٨ يجب أن نقدرها في ضوء التنافس السياسي الطويل الأمد، الذي قام عن المسائل الخاصة بالجيش بين «اليمينيين» و «اليساريين» على أننا يجب أن نذكر بأن

=١٨٧٣ الخاص بتقصير مدة خدمة المجموعة الثانية من الجيش إلى ستة شهور، راجع أيضًا:

"B. A. R." L' armée nouvelle et le service d' une an (Paris, ١٩٢١).

(١) نشر نص القانون وأعيد طبعه بعنوان:

Projet de loi.. sur le recrutement de l'armée préseuté par M. Maginot, ministre de la guerre (Paris, ١٩٢٣).

(*) أورودهريو: كاتب وسياسي فرنسي ولد سنة ١٨٧٢، كان رئيسًا لمجلس الوزراء الفرنسي، تولى رياسة الجمعية الوطنية (١٩٣٦ ـ ١٩٤٠) ثم مرة ثانية سنة ١٩٤٧، انتخب للأكاديمية الفرنسية ١٩٤٦ .
معجم لاروس (١٩٤٧) ص١٤٣٩ .

مبادئ الدفاع القومي كانت في الغالبية تابعة للأيديولوچية السياسية[١] .

وكانت قاعدة هذا التشريع الشعور بعنف ومتاعب وصعوبة الخدمة العسكرية بل والتبرم والضيق بالحياة العسكرية في مختلف صورها malaise militaire، هذه المشاعر التي أخذت بخناق الجيش بل والأمة أيضًا، وكان الحديث عنها طابع كل الكتابات العسكرية لذلك العصر كما كانت الموضوع المشترك الذي تداوم الصحف اليومية على مناقشته[٢]، وهنا يجب أن نلاحظ بأن مسببات وعوامل هذا «المرض» معقدة متشابكة ومن ثم يجب بحثها ودراستها في حرص وحيطة وعناية، على أن أحد الأسباب المباشرة كان تضخم الفرنك الفرنسي مما سبب آلياً هبوط قيم مرتبات الضباط والجنود إلى أقل من النصف، وعلى حين كان الموظفون المدنيون في الحكومة يستطيعون الحصول على زيادة مرتباتهم على طريق المطالبة الجماعية، كان ضباط الجيش هم طبقة «المنسيين».

وعندما دعى بوانكاريه سنة ١٩٢٦ لإنقاذ الفرنك، عادت الترتيبات الاقتصادية العامة مرة أخرى فأصابت الجيش في الصميم، وخفض عدد ضباط الجيش إلى خمسة آلاف غالبيتهم في الرتب الكبيرة، ولم تعد من فرصة للترقية، ولم يعد الجيش يستهوي الأجيال الصغيرة السن، وبدأت الأكاديميات العسكرية ومعاهد تدريب الضباط تخرج مادة خام غير جيدة

---

(١) يوجد عرض جيد للصراع السياسي الطويل حول التشريع العسكري في فرنسا في كتاب:
S. C. Davis, The French War Machine (London, ١٩٣٧).

(٢) راجع:
Lieutnant Colonel Reboul, "La malaise de L'armée" Revue de Deux Mondes, (March ١٥, ١٩٢٥), pp. ٣٧٨ - ٣٩٨.

في خضم التنافس للاتجاه نحو صناعة أفضل[١] .

وفيما عدا الصعاب المالية أن انتشرت الثقة بكفاية المعاهدات الدولية مما يمكن من الاحتكام إليها مع الثقة بعصبة الأمم التي وصلت مكانتها في نفس الفترة ـ فترة لوكارنو ـ إلى الذورة، وكان من الصعب في مثل هذا الجو حث النواب على أن يمنحوا أصواتهم لتخصيص مبالغ كبيرة للدفاع سيما وكل التكتلات تتحدث عن عدم قانونية الحرب، وكل الرجال يمجدون قيام الصداقة الدولية بين الأمم من ناحية الشكل إن لم يكن من ناحية الروح[٢] .

وكانت كل الظروف تقف إلى جانب إنشاء ميليشيا يؤدي أفرادها الخدمة لمدة قصيرة، وكان الاتجاه الجديد لإنقاص مدة الخدمة في الجندية قد بات أمرًا حتمياًّ، بل اتجه كبار ضباط الجيش أنفسهم إلى هذا على أساس أنه

(١) يناقش كتاب:

(General Debeney; Sur la securire militaire de la Françe, Paris, ١٩٣٠)

الموضوع بإفاضة وبخاصة الفصل بعنوان:

(Politique de matériel, Politique des effectives).

وقد حذر من العوامل الاقتصادية الأخري، ويقول المؤلف أنه بسبب أن البنود الخاصة بالأفراد تستهلك ٦٨٪ من الميزانية على حين أن البنود الخاصة بالمواد تستهلك ٣٢ ٪ فقط فإن الأمر يتطلب دائمًا إعادة النظر في هذه البنود الأولى للوصول إلى المنجم الذهبي الذي بها للإنفاق على الأوجه الأخرى، أي أن يوخذ منها بضغطها ما ينفق منه على المواد والعتاد، ويعتبر هذا الفصل تحليلًا دقيقًا جيدًا لكل التنظيم العسكري.

(٢) وصل الليفتينانت لدريبول في نفس المرجع إلى الخاتمة الطريقة بأن الجيش لا غرض له ولا هدف على نقيض الحال قبل سنة ١٩١٤ عندما كانت هناك قوة دافعة لإعداد الجيش تلك هي الرغبة لاستعادة الألزاس واللورين.

أمر لا مناص منه[١]، ولكن غضبهم كان بلا شك كبيرًا، لأنهم لم يكونوا ليستطيعوا فصل برنامج اليساريين الخاص بفنية تنظيم الجيش، عن الدوافع السياسية التي تخالف في مظهرها واقعية حقيقتها.

***

ولقد أحس كبار الضباط بالاتجاهات المضادة للروح العسكرية، كما أحسوا بالمحاولات المتعمدة للتقليل من مكانتهم، ومنذ أن صدر قانون كليمانصو في ١٦ من يونيو سنة ١٩٠٧ والذي قدم كبار الموظفين المدنيين على الرؤساء العسكريين في الاحتفالات الرسمية[٢]، بدأ الضباط العسكريون يتضجرون ويتبرمون، وكانوا يرون شبح چوريه وكليمانصو في كل مكان، ومن ثم راحوا يشكون من أنهم، وهم الذين أنقذوا فرنسا في الحرب كان جزاؤهم جزاء سنمار، هذه التفرقة في المعاملة.

ولكن اليساريين كانوا ينظرون للأمر من زاوية أخرى، ويرون الصورة على نقيض ما يراها فيه العسكريون، كان اليساريون يقولون بأن (الأمة المسلحة) هي التي أنقذت فرنسا، وكانوا يرددون دائمًا كلمات كليمانصو المأثورة من أن الحرب أكثر أهمية من أن تترك للقادة الضباط وحدهم.

والأحقاد المطوية ـ وبخاصة في فرنسا ـ تجد في سهولة ويسر التربة الخصبة للتولد عنها منازعات سياسية تظل قائمة ويكون لها طابع الدوام،

(١) قدم الـچنرال دوڤال ـ الذي كان هو عادة المتحدث الرسمي باسم الجيش والذي كان ذا نفوذ كبير في لجنة الجيش بالمجلس النيابي عن طريق صديقه فابري ـ قدم برنامجًا كاملًا على أساس الخدمة في الجندية لسنة واحدة.

(٢) ديـڤس نفس المرجع ص٨٠ .

ذلك لأنه كان من التقاليد العريقة في القدم أن يكون بين الضباط متحفظون ويمينيون بل وكثيرون من ذوي الأيديولوچيات الإقطاعية ومن ثم كان الضباط الكبار هم الهدف للتهييج الراديكالي.

ولقد نشأ التبرم بالجندية تبعًا للصعاب والمتاعب المتوافرة في الكثير من مناحي الحياة، ولكن كانت سماتها ومدلولاتها: المنازعات السياسية والاتهامات الصحفية والوشايات ثم النزاع بين القادة ـ الذين اتهموا باتجاهاتهم الفاشية ـ وبين الزعماء الراديكاليين الذين كان الأولون يمتهنونهم ويزدرونهم على أساس أنهم يقفون موقف التضاد من الجندية ورجالها وأنهم متطفلون وجهلة وإنهم أعداء فرنسا[١].

وليس بمستغرب في ضوء مثل هذه الظروف أن تستمر الهزة الانفعالية بسبب التشريع العسكري طويلاً وأن تسبب مثل هذا الاضطراب داخل بناء الأمة.

وجاءت إعادة تنظيم قوات فرنسا العسكرية بالفرصة لتبدأ معركة حامية الوطيس بين مبدأين قديمين قدم الحرب نفسها: مبدأ إعداد ميليشيا أهلية من مواطنين أحرار يصل عددهم إلى المليون، ومبدأ قيام قوة مختارة من الجنود المحترفين وأنصاف المحترفين والذين يخدمون في الجندية لمدة طويلة.

(١) نجد نقدًا لاذعًا للسياسيين في كتاب الـچنرال هـ. مورداك:

General H. Mordacq

Les Leçons de ١٩١٤ et la prochaine guerre (paris, ١٩٣٤).

Faut- il changer le régime (Paris, ١٩٣٦).

La defénce nationale en danger (Paris, ١٩٣٨).

وكان مارداك خصمًا عنيفًا لليساريين، واتجاهاته أشبه بطوابع الضباط الفرنسيين الذين تتوافر لهم الاتجاهات الفاشية الذين هاجمهم الدفاع في محاكمات ريوم هجومًا عنيفًا.

والتاريخ الفرنسي مليء بالدوافع التي تمكن من أن يستند إليها دعاة كلا المبدأين، نجد من جهة «الجماهير المسلحة» التي جاءت بالمجد والفخار لفرنسا الثورية، ونجد جيش غمبتا(*) Gamboetta الشعبي الذي إنهار أمام الألمان، ولكن من جهة أخرى نجد الجنود المحترفين الذين قادهم نابليون فاكتسحوا كل شيء يسد طريقهم، كما نجد الحرس الإمبراطوري لنابليون الثالث بما كان لجنوده من مظهر تافه خسيس في معركة سيدان(**)، وكانت هناك غير ذلك الأمثلة القائمة وبخاصة التي تكون طرفي النزاع وقطبي الجدل، النظام العسكري الإنجليزي والنظام العسكري السويسري.

ووضح بعد سنة ١٩٢٤ أن لا نهاية للجدل، ثم جاءت مقترحات مضادة من «فابري» و «ديلادييه» وغيرهما فزادت من تعقد المشكلة[١]، وهذه المشكلة المتعددة الزوايا المتباينة الاتجاهات.

(*) غمبتا (١٨٣١ ـ ١٨٨٢): ليون غمبتا، سياسي فرنسي، تولي رياسة الوزارة الفرنسية (١٨٨١ ـ ١٨٨٢) «معجم ويبستر ص٥٩٤».

(**) سيدان: مدينة في شمال شرق فرنسا على نهر الميز، سكانها ١٣.٠٠٠ (إحصاء سنة ١٩٤٥) مسرح معركة هزم فيها الألمان الفرنسيين سنة ١٨٧٠ في الحرب الفرنسية ـ الألمانية «معجم ويبستر ص ١٣١٨». «المترجم».

(١) يمكن أن نجد نقاشًا طيبًا لمختلف وجهات النظر في مقال كاتبه مجهول وقع بإمضاء (xxx) (XXX) (Noter reorganization militaire), Revue Politique et Parlementaire (September ١٠, ١٩٢٦) pp. ٣٧١ - ٤٠.

وقد طبع اقتراح الحكومة مع عرض للدوافع لما في هذه المقترحات المضادة بعنوان:

Rapport fait au nom de la Commission de l'aumee chargee d'examiner le projet de loi relatif recrutement de l'armée, ed. m. paulBernier (paris, ١٩٢٧).

وجزء هذا التقرير الذي وسم بعنوان: (Conditions Préalabled)

له أهميته الكبيرة بسبب أنه يحتوي على المبادئ الأساسية لتنظيم الجيش الجديد.

على أن العامل الأساسي لإثارة الجدل والنقاش كان الرغبة لتقريب الأمر ما أمكن من الصورة العامة للميليشيا، وكانت النتيجة تخفيض مدة خدمة الجندية إلى سنة واحدة، وقد سبب هذا بالطبيعة تخفيض التأثير الذي يوجده قيام حالة السلم.

وفي مقابل هذا تضاف جماعات من المحترفين إلى جملة المجندين سنوياً والذين يصل عددهم إلى ٢٤٠.٠٠٠ لتكون جملة قوة الجيش الفرنسي ٤٠٠.٠٠٠ وذلك دون احتساب قوات المستعمرات، وقد يبدو هذا في نظرة سطحية على أنه تناقض من اليساريين الذي كانوا يكشفون دائمًا عن كراهيتهم للجنود المحترفين، فكيف يضحون بما عملوا له طويلاً لإنشاء الأمة المسلحة، بإقامة جيش المواطنين الذي يقوم على أساس احتياطي كبير تدربه قوة عاملة صغيرة العدد، ولكن الواقع أن هذا المزج بين الطابعين كان نتيجة الاعتقاد العام بأن الاحتياطي الألماني الذي يصل عدده إلى مائة ألف من المحاربين المحترفين يمكن في أي وقت زيادة عدده بإضافة ١٥٠.٠٠٠ جندي يعملون في خدمة البوليس، بل وأن يصل العدد بإضافة أعضاء منظمات سرية ليكون أربعمائة ألف، ثم جاءت فكرة جديدة لها قوتها وأهميتها هي أن هذه القوة يمكن في أي وقت ـ بعد الإنذار بدقيقة واحدة ـ أن تتجه نحو الحدود الفرنسية تبعًا للنظريات العسكرية التي أوجدها الـچنرال هـ. ڤون سيخت قائد عام القوات الألمانية وصاحب فكرة الحرب البرقية (ataque brusquée)[١] .

(١) كانت هذه وجهة النظر الرسمية التي قامت على أساس تقادير الـچنرال نوليه Nollet رئيس لجنة رقابة الحلفاء في ألمانيا والذي وضح نفوذه الكبير على النواب العسكريين الفرنسيين أثناء مناقشة موضوع خط ماچينو، راجع: =

وكرر التاريخ نفسه، ففي سنة ١٩١٣ سبب التسليح الألماني تحول النواب الفرنسيين، ففرضوا الخدمة لثلاث سنوات في القوات المسلحة على الفرنسيين، وفي سنة ١٩٢٧ ـ ١٩٢٨ أتلفت وعطلت الأحوال في ألمانيا، أو بمعنى أدق تفسير القادة العسكريين الفرنسيين لهذه الأحوال، برنامج اليساريين الذي قصد به قيام الجيش الفرنسي على هدي الميليشيا الأهلية السويسرية.

وكانت الدعامة الأساسية التي يستند إليها العسكريون في جدلهم دائمًا، تصوير الغزو الألماني في طابع برقي سريع خاطف ومن هنا يجب أن يتولى الجيش حراسة الحدود في قوة تكفي للتغطية(١)، وعلى حين تبقى هذه القوة العدو مكانه على الحدود تسير عمليات التعبئة في داخلية البلاد دون أي تدخل خارجي، والتعبئة تتطلب الوقت سيما إذا كانت الاستعدادات وقت السلم في مستوى منخفض، وكان النظام الذي استخدمه الألمان سنة ١٨٦٦ ثم قلدته كل الدول العسكرية بعد سنة ١٨٧٠ يقوم على أساس الاحتفاظ بقوات كبيرة تثب إلى مرتب الحرب بضم الاحتياطي إليها في أول مراحل التعبئة ولكن النواب الفرنسيين عارضوا هذا النظام(٢)، وكان النظام

= Chambre des Dépatés Débates XXXIX (١٩٢٩), ١٧٢٣

وقد طبع الـچنرال نوليه وجهات نظره فيما بعد في كتاب:

Une expérience de désarmament, Cinque ans des controlé militaire en Allemagne (paris, ١٩٣٢).

(١) General Debeney, "Le probleme de la Couverture", Revue des Deux Mondes, ٨th per. XXXVI (١٩٣٨) ٢٦٨ – ٢٩٤.

(٢) General Brindel, "Le nouvelle de la Couverture", Revue des Deux Mondes, ٧th per. LI (١٩٢٩) ٤٨١ – ٥٠٢.

الجديد الذي قبلوه يحتوي على ثلاثة تشكيلات: قوة دائمة لحراسة الحدود و «تغطيتها»، قوة دائمة أخرى لتدريب وإعداد المجموعات التي تجند سنوياً، ثم تشكيل ثالث دائم لإعداد عمليات التعبئة وليكون الإطار الذي يستكمل عند بدء الحرب بانضمام الاحتياطي إليه، وتتكون التشكيلات من جنود محترفين على درجات مختلفة من التدريب والإعداد.

وفي ضوء هذه العناصر الأساسية للتنظيم العسكري لم يكن في فرنسا جيش في وقت السلم إلى غاية ما يمكن أن تعني كلمة« جيش» في الطابع القديم، كان لديها فقط حرس دائم للحدود يضاف إليه ٢٤٠.٠٠٠ جندي من المجندين الجدد يتدربون على مختلف صور القتال، فإذا ما أتمت مجموعة ما تدريبها انصرف أفرادها إلى الحياة المدنية، وكان التنظيم القديم يقضي بأن يظل مجندو العام السابق في الوحدات لسنة أخرى أو لسنتين وكان هؤلاء هم في الواقع جيش فرنسا في السلم، ولكن ألغي هذا التنظيم، وكان الجيش الفرنسي في الواقع عبارة عن مجموعات في الاحتياطي لو جاز لنا أن نستخدم الاصطلاح القديم؛ ***والواقع*** أن هذا كان في جملته فكرة جديدة، تكوين أمة مسلحة في ضوء التحديدات الجغرافية وغير هذا من الظروف التي تخرج عن سيطرة فرنسا أو بمعنى أدق تبعًا لأوضاع ليس لفرنسا أي يد فيها.

وكان هذا هو التنظيم الذي بدأت فرنسا على أساسه الحرب سنة ١٩٣٩(!!) بالرغم من أن فرنسا كانت قد عادت سنة ١٩٣٥ إلى نظام مد الخدمة في الجندية لسنتين كبديل معوض لنقص نسبة المواليد في سنوات

الحرب العالمية الأولى[١] .

وقال ناقدو القانون أن الجيش الفرنسي قد تفتت إلى ثلاثة أقسام منفصلة أو ربما إلى أربعة على أساس أن جيش المستعمرات له تنظيمه المستقل ويخدم أفراده لسنتين، وأن إنشاء وحدات منفصلة مع تنظيمات واختصاصات متباينة وسيكون ولا شك تربة ممهدة للتنافر مما يزيد من التبرم الذي سببته السياسة واختلاف الأيديولوچيات، ثم إنه لا يمكن في سنة واحدة أن توجد في الرجال الروح العسكرية الحقيقية وبذلك يكون الجيش قد فقد قوة الضرب التي يجب أن تتوافر له، وكذلك فإن الإصرار على جعل «الدفاع» طابع التنظيم العسكري سيسبب القضاء على روح الابتكار وعلى خاصية الهجوم بل وعلى الرغبة للعمل لنقل المعركة إلى أرض العدو، وفي هذه الحال لن يقوى الجيش على احتمال صدمة طعنة الهجوم البرقي، وهكذا سيستطيع جيش سيخت المدرب على الهجوم البرقي باختراق أرض فرنسا قبل أن يستطيع هذا التنظيم «للأمة المسلحة» أن يبدأ العمل الذي يمكن أن يوكل إليه[٢] .

(١) Marshal Petain, "La sécurité de la France au cours des, années creuses", "Revue des Deux Mondes", ٨th per., XXVI (١٩٣٥) ١ – ٢٠.

وكان هذا المقال من المقالات التي أوصت بها المجلة، وقد ألح الكاتب على ضرورة العودة بالخدمة العسكرية إلى نظام السنتين بسبب أن الهجوم البرقي كان أكثر احتمتالًا مما كان في أي وقت أخر، وقد أثر نقص عدد الموالين تأثيرًا كبيرًا إلى حد أن الماريشال يقول بأن بعض الفرق كانت بها اثنتا عشرة سرية فقط.

(٢) الكتب والدراسات التي كتبت في فرنسا عن الـچنرال سيخت والهجوم البرقي (الخاطف) attaque brusquée وكذلك الإشارة إلى هذه في خطابات أعضاء المجلسين النيابيين الفرنسيين تعتبر كثيرة كثرة تثير الدهشة، والواقع أن محللًا عسكريا انجليزيا هو الميـچر شيبارد Shepperd قد وصل في بحث له بعنوان: "Two Generals, One Doctrine" =

والواقع أن الكثير من نقاط هذا النقاش ليس من السهل نقضها أو رفضها، فإن نقص روح الهجوم لم تكن لتقلق الفرنسيين بسبب أن هذا كان الطابع العام للأمة كلها، كان كل ما يطلبه الفرنسيون هو السلامة والأمن من الهجوم، وكانوا مطمئنين للسلامة والأمن ضد الهجوم ما بقي جيش

=صدر في مجلة Army Quarterly المجلد ٤١ لسنة ١٩٤٠ ص١٠٥ ـ ١١٨ إلى أن ديجول قد أحسن عرض هذا الخط والعمل ضده في كتاب «جيش المستقبل» armée de métier، كما ناقش الـچنرال ديني dehney في مرجعه المشار إليه في حديث طويل كيفية العمل ضد الهجوم المفاجيء، وفي كتاب آخر له هو:

La guerre et les hommes: reflexions d'après guerre (Paris, ١٩٣٢).

في الفصل الخاص بقوة «التغطية» عرض بقدر كبير من النقاش لهذا الخطر، وهكذا أيضًا فعل الـچنرال مورين Maurin في كتابه:

L'armée moderne (Paris, ١٩٣).

والـچنرال شوڤينو Chauvineau في كتابه:

Une invasion, est-elle possible? (Paris, ١٩٣٩).

وكان للرجلين تأثير كبير في الفكر العسكري الفرنسي.

وقد طبعت مقالات وخطابات سيخت عن الحرب البرقية في كتاب:

Gedanken eines Soldaten

صدر ببرلين سنة ١٩٢٩ وصدرت ترجمة له إنجليزية بلندن سنة ١٩٣٠ بعنوان "Thoughts of a Soldier"

وقد زيد من مخاوف «الحرب البرقية» نتيجة لانتشار عقيدة الـچنرال الإيطالي دوهيه عن الحرب الجوية أو على ما أسماها به الألمان

"Schrecklich keltskrieg"

أي «الحرب ا لمليئة بالمخاوف» وقد أجمل الـچنرال ڤوتيير A. Vauthier وهذا في كتابه:

La doctrine de guerre de Général Douhet (Paris, ١٩٣٥).

الكتاب الذي كتب مقدمة الماريشال بيتان وقرأ في نطاق واسع داخل وحدات الجيش الفرنسي.

الاحتلال في أرض الرين، ولكن لما أن انسحب هذا الجيش تبعًا للاتفاقات الدولية فقدت فرنسا هذه الأفضلية الاستراتيـچية، أفضلية قيام قوة للتغطية داخل الأرض التي يتوقع منها الهجوم، ومن ثم كان من الضروري إنشاء تنظيم آخر لتغطية الحدود الفرنسية لضمان الأمن.

وكانت الفكرة أنه مع احتلال فرنسا لأرض الرين فإنها تستطيع أن توفر الوقت الكافي ليبدأ تنظيم «الأمة المسلحة» عمله وليستطيع القيام بدوره وواجبه في تشكيل كامل التعبئة تبعًا لمرتبات الحرب أسوة بالألمان حتى ولو حصل الهجوم البرقي الألماني على بعض النجاح في المراحل الأولية، وكل ما سيحدث لو اضطرت قوات التغطية للتقهقر خسارة أرض ألمانية يحتلها فرنسيون؛ ولكن بعد سنة ١٩٢٩ ضاعت هذه الأفضلية، وفي نفس تلك السنة صوت النواب إلى جانب الاعتمادات الضخمة التي كانت الحكومة تطالب بها منذ سنة ١٩٢٦ لإقامة تحصينات على الحدود الشرقية، وكان هكذا ميلاد خط ماچينو (!!)[١].

وقد نشأ أصل خط ماچينو من فكرة «التغطية» غير المعروفة في أي جيش آخر في العالم، على أن تقاليد إقامة التحصينات الدائمة أقدم وأقوى في فرنسا منها في أي بلد آخر ويمكن تعقبها إلى أيام ڤوبان[٢]، وجاءت قوى

(١) كانت الأسباب الموضحة فيما قبل هي التي مكثت من صدور كتاب الـچنرال دوبني سنة ١٩٣٠ الكتاب الذي وسم بعنوان:

"Sur la sécurité militaire de la France"

(٢) L. Montighy, "Les systèmes fortifiées dans la défence de la France depuis ٣٠٠ ans" Revue militaire Frances LVII- VIII (September- December, ١٩٣٥). في مقالات أربعة متتابعة.

راجع الفصل الخاص بـڤوبان والتحصينات الفرنسية في الكتاب الثاني من «رواد الاستراتيـچية الحديثة».

دافعة جديدة بعد سنة ١٨٧٠ فكان أن أقيمت تحصينات كان من أهمها تحصينات ڤردون التي نالت شهرة كبيرة أيام الحرب العالمية الأولى، على أن ڤردون تقدم لنا شيئًا آخر فإن استطاعة تحصينات ڤو Vaux ودومو Douaumont احتمال أعنف تدميرات مدفعية الألمان الثقيلة كانت من أهم العوامل التي سببت الموافقة الأخيرة على إقامة تحصينات كبيرة في نطاق واسع تجاه الحدود المشتركة مع ألمانيا، وقد يكون من الضروري هنا أن نذكر بأنه سبقت هذه الموافقة على الاعتمادات المطلوبة للتحصينات مناقشة طويلة شغلت وقت النواب طوال سنة ١٩٢٩[١] .

والواقع أن القوانين التي صدرت سنة ١٩٢٧ ـ ١٩٢٨ و «تحصينات الحدود الشمالية الشرقية» على ما سمى «خط ماچينو» أصلاً قد نوقشت كلها معًا وكان بول بنليـڤيه[*] وزير الحربية الفرنسية في ذلك الوقت هو الذي احتمل مسئولية الأمرين معًا، إلا أن ماچينو يعتبر صاحب الفضل فقط في موافقة النواب على الاعتمادات الضخمة عندما تولى وزارة الحربية، وقد تسلم من سلفه الخطة والتفاصيل الدقيقة فنفذها[٣] .

---

(١) يبدو ـ على ما جاء في خطاب لبنليـڤيه وزير الحرب في ٤ من مارس سنة ١٩٢٧ بأنه كان هناك خلاف في الرأي أيضًا بين أعضاء «المجلس الأعلى للحرب» راجع: Chambre des Députés, Débats CXXXI٤٨٤

وراجع أيضًا: "Exposée des motifs attached to the bill in Documents CXUI, ٣٦٧.

(*) بول بنليـڤيه عالم من علماء الرياضيات اشتغل بالسياسة (١٨٦٣ ـ ١٩٣٣) ولد بباريس تولى رياسة مجلس الوزراء سنة ١٩١٧ وسنة ١٩٢٥ تولى وزارة الحرب سنة ١٩٢٧ – ١٩٢٨ «معجم لاروس سنة ١٩٤٧ ص ١٥٨٨».

(٣) P. Belperron, Maginlt of the Line (London, ١٩٤٠).

يقول المؤلف في ص٨٣ أن هيريو اقترح سنة ١٩٣٠ أن يطلق على التحصينات «خط بنليـڤين».

وهنا مسألة لها أهميتها، فلقد وضع التخطيط للتحصينات وأعدت الرسوم إلى أدق تفاصيلها وقدرت الاعتمادات وكان هذا كله وبنليـڤيه يتولى وزارة الحربية، والأهمية التي نراها هنا هو أن بنليـڤيه نفسه هو الذي تحدث إلى النواب سنة ١٩١٧ وهو يتولى رياسة الوزارة قائلاً: «لن نقوم اليوم بأي هجوم»(١) وسرعان ما خلفه كليمانصو رئيسًا للوزارة، وكليمانصو من أشياع مبدأ الهجوم فعمل للهجوم وكسب الحرب بمعاونة الإنجليز والأمريكان؛ ولكن عندما عادت الجيوش البريطانية ـ الأمريكية إلى أوطانها عاد الفرنسيون إلى الاتجاه السلبي، هذا الاتجاه الذي أدى لسقوط فرنسا سنة ١٩٤٠، وكان أبرز مظهر لهذا خط ماچينو، الرمز الحقيقي للتحول العميق من جانب الأمة الفرنسية ومشاعرها نحو «العامل الهجومي»

وقد أجمل هذا الـچنرال مورين عندما أدلى وهو وزير الحربية يوم ٣ من مارس سنة ١٩٣٥ في المجلس الوطني:

«كيف يمكن أن يصدق بأننا ما زلنا نفكر في الهجوم ونحن ننفق بلايين الفرنكات في إنشاء حاجز من التحصينات؟ هل نكون إلى هذا الحد من الحماقة لنخرج من وراء هذا الحاجز لنحاول القيام بمخاطرات عسكرية يعلمها الله وحده؟

إنني أقول هنا لأوضح لكم رأي الحكومة ذلك لأن الحكومة ـ على الأقل بالنسبة لي أنا ـ تعرف خطط الحرب جيدًا»(٢) .

---

(١) سوشون Sonuchon نفس المرجع ص١٦٨، لخصت المهاجمات ضده في كتاب:

P. Painlevé, De la Science à le Defense nationals (Paris, ١٩٣١) p. ١٢٢.

(٢) Paul Reynaud, le problème militaire française (Pares ١٩٣٧) p. ٢٧.

وهذا الكتاب الصغير مرجع قيم للمعلومات، كما يوجد مجمل طيب عن خرافة خط=

على أن «عقلية ماچينو» لم تكن لتكتمل لولا أسطورة ڤردون التي صيغت طول شخصية الماريشال بيتان، ففي ڤردون أنقذت فرنسا وتكبد العدو ضربة معنوية ساحقة مدمرة، وقد تم كل هذا بوساطة الدفاع، وأمسى بيتان الرمز الحي للدفاع بالرغم من أن بيتان نفسه لم يكن يؤمن إيمانًا مطلقًا بهذا المبدأ من مبادئ الحرب.

ولكن الأساطير الشعبية لا تقوم على التقديرات الفنية الدقيقة(١)، وأوجد الفكر الفرنسي شعورًا مجسمًا كان في نفس الوقت باعثًا للراحة والطمأنينة، فقد صور الحرب العالمية الأولى على أنها عملية دفاع مليئة بالبطولة وجاءت بنصر كامل.

***

وأضعفت عقلية ماچينو السياسة الخارجية الفرنسية، وسببت قيام هتلر، وإعادة تسليح أرض الرين كما جعلت كل الاعتداءات الفرنسية الأخرى ميسورة مستطاعة(٢)، وهكذا قد يمكن أن نوجد علاقة عارضة بين

=ماچينو في كتاب:

H. Pol, Suicide of a Democracy (New York, ١٩٤٠), pp. ١٠٦ - ١١٠.

(١) أحسن ج. م. بورچيه J. M. Bourget عرض هذا في دراسة له بعنوان: J. M. Bourget

"La légande de Maréchal pétnin" Revue de paris, January, ١, ١٩٣١

صفحة ٥٧ ـ ٧٠، ويقول الكاتب: أن الأسطورة قد أضعفت ميزة بيتان التاريخية بإغفالها التام للدور الذي قام به بيتان في معركة ڤردون الثانية.

(٢) راجع:

Lieut. Col. Jean Fabry ،(La Stratégie Générale affaire de government) in Revne Militaire Générale I.

لسنة ١٩٣٧ ص٣٨٧ ـ ٣٩٠، ويناقش الكاتب في هذا البحث سياسة الحكومة الضعيفة=

مبدأ الأمة المسلحة الذي أوجد الاندفاع à outrance سنة ١٩٢٧ ـ ١٩٢٨ وبين عقلية التغطية التي أوجدها خط ماچينو وأسطورة ڤردون التي جسمت من «العامل الدفاعي».

وكان مجمل هذا كله اتجاهًا سلبياً سيطر على عقل الفرنسيين وبعث فيهم شعورًا كاذبًا بالأمن والسلامة، كما أنه أوجد جوًّا يمكن أن ينتشر به الضعف في كل فروع الجيش الفرنسي، وانتهى الأمر إلى ما وصفه ديجول بأنه: «الشعور الغامض بالعجز ـ نقص القوة»[١] .

=ويبرز أن طابع الجيش الذي نظم في فرنسا لم يسمح بأي عمل سياسي جريء في الوقت الذي أعاد فيه هتلر تسليح أرض الرين.

(١) تنبأ ديجول في مذكرته التي قدمها للقيادة الفرنسية العليا في ٢٦ من يناير سنة ١٩٤٠ باختراق الألمان لخط ماچينو وألح في تشكيل فرق مدرعة.

راجع الأصل الفرنسي للمذكرة مع ترجمة لها بالانجليزية في National Revue العدد ١١٥ لندن سنة ١٩٤٠ ص٣٩٣ ـ ٤٠٥، والكلمات المنقولة هنا من ص ٤٠٠ .

وحياة ديجول العسكرية، والضجة التي أثارها حول كتابه «جيش المستقبل» ثم إيمانه القوي بأفضلية العامل الهجومي، كل هذا في الواقع قليل من كثير مما كان في سلسلة المناقشات العسكرية الفرنسية لمحاولة العودة لتقاليد الهجوم.

على أن أول من كتب بعد الحرب في نقد السياسة السلبية في العقيدة العسكرية كان «المقدم» الليفتينانت كولونيل آليهو في كتابه:

Lt. Col. E. Alléhaut, (Le guerre n' est pas une industrie, Nancy ١٩٢٥).

وكان «آليهو» واحدًا من أكبر دعاة الحرب الهجومية، ولما كان الـچنرال آليهو هو الضابط الفرنسي الوحيد برتبة كبيرة الذي أدرك قيمة ديجول فإنه قد منحه كل معاونة ولكن في نفس الوقت أشار إلى أخطائه بوضوح. راجع كتابه: Etre prèts (Paris, ١٩٣٥) pp. ١٦٧ - ١٧٩

وكان اهتمام الألمان بكتاب الـچنرال اليهو كبيرًا إلى حد أن الـچنرال ليب Leeb كتب مؤلفه الكبير Die Abwehr (Berlin, ١٩٣٨).

ويعتبر تقديرًا كبيرًا لدور ديجول، راجع أيضًا.

H. A. De Weerd, weerd, "De Gaulle As a Soldier" Yale Review XXVII (١٩٤٣) ٧٦٠ - ٧٧٦.

I, obscure sentiment d'impuissance.

ونستطيع بوضع خط ماچينو كقاعدة للدراسة أن تتعقب في سهولة أصل العقيدة العسكرية للاحتمالات المحدودة للحرب، هذه الاحتمالات التي تستند إلى الدفاع والتي على أساسها بدأت فرنسا الحرب سنة ١٩٣٩، متمسكة بها حتى بعد معركة بولندة التي أبرزت القوة التي «للعامل الهجومي» على أننا يجب أن نضع في تقديرنا أن الجيش الفرنسي لم يكن شيئًا غير «الأمة المسلحة» وإن الأمة الفرنسية قد آمنت الإيمان كله بخط ماچينو، ومن الطبيعي أن الجيش كان يعكس وجهة النظر هذه.

وبذلك لا تتوافر له القدرة أو الطاقة للإيمان بعقيدة تتطلب قوة الابتكار أو تؤدي إلى العمل الجريء المليء بالشجاعة والتضحية.

ومن الطبيعي أن عقيدة دفاعية تدفع إلى هذا الحد في عقول الأفراد لا يمكن أن توجد إلا عقلية مضطربة وبطءاً في الحركة ونظامًا فجاً في التموين، بل وفي كل ما يختص بتنسيق أعمال الوحدات.

وقد انعكست هذه الصورة في العقيدة العسكرية التي اتخذت أساسًا للعمل بعد الحرب العالمية الأولى، وقد وصف الروس في سنة ١٩٣٢ هذا الموقف فيما يلي:

«إن غالبية العتاد الفرنسي لا قيمة له، والوحدات بطيئة في تحركات وأعمال المناورة، والقيادة العليا تزعم لنفسها العلم على غير حقيقة، والروح الهجومية التي وقد تكون ما زالت قائمة في بعض الأفراد لا تعتبر كافية»[١] .

(١) نشرت مجلة Christian Science Monitor في عددها الصادر بتاريخ ٨ من إبريل سنة ١٩٤٢ هذا الرأي، ونقلته عن المجلة العسكرية الروسية Voyna i Revolucia عندما تحدثت عن محاكمات ريوم.

***

كانت العقيدة العسكرية الفرنسية تقوم على أساس الكلمتين السحريتين «قوة النيران» وهما مجرد تغيير في وجهات النظر التي تستند إلى «العامل الدفاعي»، فإن «قوة النيران» قد بنت كل شيء حول مسألة «الساتر» العامل الحاسم وراء خط ماچينو، وقوة النيران التي توجدها المدفعية تعطي ساترًا من الوقاية للجيش كما أن الحدود المحصنة في الشمال الشرقي يمكن أن تقي الأمة وأن تحميها، ويمكن أن نرجع بأصل هذا الإيمان في قوة النيران إلى الصدمة القاسية نتيجة للخسائر الفادحة التي تكبدها الفرنسيون في معارك سنة ١٩١٤ وتبعًا ـ من جهة أخرى ـ لأسطورة «ڤردون».

وفي سنة ١٩١٤ لم تكن هناك وحدات مدفعية ثقيلة ملحقة بقوات الميدان، على حين كانت قولات المدفعية الألمانية تقف وراء الواحدات الألمانية على أتم استعداد لمعاونة وحدات المدفعية الخفيفة، وكان التأثير المدمر للغلالات الثقيلة التي ألقيت على صفوف الفرنسيين من المدفعية الألمانية هي أول درس تعلمه الفرنسيون عن قوة النيران، وقد دفع الفرنسيون ثمنًا غالياً لهذا الدرس من الأجسام البشرية، ولما كان الفرنسيون يفتقرون إلى الآلات فقد اضطروا إلى سد الثغرات التي تسببها المدفعية الألمانية وأن يسدوها بالرجال(١) .

وعندما جدد الألمان عملياتهم الهجومية الواسعة النطاق في الجبهة الغربية سنة ١٩١٦ تجاه «ڤردون» كانت المدفعية الثقيلة الفرنسية ـ التي

(١) وصف هذا بول بنازيه Paul Bénazet رئيس لجنة الحرب الجوية بمجلس الشيوخ في كتابه.
Défense nationale, notre sécurité (Paris, ١٩٣٨), pp. ١ - ١٥.

كانت لتوها قد نظمت ـ هي التي ردتهم للخلف وأنقذت فرنسا، وكان هذا هو الدرس الثاني الذي يذكره الفرنسيون، بل وأن يجسموا منه ويقدسوه إلى حد أن تنوسيت معارك الدبابات العظيمة التي حدثت سنة ١٩١٨ .

وأضحت «قوة النيران» «تعويذة»(١) لكل جديدة، فالطائرة سلاح يلحق بالمدفعية، والدبابة لا يمكن أن تعمل بعيدًا إلى ما وراء مدى الرؤية لمدفعية السلاح الذي يمد الوحدات «بقوة النيران»(٢)، وتطورت وسائل النقل في تقدمها من حسن إلى أحسن لغرض واحد أن تجيء بالمزيد من الذخيرة وغيرها من المواد لتلعثم هذا العملاق «مولوخ» Moloch(*) الذي لا يشبع ولا يقنع مهما ألقم للإمداد بقوة النيران.

وكانت الفكرة هنا أن قوة النيران تحطم كل ما يمكن أن يستند إليه

---

(١) راجع:

Ph. Barrès, Charles De Gaulle (New Youk, ١٩٤١). pp. ١٢ – ٣١.

وقد عرض السنوات التي قضاها ديجول في كلية الحرب ١٩٢٤ - ١٩٢٦ ويصل الـچنرال مويران Moyrand وهو يلقي بمحاضراته عن «الأرض»، وقد درست المناطق بدقة وقسمت الأرض إلى قسمين ينال كل قسم نصيبه من النيران، وكانت النظرية وراء هذا ضرورة دفع العدو إلى مناطق محددة يعرض فيها لأعنف تدمير، وقد وصل بارس إلى خاتمة توضيح يتقنه بأن هذه النظريات عن الأرض هي التي خرجت منها فكرة خط ماچينو.

(٢) ذكر هذا كبيان رسمي أدلي به الـچنرال م سكايارد مفتش الدبابات أثناء محاكمات ريوم راجع عدد ٢٠ من مارس سنة ١٩٤٢ من جريدة New Youk Sun وكانت الفكرة أنه منذ أن قيدت الدبابات بمدى الرؤية للمدفعية فإنها لم تعط وقودًا لأكثر من عمل خمس ساعات، ومن ثم فقد كانت تقع في أيدي الألمان لافتقارها إلى الوقود لتستطيع الحركة والانسحاب.

(*) كلمة عبرية من Melech أي ملك، ووردت كلمة مولوخ Moloch في العهد القديم على أنها تعني بإله الفينيقيين القدامى الذي كانوا يضحون بالأطفال على مذبحه، واستخدمت استخدامًا حديثًا لتصريف كل ما يتطلب تضحيات كبيرة ولا يقنع بالقليل «معجم ويبستر ص٩٤٨». «المترجم».

العدو لو أراد الانتقال إلى الدفاع وهنا ـ أي في هذه الحال فقط ـ يتحرك المشاة الفرنسيون للقيام بالهجوم.

وقد تَنُوسي مبدأ «الحركة» والمفاجأة، وجمدت العقيدة الفرنسية عند حد إعداد تقديرات حسابية لمعرفة كيفية إعداد كل ياردة مربعة لخداع العدو وتضليله، وإرغامه على النفوذ إلى هذه الأرض حيث يمكن تدميره.

وكانت كلمتا «النيران القاتلة» هما الحكمة المضللة التي اصطنعها الماريشال بيتان، وتحولت هاتان الكلمتان لتكونا «عقيدة» و «مذهباً»(١) .

وانتشرت العقيدة في نطاق واسع، ودعم التبشير بها من مكانتها، وبخاصة لأن الدعاة لها كانوا من أعلام الفكر الخبيرين بصناعتهم، فقد كتب الـچنرال شيـڤينو Chauvineau كتابًا عن «النظرية الدفاعية التي تستند لقوة النيران»، ونال الكتاب ذيوعًا كبيرًا بسبب المقدمة القوية التي كتبها له الماريشال بيتان(٢) .

---

(١) هـ. بول نفس المرجع ص١٨٨، يرجع بالنسبة لنظرية «النيران القاتلة» إلى الخطاب الذي ألقاه ديلادييه في ٢ من فبراير سنة ١٩٣٧ في مجلس النواب، ومضبطة المجلس Deputés Débats, CLXI, ٢٩١.

توضح أن ديلادييه نفسه كان موافقًا على هذه النظرية.

(٢) قدم الكثير من نقاط هذه المقدمة في محاكمات ريوم؛ لأن الدفاع قد حول منها لمهاجمة الادعاء، بل وأحيانًا لاتهام بيتان نفسه من زاوية أقل عنفًا، وقد قرأ ديلادية في ١٨ من مارس: «أن العمل المباشر للقوات الجوية في المعركة لمسألة جدلية، فالقوات المقاتلة على الأرض عرضة لتلقي الضربات ولتوجيه الضربات المضادة بدورها، ولكن عمل القوات الجوية كبير الأثر ولا شك في المناطق الخلفية» نيويورك تايمز عدد ١٠ من مارس سنة ١٩٤٢، وكان معني هذا الاعتراض على اعتبار السلاح الجوي سلاحًا حاسمًا، وهذه خطوة قد أبرزها الـچنرال شيـڤينو، والكتاب في جملته مجمل جيد لإيضاح عقيدة الدفاع السلبي التي سيطرت على الفرنسيين وساروا فيها إلى مدى واسع.



موانع مضادة للدبابات

في مطلع الحرب العالمية الثانية

وبسبب أن الكتاب قد أجمل اتجاهات العقلية التي أوجدها خط ماچينو، والعقيدة الدفاعية؛ كما عاون الكتاب أيضًا في تأكيد الخيال الرائع الذي ملأ رؤوس الفرنسيين بإمكان قيام حرب مريحة تفتك النيران فيها بجحافل العدو وتحمي الجيش الفرنسي الذي يكون وراء التحصينات القوة التي لا تقهر.

***

ولكن ما فعلته عقيدة «قوة النيران» وما فعلته أيضًا «العقلية» التي أوجدها مشروع خط ماچينو في الجيش الفرنسي إنما كان في الحقيقة تجميد الدروس التكتيكية والاستراتيـچية التي أمكن الخروج بها والحصول عليها من الحرب العالمية الأولى فضلاً عن قتل قوة الابتكار وملكة التصور وإفساد جهود أولئك الذين يؤمنون «بالعامل الهجومي» والذين يحاولون أن يفعلوا شيئًا، أو بمعنى أدق أن يوجدوا شيئًا من العنصر السلبي الوحيد في العقيدة العسكرية الفرنسية، ألا وهو.. «فكرة مرونة الدفاع»(١).

---

(١) نشرت مجلة Revue Militaire Générale في عدد سبتمبر سنة ١٩٣٧ مقالًا من قلم الميـچوركريبس Krebs بعنوان (Considération sur l' offensive) – عرض فيها للعمليات الجديدة من استخدام الوحدات الكبيرة.

Instructions sur l'emploi tectique des grandes untitées

مشيرًا إلى قيامها بالهجوم كلما قدم العدو الفرصة المناسبة لهذا، على أن وجود عنصر جيد للهجوم في العقيدة الفرنسية تثبته بعض الكتابات الألمانية كما جاء في مجلة الدبابات الألمانية عدد يوليو سنة ١٩٣٨ بعنوان:

Kraftfahrkamftruppe, "Franzosische Grundsätze uber Verwendung mechanisicrter und motorisierter Einheiten und die Abwehr dagegen"

وقد عرض الكولونيل براون Braun العقد العسكري في عدد ٢٢ من أكتوبر سنة=

ومع هذا فإن الهجوم المضاد مهما أعد بعناية فإنه يتطلب روحًا هجومية قومية تتمشى مع الطبيعة الفرنسية ومع خلق الفرنسيين الاندفاعي، وإن كان هذا سيكون ـ في ضوء العقلية التي أوجدها خط ماچينو ـ في مستوى منخفض ما في هذا من شك.

على أن المجددين النابهين أمثال ديجول والخبير الجوي روجيرون Rougeron والـچنرال ڤيلبري والـچنرال دومنيس ثم المتحدث الرسمي باسم هذه الجماعة في المجلس النيابي بول رينو لم يستطيعوا بكل ما قدموه من نقاط للنقاش وما أثاروه من جدل أن يزحزحوا «حائط الصين العظيم» خطوة واحدة؛ وبقي «العامل الهجومي» شيئًا محرمًا لأن شيـڤينو قد قال وآمن الناس بقوله من أن الهجوم يتطلب أفضلية عددية تصل إلى ثلاثة أضعاف، فضلاً عن أنه في حالات معينة يتطلب التضحية بخسائر فادحة(١).

ووضح بأنه ستحدث في الحرب القادمة ـ لو كان من الضروري أن تجيء ـ خسائر كثيرة بسبب النيران، وسيقيم العدو ركامًا من جثث جنوده أمام المواقع الفرنسية فإذا ما حان الوقت للهجوم المضاد استطاع الفرنسيون أن يحققوا كسبًا هينًا ميسورًا، وقد سببت هذه العقلية الضيقة التي تفكر في حرب رخيصة وفي نصر سهل هين تمهيد الطريق إلى الفشل الذريع والنكبة

=١٩٣٨ في مجلة Miliatarwochenblatt عن العقيدتين الفرنسية والألمانية بالنسبة لاستخدام الدبابات، وانتهي إلى خاتمة طيبة في جانب العقيدة الفرنسية.

(١) General Chauvineau op. cit. pp. ١٣١ ، ١٣٢.

تتضح فكرة الدفاع المرن حتى في كتاب الـچنرال شيـڤينو ولكنه فشل في إبرازها الإبراز الصحيح.

الماحقة، وفي فجر الحرب العالمية الثانية لم تعد فرنسا «دولة عظيمة» ذلك لأن عقليتهم المؤمنة بخط ماچينو قد جعلتهم يهربون من المسئوليات الجسام التي تقع على عاتق الأمة العظيمة.

ـ ٢ ـ

وقد صفِّي الجيش البريطاني إثر الحرب العالمية الأولى بسرعة وتركت فقط قوات هيكلية، وتقبل الرأي العام في الحكومة سياسة تخفيض التسليح إلى أقل ما يمكن وبدئ بتنفيذ هذا في الأسلحة الثلاثة بعامة وفي الجيش بخاصة، وكان خط الدفاع الأول بالنسبة للإنجليز دائمًا هو الأسطول، فلما انتهت الحرب العالمية الأولى احتل السلاح الجوي المركز الثاني، وبقي الجيش الذي يمثل «سندريلا» أسرة القوات المسلحة يحتل المركز الثالث والأخير.

وكان هذا يناقض تمامًا النظام الفرنسي ويرجع هذا إلى أسباب جغرافية، وعلى حين كانت فكرة «الأمة المسلحة» تحتل مكان الصدارة للنقاش في فرنسا فإنها لم تكن لتسترعي الانتباه في بريطانيا التي تتبع تقاليدها القديمة بتكوين جيشها من المحترفين الذين يعملون لمدة طويلة في الوحدات المقاتلة، وكانت بريطانيا لأول مرة في تاريخها قد نفذت نظرية التجنيد للقوات المسلحة أثناء الحرب العالمية الأولى ولكنها أغفلت هذا بسرعة بعد هدنة سنة ١٩١٨؛ بل ولم تجد حتى من الضروري الإبقاء على طابع جيش هالدان Haldane(*)، وعادت الأمور تدريجياً ـ على الأقل من

(*) هالدان، ريتشارد بوردون (١٨٥٦ ـ ١٩٢٨ ڤيسكونت: سياسي بريطاني ومن رجال الفلسفة تولى وزارة المالية ١٩١٢ ـ ١٩١٢٥ ثم سنة ١٩٢٤ «معجم ويبستر ص٦٥٢» – «المترجم».

الناحية الروحية إلى النظام الأول[١] .

ولم يكن هناك بعد الحرب العالمية الأولى أي احتمال لاستخدام الجيش البريطاني العامل في أي عمليات عدا العمليات الاستعمارية، ففي أوروبا يمكن أن تعمل تجاه أي طارئ عدة قوى: معاهدة الصلح، عصبة الأمم، ثم جيوش فرنسا وحلفائها، ومن جهة أخرى فسيكون واجب الحاميات الفرنسية في المستعمرات البعيدة مجرد كبح جماح أي فورات محلية، أو حماية البلاد من إغارات قبائل الصحراء والجبال، وبعض الكتائب أو الألوية على الأكثر تكفي لمثل هذه العمليات، والأسلحة التي تزيد عن أسلحة المشاة وعن المدفعية الخفيفة لا تصلح للقتال في الجبال العالية أو في الغابات الاستوائية.

فلماذا إذن يحتفظ في أرض الوطن بتشكيل معقد كالنظام الذي يراه هالدان بتسليحه الثقيل؟ فالجيش في أرض الوطن يحتمل فقط واجب التجنيد والتدريب لقوة البوليس الإمبراطوري التي تقوم بحماية بريطانيا، وهكذا تكون العودة إلى تنظيم كاردوِّل Cardwell بإعداد قوة بوليسية يمكن أن تعمل في أي مكان من العالم مسألة منطقية.

وتعلق الجيش بهذا المبدأ حتى بعد أن أثار التسليح السريع للقوات الألمانية فكرة إمكان قيام نزاع أوروبي جديد، وقد جاء في الكراسة البيضاء التي قدمت لمجلس العموم في ٣ من مارس سنة ١٩٣٦ ـ والتي تعتبر أول اقتراح خطير عن التسليح منذ أيام الهدنة ـ قالت بأن الجيش البريطاني قد خفض بمقدار إحدى وعشرين كتيبة عن تشكيله في سنة ١٩١٤، وأضافت

(١) Major E. W. Sheppard, A Short History of the British Army (London, ١٩٤٠), pp. ٣٧٣ – ٣٧٥.

الكراسة:

«وتقترح حكومة جلالة الملك إنشاء أربع كتائب جديدة من المشاة، وتستطيع إلى حد ما هذه الكتائب الأربعة احتمال الصعاب الحالية التي فرضتها علينا سياستنا الإمبريالية»(١).

***

وكان معنى العودة إلى تنظيم كاردوِّل القضاء على فيلق الدبابات، القوة التي كانت فخر الحملة البريطانية في نهاية الحرب العالمية الأولى ورحل جنود معارك الدبابات في سنة ١٩١٨ وجاء رجال جدد ليفعلوا كل ما يستطيعون بالنماذج القديمة، وخفضت التطورات في النماذج الجديدة والإنشاءات إلى مستوى هيكلي وحال نقص الأموال أو الافتقار إليها دون كل صور التقدم والنجاح، ونقرأ:

«في سنة ١٩٣١ خرج إلى الوجود نموذج دبابة متوسطة ولكن حال الكساد المالي والدعوة للمسالمة دون الإنتاج واسع المدى، وعندما تقرر هذا أخيرًا في سنة ١٩٣٦ ثبت أن هذه الدبابة قد باتت من طراز قديم، لقد استمر النقاش وطال وضاع الوقت دون أن تصل الدبابات إلى الجنود»(٢).

---

(١) Accounts and Papers, Cmd, ٥١٠٧, Statement, «Relating Defence» (London, ١٩٣٦), p. ١٠.

(٢) Major E. W. Sheppard, Tanks in the Next War (London, ١٩٣٨), pp. ٧٧ - ٨٠.

وقد سار الميجور چنرال فوللر إلى مدى أبعد من هذا في نقده الذي قدمه في كتابه (My Times London, ١٩٣٥) ص ١٨٠ ـ ١٨٩ مصرحًا بأن الجيش في سنة ١٩٣٣ قد وصل إلى أدني مستواه التكتيكي منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، وأضاف أن أول لواء للدبابات قد ولد في ميزانية الجيش لسنة ١٩٣٤ عندما تعمقت فكرة استخدام الدبابات في الحقول، راجع أيضًا:

Maj. General Ironside, "Lahd War fare" in the Study of War (London And New York, ١٩٢٧), PP. ١١٦ - ١٤٧.

ويشبه هذا مسير التطورات الفرنسية نفسها، صورة متماثلة، ولكن على حين أنه لم يكن في فرنسا في الحقبتين الثالثة والرابعة من القرن العشرين كاتب عسكري يستطيع أن يوجد عقيدة للدبابات، كان في بريطانيا أخصائي نابه في شئون الدبابات قامت حوله مدرسة من مدارس الفكر هو الـچنرال فوللر J.F. C. Fuller رئيس أركان الحرب لفيلق الدبابات الملكي سنة ١٩١٨، فلما أن انتهت الحرب احتمل على عاتقه عبء القيام بدفاع قوي من أجل الاستخدام الآلي.

وبالرغم من السجل الفاخر لفيلق الدبابات البريطاني في الحرب العالمية الأولى فإن الصعاب التي واجهت ميـچور چنرال فوللر كانت كبيرة، إلا أن فوللر مع تصوره الإنشائي ومع قدرته على الكتابة والتحرير استطاع أن يجتذب اهتمام دوائر أكبر وأكثر ببرنامجه، وكان أهم دليل على نجاحه التحول الفكري للكابتن ب. هـ. ليدل هارت الذي كان قد أضحى أقدر كاتب عسكري في بريطانيا[١] .

---

(١) في سنة ١٩٢٣ نشر الميـچور چنرال فوللر The Rreformation Of War الذي أوضح النفوذ الكبير في «الميتشيلية» Michellism «والدوهية» Douherism (نسبة إلى ميتشيل ودوهية اللذين تحدثا عن الحرب البحرية والجوية) وقد وقف في كتابه إلى جانب السلاح الجوي كعامل الاحتكام في ميدان المعركة وتنبأ بانتهاء عصر جندي المشاة التقليدي الذي لم يستخدم إلا في الحاميات، وقد نال سلاحه المحبوب «الدبابة» نصيبه من المديح، وقد تصور المؤلف النابه وجود سفن خاصة لنقل الدبابات عبر الماء تنزلها على السواحل في النقاط التي تختار للغزو، وكانت فكرة سخر منها البعض في ذلك الوقت (ولكنها تحققت)، وقد أتبع كتابه هذا بكتاب:

The Foundations of the Science of War (London ١٩٢٦).

ولكي يمكن أن نفهم هذه المدرسة من مدارس الفكر العسكري التي دعيت باسمه يجب أن نقرأ مذكراته التي كتبها بعد تقاعده: =

وكان ليدل هارت أيضًا من جنود الحرب العالمية الأولى وقد خدم برتبة الكابتن (النقيب) في المشاة، وفي سنة ١٩١٨ أوكل إليه مراجعة قانون خدمة الميدان للمشاة في ضوء أحدث تكتيكات جنود العصف الألمان.

وقد ثبت أنه من السهل أن يوفق الـچنرال فوللر بنشر وجهات نظره وسط مثل هذه المجموعة من الضباط الواسعي التفكير أمثال ليدل هارت الذي لم يلبث بعد تحوله إلى العقيدة الجديدة أن بلغ شأو أستاذه في إبراز تخلف الجيش وكنتيجة لجهودهما أدخل لورد ميلن بعض الاصلاحات، ولكن جاءت هذه الاصلاحات في بطء وذلك بسبب ـ على ما يقول ليدل هارت ـ أن رئيس هيئة أركان الحرب الإمبراطورية كان رجلاً شيخًا، فضلاً عن أنه كان استكلندياً، وكبر السن وكونه استكلندياً «مقتراً» يعتبران عاملين يعطلان كل سياسة تقدمية تستهدف الكثير من النفقات[١] .

= The Army in my Times (London, ١٩٣٥):

Mamories of an Unconventional Soldier(London, ١٩٣٦).

(١) راجع مقال ليدل هارت: The New British Dectorine of Mechanized War

في العدد ٤٩ (١٩٢٩) من مجلة English Review

العدد ٢٩ لسنة ١٩٢٩ ص٦٠٨ ـ ٧٠١ وكذلك في كتابه:

The Remaking of Modern Armies.

طبع لندن سنة ١٩٢٧، أما بالنسبة لأعمال الإدارة في عهد لورد ميلن فيرجع إلى:

"Seven Years: The Regime of Field Marshal Milne" English Reviw LVI (١٩٣٣).

بقلم ليدل هارت وكذلك في مقال آخر له بعنوان:

"Grave Deficiencies of the Army " English Review LVI (Feb. ١٩٣٣) ١٤٧ - ١٥١.

ويشير ليدل هارت إلى أن الاستخدام الآلي في أسلحة الجيش قد سار ببطء كبير؛ ذلك لأنه لم تكن هناك غير أربع كتائب دبابات مقابل، ١٣٢ كتيبة مشاة، وبذلك غاب عنصر «خفة الحركة»، كما كان النقص واضحًا في وحدات المدفعية.

وحتى سنة ١٩٣٠ كان الموقف في السلاح الجوي يعكس نفس العقلية ونفس الظروف التي تعرض لها فيلق الدبابات بالرغم من أن السلاح الجوي تبعًا ـ لكونه سلاحًا مستقلاً ـ كان يحتل المكان الثاني بعد الأسطول، ولكن الميزانية الكبيرة التي طلبت له لم تحظ سنة ١٩٢٣ بموافقة على أدنى مستوى في أقل ما يمكن من النفقات، وحتى هذه عطلت فيما بعد[١].

وحدث بالنسبة «للطائرة» ما حدث من قبل بالنسبة «للدبابة»؛ فقد ضحى بصنع طائرات جديدة طبقًا لنماذج حديثة، كما ضحى بتشكيل السلاح الجوي تبعًا لتنظيم مستحدث، وضحى بهذا وذاك على مذبح التفكير في المسالمة والظن بأن الأمم ستنصرف إلى العمل للسلم، وتبعًا للاهتمام بنزع السلاح، ومر وقت قبل أن يستفيق الإنجليز من أحلامهم فيما يتعلق «بالأمن الجماعي»، والاطمئنان إلى إمكان الاحتكام إلى القانون في المنازعات الدولية، وجاءت هذه اليقظة بسبب سياسة هتلر العدوانية وعدم احترامه للمواثيق الدولية[٢].

---

(١) Accounts And Papers, "Memorandum By The Secretary for Air. to Accompany the Estimates" (London Jan. ١١, ١٩٣٤) Statement Relating to Defense Issued in Connection With the House of Commons Debate (London, March, ١٩٣٥).

(٢) أفضل كتاب لإيضاح تأثير مؤتمر نزع السلاح على سير عمليات التسليح في بريطانيا هو:
J. F. Kenndy, Why Englad Slept (New York, ١٩٤٠).

ويشير كنيدي إلى فقرة نقلها من مذكرة وزير الطيران البريطاني جاء فيها: «وهذه التقديرات للميزانية هي في خطوط عريضة نتيجة رغبتنا في متابعة السير في التسليح ونتيجة لدراستنا للاقتصاد من جهة، وهي من جهة أخري توضح أن سياسة تأجيل برنامج سنة ١٩٢٢ لا يمكن أن يستمر»، راجع أيضًا كتابي:

= R. A. Chaput, Disarmament in British Foreign Policy (London, ١٩٣٥)

على أننا في مقارنتنا هذه الحال في بريطانيا بالاتجاهات العامة في فرنسا يجب أن نلاحظ بأنه لم يكن من وجود في بريطانيا جملة للجرأة السياسية وبخاصة بالنسبة للتسليح أو للتشريع العسكري بالرغم من النقد الذي وجه للجيش على أساس بقاء نظام «التمييز» الأفضلية لبعض الطبقات(١)، ولكن مهما كان الموقف في بريطانيا فإنه لا يمكن أن يقارن بحال ما بالمنازعات البرلمانية في فرنسا والتي جعلت من الجيش كرة تتبادلها الأرجل

= A. Wolfers, Britain and France between Two Wars, (New York, ١٩٤٠).

«ويلاحظ أن كتاب الرئيس چون فيتزجرالد كنيدي، كتب أصلًا كرسالة الماجستير في العلوم السياسية لجامعة هارڤارد بإشراف الأستاذين بروث هوبر وبايسون وايلد وكانت بعنوان «تهدئة ميونيخ»، وكانت رسالة متزنة متماسكة مليئة بالإحصائيات والهوامش ضعيفة فقط في بناء الجمل وفي هجاء بعض الكلمات، وطبعت الكتاب شركة ويلـڤرد ڤونك بعد أن رفضت شركة هاربر طبعه على أساس أنه بعد سقوط فرنسا لم يعد له من مكان في سوق الكتب، وكان الذي اقترح عنوانه (عندما نامت بريطانيا) هوارثر كروك، وبيع من الكتاب أربعون ألف نسخة في الولايات المتحدة وعدد مماثل في انجلترا». «المترجم».

(١) راجع:

L. Clive, The pepole's army (London, ١٩٣٥).

كتب مقدمته الميـچور. C. Attlee وكذلك المقالات عن التسليح التي نشرت في المجلة الشهرية Labour عددي إبريل ومايو سنة ١٩٣٧ .

راجع أيضًا:

Lord J. M. Stabolgi, New Ward (London, ١٩٣٠).

وقد كتب سترابولـچـي بعد ذلك مقالًا في مجلة Collier عدد ٢٢ من أغسطس سنة ١٩٤٢ بعنوان:

"What's Wrong with the British Army".

كرر فيه اتهامه للنظام الطبقي وحكم الصفوة في الجيش، وبسبب هذا المقال هوجم بلا رحمة في مجلس اللوردات بوساطة لورد لوڤات يوم أول أكتوبر سنة ١٩٤٢ راجع:

New Youk Times, October ٢, ١٩٤٢.

في حلبة الصراع السياسي.

والواقع أن تعطل بريطانيا عن مماشاة التطورات الحديثة في التسليح إنما يرجع إلى أسباب أخرى وإن كان من الممكن في بعض الأحوال المعينة أن نجد بأن الإهمال الكامل للآليةفي بريطانيا يرجع إلى عقلية تماثل العقلية العسكرية في فرنسا[١] .

وأول هذه الأسباب: «الكساد العظيم» الذي أثر تأثيرًا مباشرًا في المالية البريطانية وفي أعقاب الحرب مباشرة، على حين أنه وضح في فرنسا في تاريخ متأخر وجاء في صورة معتدلة.

وثانيها: أن حكومة العمال لم تكن تستطيع أن تهمل الشعور العام في بريطانيا نحو المسالمة، وهو شعور كان له طابع الأيديولوچية المتعمقة في النفوس، ولم يكن من المنطق أن تبشر بريطانيا بالسلم في مؤتمر نزع السلاح بـچنيف على حين أنها توقف جزءًا كبيرًا من ميزانيتها لعتاد الحرب، ولم يكن أمام حكومة بلدوين إلا أن تنتظر حتى يتحول الجو السيكولوچي ليكون صالحًا لبدء عمليات التسليح، ولم يكن أمام بلدوين تبعًا لتعديل نظام الضرائب إلا أن يترك مشكلة التسليح في الجانب الخلفي بالنسبة لمشروعاته الأخرى، وذلك بالرغم من تصريحه يوم ٢٠ من يوليو سنة ١٩٣٤ بأن حدود بريطانيا الشرقية تقع على نهر الرين[٢] .

وقد بدأ الجهد الأول للعودة للتسليح في سنة ١٩٣٦ وذلك لسببين: أولهما أنه في تلك السنة بدأ تنفيذ المادة التي تنظم نسبة القوى البحرية للدول

(١) يوجد نقد دقيق يستند إلى وثائق لها أهميتها في كتاب:

J. R. Kennedy: Modern Wars and Defence Reconstruction (London, ١٩٣٦).

(٢) J. F. Kennedy, op. cit., p. ٧٢.

الكبرى تبعًا لمؤتمر نزع السلاح البحري الذي كان قد عقد بلندن، وثانيهما بسبب تنكر هتلر لمعاهدات لوكارنو ولتسليحه منطقة الرين.

ولكن مع هذا فقد كان للأسطول النصيب الأول وشكلت لجنة لبحث مدى تطور المنافسة بين البارجة وقاذفة القنابل، ومدة تعرض البوارج لقنابل القاذفات، وذلك بسبب النقاش الذي ملأ صفحات المجلات العسكرية والبحرية منذ أن كتب الـچنرال وليم ميتشل عن «غرق السفينة التي قيل أنه لا تغرق»، عن غرق السفينة «أوستفريزلاند» Ostfriesland لخارج رأس ڤيرچينيا بسبب إسقاط بعض القنابل عليها وعلى مقربة منها من الجو.

وقد لا تكون بنا حاجة هنا لنذكرأنه هذه اللجنة قد انتهت إلى ما انتهت إليه اللجان التي شكلت في الولايات المتحدة بأمر الرؤساء كوليدج وهوڤر وروزفلت من أن الأدلة التي يمكن الوصول إليها لا تمكن من التباعد عن المبادئ الأصلية الحالية في الحرب البحرية.

وعلى أية حال فقد انتهى الرأي «الحكم» بأنه ما دامت الدول الكبرى لا تزال تبني البوارج الكبيرة فليس لبريطانيا إلا أن تتبع نفس السبيل، ويعتبر هذا عذرًا مريحًا لعقلية عسكرية تواقة لتجنب المسئولية.

وسيطرت أسطورة «قوة النيران» على عقول أميرالات البحر الإنجليز كما سيطرت على عقول الـچنرالات الفرنسيين وكان الخلاف في التطبيق وحده، فعلى حين طبقها الفرنسيون «في البر» استخدمها الإنجليز «في البحر» وذلك بسبب أن التقاليد البحرية تسود الفكر الإنجليزي بدرجة أكبر، وكان تأثير هذا على الاستحداث في طوابع التسليح تأثيرًا مدمرًا كما

كان له نفس التأثير على الجيش الفرنسي[١] .

---

(١) نشرت إجراءات هذه اللجنة الخاصة في نشرة الوثائق الرسمية ٥٣٠١ .Cmd ثم عولجت في إفاضة في العدد ٨٢ لسنة ١٩٣٧ من مجلة RUSI.

Royal United Service Institution Quarterly.

ص٤٠٩ ـ ٤١٤، ويناقش مقال:

Rea Admiral H. G. Thursueld "Battleshipe" National Review, CXV (١٩٤٠).

بحوث اللجنة الخاصة، ويقول بأن هناك عددًا كبيرًا من التصريحات الرسمية الخاصة بتحديد عدد ـ إن لم يكن بإلغاء ـ البوارج إلى حد أن الرأي العام قد بدا يصدق هذه التصريحات.

ويقول نفس الكاتب عن اللجنة في مقاله

="Sea and Air" National Review.

=العدد ١٢٧ لسنة ١٩٤١ ص٢٨٥ ـ ٢٩٤ أنها بعد أن استمرت منعقدة أربعة شهور لم تستطع أن تنشر كل إجراءاتها بسبب أن في هذه الإجراءات بعض الأسرار التي تمس السلاحين البحري والجوي، وتعتبر توضيحات

B. Acworth.

أحد المتحدثين باسم الأسطول ومؤلف عدد كبير من المؤلفات ذات أهمية في الموضوع، وقد قدمها في كتابه:

Britain In Danger (London, ١٩٣٧).

وصرح فيها بأن لدي الأسطول إجابة على هذه المسائل، فإنهم في تقديرهم للتهديد الكبير الذي للطائرة يخطون خطي واسعة لزيادة أمن وسلامة السفن، على أن رجال الأسطول فيما بينهم ـ لكي يحولوا دو تحول كل الاعتمادات من الأسطول إلى السلاح الجوي ـ وافقوا على أنه من الأصح تخفيض مساحة وحمولة السفن من ١٦٪ إلى ٢٠٪ مستخدمين ما يُدخر لصنع الطائرات ومن صنع المدافع المضادة للطائرات.

على أننا نجد نقدًا عنيفًا ضد الحكومة لموقفها من النزاع بين الطائرات والسفن في مقال:

"Arms, Money and Muddle" Observer, March ٣, ١٩٢٩.

في هذا المقال يكشف J. L. Garvin عن النزاع بين مصالح الحكومة على الاعتمادات المخصصة للدفاع، وقد نقل P. R. C. Groves في كتابه:

فإذا ما قارنا بين الأسلحة وجدنا أن السلاح الجوي قد تلقى من العناية والاهتمام المركز الثاني بعد البوارج عندما بدأت بريطانيا التسلح بعد سنة ١٩٣٦، وفي تلك الفترة بدئ في تطور نماذج الطائرة سبتفاير وهيريكين، وإن كان صنع الطائرات على نطاق واسع قد تعطل(١) .

على أنه من جهة أخرى فإن فيلق الدبابات لم يحقق تقدمًا فقد كان الجيش ينظر نظرة عدائية نحو «الاستخدام الآلي» في الطابع «الميكانيكي» الذي دعا إليه فوللر، فلقد نقل فوللر الأخصائي الأشهر في شئون الدبابات للتقاعد دون أي اهتمام بمقترحاته القيمة.

والواقع أن ـ حظ ـ فوللر كان شديد الشبه بجد ديجول، ففي سنة ١٩٣٧ ـ السنة التي فاق اهتمام الجيش البريطاني بالتسليح أي اهتمام سابق لهذا ـ كان فوللر في التقاعد منذ خمس سنوات ومع هذا فقد كتب:

Lectures on Field Service Regulations III:

(٢)Operations between Mechanized Forces

وقد صدر هذا الكتاب بالإنجليزية في طبعة عدد نسخها خمسمائة نسخة، ولكن الكتاب ترجم إلى الألمانية وإلى الروسية ووزعت منه آلاف النسخ في الجيشين الروسي والألماني، وإن كان الألمان في الواقع لم يطبقوا ما

"Behind the Smoke Screen".

طبع لندن ١٩٣٤ ص٢٣٨ ـ ٢٤٥ وقد قال «جارڤين» أن ميزانية سنة ١٩٢٩ وجهت ٥٧٪ للأسطول و ٣١ ٪ للجيش و ١٢ ٪ فقط للسلاح الجوي.

(١) في سنة ١٩٣٧ خرجت إلى الضوء عدة نماذج جديدة من صنع شركة Sydhey Camm. الذي كان قد صنع النموذجين السالفين ولكنهما لم توضع موضع الانتاج راجع جريدة نيويورك تايمز عدد ٣ من اكتوبر ١٩٤٢ ص٥ .

(٢) London, ١٩٣٧.

جاء فيه لأنهم وجدوا نظام ديجول أكثر كفاية ودقة، إلا أن الروس على ما يبدو وقد اعتبروا كتاب فوللر أفضل وأصلح لتكتيكاتهم، وقد كتب أحد أفراد مدرسة فوللر عن محاضراته Fullers Lectures on F. S. R. III ما يلي:

«وأعتقد أن هذا الكتاب أفضل دراسة عسكرية يتضح فيها بعد النظر كتبت لتفهيم الإنجليز طبيعة حرب المستقبل بين الجيوش الميكانيكية، ولكن الكتاب لم يحقق هدفه بسبب أن الإنجليز لن يقرأوها، على حين أن ثلاثين ألف نسخة قد وزعت في الجيش الألماني، وقد نال الكتاب ذيوعًا واسعًا بين قوات الاتحاد السوفيتي، ولو كان قانون خدمة الميدان الجزء الثالث قد نال في البلاد الديمقراطية والبلاد الطغوائية ما ناله من تقرير في ألمانيا النازية لما كانت الحرب الحالية ـ الحرب العالمية الثانية ـ قد قامت»[(١)] .

***

على أنه لأسباب لا تزال غامضة (ولن تتضح إلا عندما يمكن فحص أوراق وسجلات وزارة الحرب طوال تولي مستر هور بليشا لها) رفض الجيش البريطاني نظرية الاستخدام الميكانيكي مفضلاً توجيه العناية كلها بحاملات الرشاشات أي العربات المدرعة ذات الجنزير الخفيفة الحركة والتي تحمل «رشاش آلي» خفيف، ولا شك أن قوة الضرب لهذه الحمالات كانت قليلة، إلا أن هذا قد عوضت منه خفة الحركة الكبيرة التي توافرت لها، ولكن في مقابل هذا كانت الدبابات الثقيلة لفرق البانزر الألمانية أكثر

(١) S. L. A. Marshall, Armies on Wheels (New York, ١٩٤١) P. ١١.

راجع أيضًا تعليقات فوللر على حفاوة الكتاب بكتابه قانون خدمة الميدان في كتابه:

Memoirs of an Unconventional Soldier PP. ٤٠٠ - ٤٩٤.

سرعة وأقوى ضربات. وهكذا كان الطريق إلى دنكرك قد مهد تمامًا.

ولكن المشكلة الكبرى لم تكن المعدات الفنية بقدر ما كانت حجم الجيش الذي يجب أن يرسل إلى أوروبا فيما لو اضطرب السلم وقامت الحرب من جديد، وكانت هذه المشكلة مثار اهتمام وعناية الجميع ولم يكن من مكان للتساؤل عن اتجاهات غالبية الإنجليز، كانوا جميعًا ضد فكرة تكوين جيش كبير العدد، واستمرت هذه المعارضة حتى بعد ميونيخ عندما قررت الحكومة أخيرًا في ربيع سنة ١٩٣٩ العودة إلى نظام التجميد في نطاق محدود جدًّا وترجع أسباب هذه الاتجاهات إلى أن بريطانيا أرسلت قوات كبيرة جدًّا إلى القارة في الحرب العالمية الأولى ثم عاد الناس تاركين وراءهم ستمائة ألف قتيل إنجليزي في المقابر العسكرية بفرنسا، وفي كل مناقشة عرضت لتعداد الحملة العسكرية التي يمكن أن ترسل لفرنسا مستقبلاً كان الناس يشيرون إلى الخسائر التي تكبدتها بريطانيا في معارك شتاء سنة ١٩١٧، وباتت باشنديل(*) رمزًا لهذه التضحية الكبيرة التي تثير الأحزان في القلوب.

وفي سنة ١٩٣٦ عندما كانت المناقشات محتدمة حول التسليح أعلنت مجلة «رويال يونيتد سيرفس انستثيوشن» الربع سنوية أن «تعداد الجيش البريطاني الذي يمكن أن يرسل إلى أوروبا مستقبلاً» هو موضوع المسابقة للحصول على ميداليتها الذهبية، وقد منحت الجائزة للكابتن سليسور J. C.

(*) باشنديل Passchendaele: كانت هضبة باشنديل المرتفعة مسرح عمليات أغسطس وسبتمبر سنة ١٩١٧ العنيفة، وقد أمكن استعادتها من الألمان ولكن بخسائر فادحة، ومع هذا فقد ظهر أنه لن يمكن الوصول إلى النصر إلا بمثل هذا الجهد الكبير وهذه الخسائر الفادحة. «المترجم».

Slessor الذي اقترح أن يكون الجيش صغير العدد.

وأن يتكون من نخبة من المحترفين الجيدي التدريب، وأن يكون الجيش «ميكانيكياً» في جملته، وقد أشار المؤلف كما أشارت المجلة العسكرية إلى أن الرأي العام البريطاني يعارض فكرة تكوين جيش كبير العدد، ولقي «جيش الميدالية الذهبية» تقديرًا شعبياً واسع النطاق وحظي بموافقة الكثيرين من الكتاب العسكريين، فكان هذا دليلاً واضحًا على اتجاه الفكر الاستراتيـجـي[١].

وفي ٢٥و٢٦و٢٧ من أكتوبر سنة ١٩٣٧ نشر ليدل هارت ـ باعتباره المراسل العسكري لجريدة التيمس ـ سلسلة من المقالات اقترح فيها أن

(١) العدد ٨٢ لسنة ١٩٣٧ الصفحات ٤٦٣ ـ ٤٨٤ وقد لقي الكبتن سليسور موافقة الكاتب الكبير ميـچور شبيرد في مقاله:"Does Defence Means Defeat?"
في العدد ٨٣ من مجلة اليونيتد سيرفس لسنة ١٩٣٨ ص٢٩١ ـ ٢٩٨ وكذلك في مقال:
Capt. H. M. Curteis "The Doctrine of Limited Liability".
٨٣ لسنة ١٩٣٨ ص٦٩٥ – ٧٠١، ولكنه قوبل بنقد عنيف في مقال:
V. W. Germains "The Army in War" National Review CXII (١٩٣٩).
وكان الكبتن سيلسور يعمل مدرسًا بكلية أركان الحرب بكمبرلي وقد طبعت محاضراته عن «العقيدة الجوية» في المدة من ١٩٣١ ـ ١٩٤٣ في كتاب بعنوان:
Air Power and Armies (London, ١٩٣٦).
وقد وقف إلى جانب عقيدة عسكرية تقضي بالتعاون بين القوة الجوية والقوات البرية، وكانت وجهات نظره قريبة جدًا من أساليب الحرب البرقية، ولو كان السلاح الجوي البريطاني قد عمل تبعًا لهذه الأصول في فرنسا سنة ١٩٤٠ لكان الدفاع الألماني قد انتهي إلى نتائج تخالف ما حدث فعلًا، ولكن آراء سيلوسر قد أغفلت كآراء غيره، وعاد سيلوسر فكرر آراءه في الموضوع الذي نال الجائزة الذهبية، وقد نشرت مجلة يونيتدسيرفس في المجلد ٨٢ لسنة ١٩٣٧ ص٢٨٠ ـ ٣٠٢ بعنوان Mechanization أعاد فيها Colonel C. Q. Martelh محاضرة كان قد ألقاها أمام عدد كبير من الضباط كان بينهم الـچنرال ويـڤل الذي عضد أراء مارتل.

تتقبل بريطانيا نظرية «الطاقة العسكرية المحدودة» في تعهداتها العسكرية، وأن ترجع إلى سياستها التقليدية للحرب الاقتصادية والحصار البحري الذي يتفق مع أسطولها القوي ومع مواردها غير المحدودة من إمبراطوريتها، وقد وقف ليدل هارت في مقالاته إلى جانب الاستراتيچية الدفاعية على أساس أنها أصلح لبريطانيا وتبعًا للأفضلية العظمى التي للدفاع على الهجوم، ثم إنها يمكن أن تجيء بنتائج طيبة في المدى الطويل كما أشار ليدل هارت إلى أن القوات البريطانية التي ترسل إلى فرنسا تكون قليلة العدد، ولما كان خط ماچينو والحاميات الفرنسية فيه ستمكن من وقف العدو فإن القوة البريطانية يجب أن تترك في الخلف كاحتياطي استراتيچي خفيف الحركة(١).

وسرعان ما حظيت هذه المقالات باهتمام القراء والنقاد وباتت هدفًا لنقاش جدلي لا نهاية له خارج بريطانيا، ووصل جريدة التيمس رد من الچنرال باراتيير Baratier الفرنسي محتجًّا في اتزان على هذا الاتجاه من بريطانيا «والذي تلقى نتيجة له ثقل الحرب دائمًا على حلفائها، وهو أمر لا يمكن أن يكون صوابًا لو هاجمت ألمانيا فرنسا، ذلك لأن ألمانيا ستثير حربًا طغوائية يجب أن تلقى فيها فرنسا وانجلترا ـ حتى لا تتحطما ـ بكل ما يتوافر لهما من موارد في البر والبحر والجو»(٢).

وقامت كذلك حركة واسعة من جانب الكتاب الإنجليز وقد رفضت

---

(١) أجمل فيما بعد كل وجهات نظره في كتاب بعنوان:

The Defense of Britain (Nwe York, ١٩٣٩).

ويعتبر الكتاب دراسة مركزة تعضد عقيدة الطاقة المحدودة وتعتبر إلى حد بعيد مسئولة عن دنكرنك.

(٢) Le Temps, Jan., ٤, ١٩٣٨) republished in Army Quarterly XXXVI (١٩٣٨), ١٢٣ – ١٢٧.

مجلة آرمي كوورترلي Army Quarterly تقبل عقيدة «الدفاع»، وقد أوضح تحرير المجلة هذا الرفض في مقال افتتاحي ثم فتحت الجريدة صفحاتها لنقد وجهات نظر ليدل هارت(١) .

وكان من أقوى نقاد ليدل هارت الـچنرال هـ. رووان ـ روبنسون H. Rowan- Robinson وهو أحد أنصار مدرسة فوللر وله عدة مؤلفات عسكرية قيمة(٢) أوضحت دقة تقديره وصواب آرائه كما أوضحت سعة أفقه فإن وجهات نظره لم تقف عند حد سواحل المملكة المتحدة، بل امتدت لمعالجة كل مشكلات الدفاع عن الإمبراطورية.

وقد تنبأ الـچنرال روبنسون بالتهديد الذي ستسببه الطائرة، وألح بضرورة وضع برنامج واسع لحماية خطوط المواصلات بين هنج كنج وجبل طارق، وهو كرجل نشأ في سلاح المدفعية فإنه قد وضع كل ثقته في قوة

---

(١) Arm Quarrterly XXXVI (١٩٣٨), ٢٠٠ - ٢٠٢ وسيشار للمجلة بعد هذا بالحرفين A. Q، ولم تكن مقالات الـچنرال باراتييه هي المقالات الوحيدة التي جاءت في الرد على مقالات جريدة التايمس اللندنية من خارج بريطانيا فإن مجلة «انفنتري چورنال» الأمريكية ناقشت هذه المقالات في العدد الخامس من المجلد الحادي عشر ص ١٧٤ ـ ١٧٥، وفي العدد السابع المجلد الحادي عشر (١٩٣٨) ص٩٨ ـ ١١٢، وكتب الكاتب العسكري الأمريكي المعروف الكولونيل أ. ك. فيليبس مقالًا بعنوان "Attack and Defense" فضل فيه الهجوم على الدفاع، ودافع بقوة عن رأيه هذا، كما أن مجلة:

=Command and Geueral Staff School Quarterly.

=ناقشتها في عرضها لدراسات الدوريات العسكرية الأجنبية، ونشرت التيمس اللندنية في عدد ٢٩ من أكتوير سنة ١٩٣٨ رسالة من السير فردريك موريس جاء فيها «وعلينا أن نرسل جيشًا إلى حليفتنا، ولن نكون أحرارًا في اختيار تكتيكاتنا».

(٢) أهم مؤلفاته:

Imperial Defense: a Problem in Four Dimensions (London, ١٩٣٨).

النيران المصحوبة بخفة حركة في مستوى عال أي في «الدبابة»، وقد رفض عقله النشط ـ الذي يتمشى مع اتجاهات مدرسة فوللر ـ مقترحات ليدل هارت عن الحرب السلبية وتجنب الهجوم.

وقال روبنسون: أن مقترحات ليدل هارت ليست عسكرية الطابع ولا بريطانية الصورة، وذكر ليدل هارت بأن الإمبراطورية لم تتكون بالطاقة والإمكانيات المحدودتين.

ومع هذا فإن روبنسون كنصير من أنصار الاستخدام الميكانيكي في أسلحة الجيش فإنه طالب بضرورة الاهتمام «بالنوع» على حساب «الكم»(١).

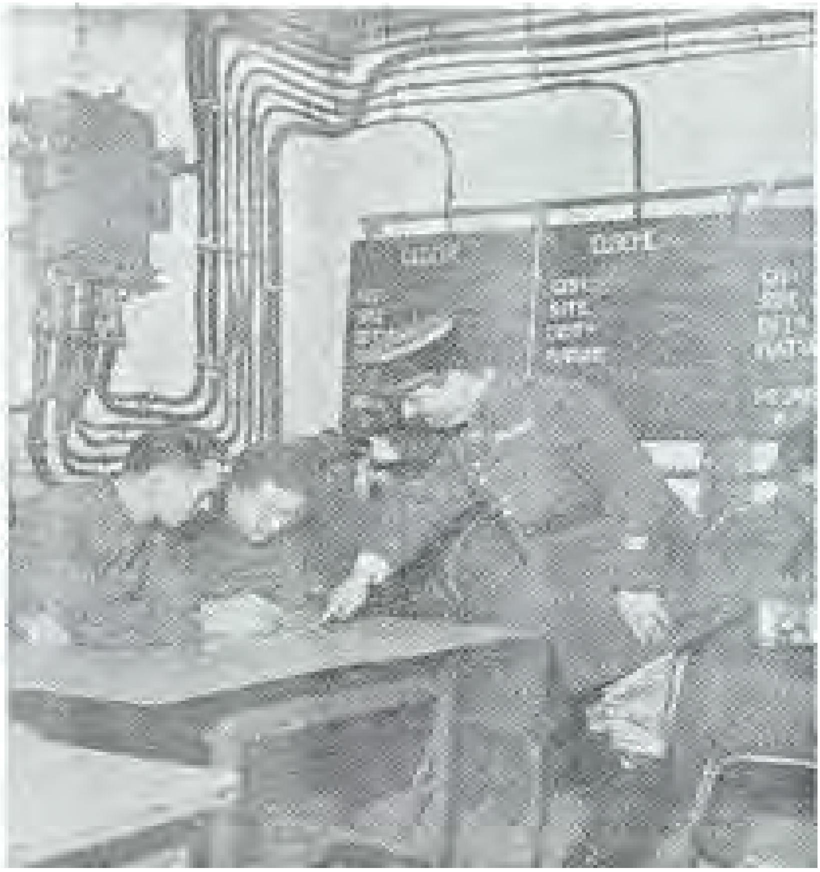
ونشرت «آرمي كوورترلي» أيضًا مقالاً من قلم الميجور شبرد(٢) V. W. Sheppard كانت الخاتمة التي انتهى إليها في مقاله بأن بريطانيا لا تستطيع القيام بحرب هجومية بسبب عدم كفاية مواردها:

«وفي الحقيقة أن الهجوم كان دائمًا ـ ثم هو على وجه التحقيق اليوم أكثر مما كان في أي وقت آخر ـ من الصعب تنفيذه بنجاح بثمن بخس ـ أي بخسائر قليلة ـ بل إنه لا يمكن تنفيذه إلا بالاستناد إلى بعض العوامل

(١) Defense or Attack, A. Q XXXV (١٩٣٨), ٢٧٧ – ٢٩١.

ويلاحظ أنه قبل قيام هذا النقاش الواسع النطاق بسبب مقالات جريدة التيمس، كان الميجور جنرال هـ. ل. بريتشارد Maj. Gen. H. L. Prechard فقد رفض في مقال بعنوان The New Army نشرته مجلة The Nineteenth Century and After العدد ١٢١ سنة ١٩٣٧ ص ٧٩٦ ـ ٨٠٤ نظرية القدرة المحدودة، مصرحًا بما صرح به الميجور جنرال السير فردريك موريس في التيمس أن حجم الحملة البريطانية التي يمكن أن ترسلها بريطانيا إلى فرنسا إنما يتقرر تبعًا لعوامل أخري غير العوامل البريطانية الخالصة من وجهة نظر بريطانيا وحدها.

(٢) "Defense and Attack" A. Q. XXXVI (١٩٣٨), ٣٨ – ٥٠.



غرفة للعمليات داخل حصون ماجينو

سنة ١٩٣٩

المحددة التي تجعل الأفضلية إلى جانب من يقوم بالهجوم، وتتغير طبيعة هذه العوامل ولا شك تبعًا للحال الخاصة ولكن إذا لم يتوافر أي عامل من عوامل التفضيل فإن من يخاطر بالقيام بالهجوم لابد وأن يكون مخبولاً مختل العقل ذلك لأن من يفعل هذا يعرض قواته للهزيمة ويعرض نفسه للمهانة»(١) .

على أنه ربما أقدر ناقد عسكري أنجبته بريطانيا هو V. W. Germains ف. چيرمنز الذي كتب عددًا كبيرًا من المقالات لمجلات مختلفة كثيرة،

(١) نفس المرجع ص٤١، هذا الحديث من أدق الصور التي عرضت بها عقيدة الدفاع، ولكن لماذا لم يقدر كتاب كثيرين أن هتلر قد تتوافر له كل الإمكانيات ليقوم بما يقوم به المخيول الأخرق مستخدمًا كآلة ووسيلة هذا الجيش الألماني الحديث الذي قد يحقق النجاح، وفي تعليق تحرير مجلة «أرمي كراترلي» في افتتاحية المجلة على هذا المقال تساءل عما إذا كان هذا الحديث واضحًا ومفهومًا وأنه بحث على قيام تدريب واسع النطاق للدفاع والهجوم، وفي نفس المجلد خرج الكولونيل هوم Hume من مقاله «الهجوم أو الدفاع» بنفس النتائج، وقد كتب الميـچور شيبرد في مجلة «يونيتد سيرفس» العدد ٨٤ (١٩٣٨) ص٢٩١ ـ ٢٩٨ رادًا على الكولونيل ر. هـ. بيدين Beaden أحد نقاد ليدل هارت العنيفين في نقدهم، وكان بيدين قد كتب في العدد ٣٨ (١٩٣٨) ص ٥٨ ـ ٨٥ «الهجوم أو الهزيمة» حاملًا حملة عنيفة على فكرة ليدل هارت عن «الطاقة المحدودة».

وكان بين الذين أسهموا في النقاش الكبتن هـ. م. كورتيس Curteis بمقاله:

(the doctrine of limited liability) العدد ٨٣ (١٩٣٨) RUSI ص٦٩٥ ـ ٧٠١، ومع أن كورتيس كان يرد على شيبرد إلا أنه عرض لخطأ العقيدة التي بشر بها هارت، وقد حذر كورتيس من أن ترك فرنسا وحدها ربما يكون له تبعات ونتائج خطيرة مدمرة، بل وربما يوجد موقفًا يمكن في سهولة ويسر أن تضيع البلاد الواطية نيتجة لهجوم فجائي: (حدث هذا فعلًا).

وفي مثل هذه الحال فإن جيشًا بريطانيا صغيرًا لن يستطيع إعادة فزو الأراضي الواطية تبعًا لأن «الدفاع قوي في كلا الجانبين»، وقد طالب باستراتيـچية مختلفة في ضوء ما جاء من مقترحات في المقال الذي فاز بالجائزة الذهبية.

وكتبها قبل أن يقوم هذا النقاش عن الهجوم والدفاع، ولربما يكون كتابه «ميكانيكية الحرب»[١] The Mechanizaton of War أفضل تعليق على الحرب العالمية الأولى وبخاصة على معارك الدبابات في «كامبري» و «إميان». وأوضح چيرمينز في كتابه أن يرى أن الألمان في جانب قيام حرب أوروبية تشترك فيها أوروبا كلها ويكون للإنجليز ستين فرقة مزودة بكل حديث يمكن أن تحتاج إليه حرب حديثة الطابع، وقد اختار چيرمينز حكمة قالها الـچنرال مالين كريج رئيس هيئة أركان الحرب لجيش الولايات أيام الحرب الأسبانية الأهلية من أن: «العامل الحاسم ما زال المشاة، والأسلحة الحديثة يمكن أن تساعد الرجل الذي يسير على قدميه ولكنها لا يمكن أن تحل مكانه ولا أن تقوم مقامه»، وقد قال چيرمينز: إن هذا هو لب المشكلة[٢] .

وكان ف. و. چيرمينز الكاتب العسكري الوحيد الذي رأى الموقف بنظرة مليئة بالتنبؤ: فلأكثر من حقبة من السنين درب الشعب البريطاني على أن يؤمن بكل وسيلة مستطاعة لكسب الحرب عدا طريقة خوض المعارك وتحطيم العدو»[٣] .

---

(١) London, ١٩٣٧.

(٢) كان المقال الرئيسي الذي أسهم به في المناقشة «الهجوم ـ الدفاع» هو:

"The Quart Measures and The Pint Pot" National Review CX (١٩٣٨) ٤٥٣- ٤٦٥. ومقال له بنفس المجلة العدد ١١٢ لسنة ١٩٣٩ ص٧٥٩ ـ ٧٦٧: "The Army in War" هاجم فوللر وجروڤز وليدل هارت على أساس أنهم ضللوا الجيل الجديد الصغير السن من ضباط الجيش بالأحاديث عن موضوعات مثل «الطريقة التقليدية البريطانية» و «زيادة القوة التي تقدمها الأسلحة الحديثة للدفاع» وما إليها.

(٣) (Military Lessons of The War) Contemporary Review CLVIII (١٩٤٩) ١٤٠ – ١٥٥.

ولم يتوقف چيرمينز قط عن المطالبة بالتجنيد وبتشكيل جيش كبير العدد، وقد عضده السير إدورد كريج في البرلمان (مجلس العموم)، ولكن جهودهما بقيت دون أن تحقق نجاحًا مثل ما حققه الشيخ بينازيت Bènazet في فرنسا.

وقد اعتبر چيرمينز الجيش أقوى سلاح للضرب بين الأسلحة الثلاثة، واعتبر السلاح الجوي بأنه أعين وآذان وأعصاب الجيش، ولكن الحكومة بدلاً من أن تعمل لتجنيد الأفراد لجيش كبير فإنها قد نظرت للجيش على أنه «سندريلا» الخادم المسكينة الفقيرة للقوات المسلحة، أي في نفس الصورة التي عومل بها الأسطول في فرنسا(١) .

* * *

وكان ليدل هارت هو المتحدث الحقيقي عن الفكر البريطاني، فهو لم يهجر نظريات فوللر وبقي يدافع عن الدبابة، ولكنه مع هذا كان يرى بأن لا يرسل بالفرقة المدرعة الجديدة إلى فرنسا بل يحتفظ بها كاحتياطي استراتيـچـي في اليد مبقياً عينًا رقيبة على البلاد الواطية وعلى الشرق الأدنى.

ولكن بعد «ميونيخ» ـ عندما زادت الاحتمالات بإمكان قيام حرب أخرى أكثر مما كان هذا محتملاً في أي وقت آخر ـ عدل ليدل هارت من النظرية التي عرضها في مقالاته بجريدة التيمس في أكتوبر سنة ١٩٣٧، وصرح بأنه ـ فيما عدا إرسال بعض الوحدات الفنية ـ فلا ينبغي إرسال حملة إنجليزية إلى فرنسا، ذلك لأنه مهما كان الجيش البريطاني الذي يرسل إلى

---

(١) "Some Problems of Imperial Strategy" National Review CX (١٩٣٨) ٧٣٨ – ٧٤٩.

فرنسا صغيرًا فسيستخدم في الجبهة للهجوم، ومن ثم فسيواجه هزيمة منكرة بسبب القوة التي للدفاع، وهكذا سترسل وحدات جديدة لفرنسا وسيحاول القادة المرة بعد الأخرى القيام بالهجوم، حتى يكون لبريطانيا في فرنسا جيش من مليون جندي مع خسائر بنفس العدد؛ ولكن للرغبة في رفع معنويات الفرنسيين يمكن ـ على الأكثر ـ أن ترسل بريطانيا إلى فرنسا ثلاث فرق مدرعة على شريطة ألا تستخدم في معركة هجومية[(١)]، بل يحتفظ بهذه الفرق كاحتياطي استراتيـجـي وتستخدم فقط في الهجوم المضاد، وبالتعاون التام مع السلاح الجوي.

وكان رأيه أنه لو قامت الحرب في قارة أوروبا فستجيء فجأة كما يجيء البرق الخاطف، ويقول بأن لدى الألمان ثلاث فرق مدرعة فضلاً عن فرقتين تمران بمرحلة التنظيم وقد يستطيع الألمان اختراق خط ماچينو (!!) ولكن تشكيلات الدفاع الخفيفة الحركة تستطيع في سهولة تحطيم رأس الحربة وسد الثغرة.

على أن وجهات النظر التي قامت على أساس الحرب الأسبانية وبخاصة معركة «جواد الـچارا» قد ذكرت أحد أنصار ديجول بالقوة وبالتكتيكات التي أشار إليها في مذكرته التي اشتهر بها[(٢)] .

والواقع أنه لو كانت مثل هذه الفرق مع القوة الجوية الكافية قد استخدمت لكان من الممكن إرباك التخطيط الألماني للعمليات، ولربما كانت هذه القوات قد استطاعت التدخل بنتائج حاسمة في أيام مايو سنة ١٩٤٠، ولكن ـ كما قال ليدل هارت نفسه ـ كان لدي الإنجليز فرقة واحدة

---

(١) "The Defense of The Empire" Fortnightly Review new Series, CXLIII (١٩٣٨). ٢٠ – ٣١.

(٢) Natioual Review, CXV (London, ١٩٤٠) ٣٩٣ – ٤٠٥.

مدرعة وهذه أضاعها الفرنسيون في السوم(١) .

ولكن ماذا كان سبب كل هذا الإهمال؟

لقد كتب ليدل هارت بعد نكبة سنة ١٩٤٠ كتيبًا قال فيه:

«بعد أن تولى مستر هوربليشا وزارة الحرب حُذِّر الموظفون الذين يمكن أن يتصلوا به في العمل أنهم يجب ألا يقترحوا إمكان القيام بأي تنظيم أساسي للجيش أو إمكان زيادة القوات الميكانيكية»(٢) .

وقد رفضت مجلة «آرمي كورترلي» A. Q في عرضها لكتاب Dynamic Defence هذا الدفاع عن النفس، وألقت باللوم كله على ليدل هارت الذي كان يعمل مع هوربليشا(٣)، ومن جهة أخرى فإن چيرمينز الذي لم يكن يمكن أن يقول كلمة طيبة واحدة عن هوربليشا(*) أو عن ليدل هارت، قال

(١) B. H. Liddell Hart, Dynamic Defence (London, ١٩٤٠), PP. ٣٠ – ٤٣٥.

(٢) نفس المرجع ص٢٦، ويضيف أن ألمع تكتيكي في الحرب الميكانيكية الـچنرال هوبرت قد أرسل إلى مصر بعد مونيخ لإبعاده، ويبدو أن هوربليشا كان يحاول التغلب على «حائط الصين» الحائط الذي كان أقوي منه، وفي كتاب آخر The Curent of War الذي صدر بلندن سنة ١٩٤١ يوضح ليدل هارت الموقف في فصل وسمه بعنوان «هوربليشا» ويحمل هذا كله بقوله في ص١٤٧ «أن جذور أخطائه كانت في أنه حاول القيام بإحداث تعديلات في هيئة تعارض بالغريزة إجراء أي تعديل».

(٣) A. Q., XLI (١٩٤١), ٣٨٠.

(*) ظهرت أول طبعة لقصة هوربليشا وما يقال له «اصلاحاته» في الجيش، وكيف كانت هذه الاصلاحات عامل انقاذ بريطانيا في الحرب العالمية الثانية ثم كيف أن إرغامه على الاستقالة سنة ١٩٤٠ من مركزه كوزير للحرب قد هز كل بريطانيا، ثم إيضاح ما لم يكشف قبل اليوم من الأسرار التي أحاطت به كله في كتاب حديث من مجموعة "Doudlebay" بعنوان: "The Private Papers of Hore- Belisha".

من تحرير وتعقيب ر. چ. ميني "R. J. Minney".

نيويورك تايمس بوك ريـڤيو عدد ١٥ / ١ / ١٩٦١ «المترجم».

أثناء أزمة ميونيخ: «إن الطبيعة الحقيقية للعقلية التي تتولى الأمر في وزارة الحرب في هذه السنة لهي عقلية الأوزة المتعلمة[١] (الأوزة العسكري المتعلمة).

ويبدو أن ليدل هارت لم يكن ليستطيع الفكاك من الاضطراب في التفكير، تبعًا للحوادث السريعة التي صحبت الحرب العالمية الثانية في مرحلتها الأولى، ففي التاسع من سبتمبر ـ بعد أن أثبتت التحركات البرقية التي استخدمتها النازية في الحرب ضد بولندة كفاية الهجوم وميزته ـ كتب ليدل هارت استجابة لطلب أحد كبار موظفي الحكومة مذكرة[٢] .

كان ليدل هارت ما زال يطيل الحديث عن القوة الأكبر التي للدفاع حتى مل سامعوه، بالرغم من أنه قدم جديدًا في الموضوع بقوله: إن الدفاع أفضل من الهجوم وله الأولوية والأفضلية «عندما لا توجد المنطقة التي تمكن من المناورة»، وتابع ليدل هارت تشبثه بهذه العقيدة إلى حد اقتراحه أن تقوم الحكومة بإصدار بيان يخفف مما يوجه إليها من لوم بسبب جمود حركة

---

(٤) "To Be or Not To Be" National Review.

العدد ١١١ لسنة ١٩٣٨ ص ٣٤٩، وفي مقال آخر يشير إلى موقف هوربليشا من خطبة الـڤيلد ماريشال السير سيريل دوڤريل في ٢٤ من أكتوبر سنة ١٩٣٧ بجيلد هول التي دافع فيها عن فكرة الجيش الكبير العدد والتي بسببها طرد رئيس هيئة أركان الحرب للامبراطورية بأمر وزير الحربية:

"The Army in War" National Review CXII (١٩٣٩) ٧٥٩ - ٧٦٧.

أما أهم الاتهامات الأخري التي ساقها چرمينز: أنه كان هناك شك كبير في العقيدة العسكرية، وقال في مقال نشرته مجلة London Times «أن البلاد ترحب بأي دفاعي قومي مهما كان كبير النفقات متي أقتنعت بالحاجة الملحة له».

"To Be or Not to Be" Loc. Cit., P. ٣٥٠.

(٢) جاءت هذه المذكرة في كتابه "The Current of War" مع بعض المقالات الطلية التي كتبها هو.

جيوش حلفائها، وقد قال ليدل هارت أيضًا بأن حشد كل الجهود على الأسلحة المعنوية والاقتصادية قد يسبب انهيار الجبهة الداخلية للعدو، وبذلك فإن بريطانيا تحشد قواتها وجهودها ضد أضعف أجناب العدو دون أن تعرض أجنابها هي، هذه الأجناب التي تتعرض لو قامت بريطانيا بالهجوم.

وكان من الضروري أن يكون لهذه الروح ولمثل هذا الإيمان بالدفاع التأثير الضار بكل توجيه للحرب، ومما لا شك فيه أنه كبد بريطانيا العرق والدم والدموع.

ولكن سياسة ليدل هارت لم تتبع إلى أبعد من هذا الحد، ففي فجر الحرب ظهرت في فرنسا قوة إنجليزية صغيرة بقيت كاحتياطي استراتيـچـي إلى الوراء من خط ماچينو، كما اقترح ليدل هارت في مقالاته عن «الهجوم والدفاع» بجريدة التيمس اللندنية، وعندما بدأ الاندفاع الألماني الكبير في العاشر من مايو سنة ١٩٤٠ أسرع الجيش الإنجليزي ليمنع مرور الألمان عن طريق «فتحة لييـچ» دون أن يعنى بغابة الأردن حيث أعد الألمان فعلاً العدة للاختراق عند سيدان، وكانت وجهة نظر ليدل هارت نفسه أن وعورة أرض الأردن وكثافة الغابات هي التي ستجعل المنطقة غير صالحة لعمليات واسعة المدى[١]، وكان هذا أيضًا وجهة نظر الفرنسيين بل ووجهة نظر البلـچيكيين كذلك.

وكان الجيش البريطاني يفتقر إلى العتاد الصحيح المناسب، ولم يكن هناك اتفاق موحد على العقيدة العسكرية، ولكن هذا لم يكن الخطأ الرئيسي

(١) "The Defense of Britain" London ١٩٣٩, p. ٣٨١.
والفصل كله عن «أساليب الدفاع».

الوحيد، كان الطريق إلى دنكرك قد مهدت منه «عقيدة القدرة المحدودة» التي تستند إلى الحرب الدفاعية الطابع التي انتقدها بلا رحمة الكثيرون في بريطانيا أثناء المناقشات الطويلة التي دارت حول «الدفاع والهجوم» ولكن ليس من العدالة أن يوجه كل اللوم إلى ليدل هارت وحده تبعًا لأنه لم يكن هو «المؤلف» لهذه العقيدة، وكان كل دوره فيها أنه هو الذي أجملها وعرضها، ولكن لما كان هو أبرز الكتاب العسكريين الذين دعوا لها فقد لحقت باسمه؛ أن عقيدة الدفاع كانت حصيلة ونتاج عدد من الأسباب المعقدة وقد تقبلتها الدوائر المسئولة في بريطانيا وفرنسا.

«... ولو فرضنا بأن الحكومة الحالية قد قررت أنه في حالة اشتراكنا بنصيب ما في حرب عامة أخرى فنحن لن نرسل حملة بريطانية إلى قارة أوروبا ولا إلى أي مكان آخر، بل سنعود ـ على ما يبدو ـ إلى سياستنا في الماضي: سياسة معاونة حلفائها بوساطة القوة البحرية والسلاح الجوي»[(١)].

(١) افتتاحية A. Q., XXXLV (١٩٣٧),٣ لتفسير خطبة السير توماس انسكيب وزير الحرب عن مناقشة القرض العسكري والتي اشترك فيه بلدوين رئيس الوزراء أيضًا، وقد هاجمت الافتتاحية هذه السياسة، ولكن مع هذا فقد بقيت حكومة تشيمبرلين تتبع نفس السياسة مع بعض التعديل حتى سقوط فرنسا.

أما في فرنسا فإن مجلة Revue Militaire Générale وهي مجلة تعتبر لسانًا شبه رسمي للجيش الفرنسي في عرضها للنقاش حول «الدفاع والهجوم» والذي دار بين ليدل هارت في جانب وتين روان وروبنسون في جانب آخر، فإنها وقفت إلى جانب ليدل هارت في وجهة نظره الانعزالية وهاجمت آرمي كوورترلي .A.Q بسبب مهاجمتها العنيفة لليدل هارت، راجع:

Revue Militaire Générale, III (١٩٣٨), ٥٠١ - ٥٠٩

ويبدو أن مسيو بييركوت Pierre Cot وزير الطيران الفرنسي وقت الأزمة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ قد اقتنع بنفس الفكرة على ما يبدو من كتابه.

=L'armée de l'air ١٩٣٦ - ١٩٣٨ (Paris, ١٩٣٩), ١٠٦ - ١٠٨.

وإجمالاً، فمن الواضح أن عقيدة الدفاع للديمقراطيين الغربيتين الكبيرتين في أوروبا لم تكن حصيلة تفكير عدد قليل من السياسيين المتحفظين ولا من الأخصائيين الضيقي التفكير، بل كانت نتيجة اتجاه الفكر القومي، نتيجة ازدياد التحضر والمدنية وتجسيم الحضارة للرعب والخوف من الحرب.

وسببت تعاليم الديمقراطية ازدياد الميل إلى المسالمة وتردد الفرنسيون والإنجليز في تقبل مبدأ الاحتكام إلى الحرب لإنهاء النزاع الدولي، هذا فضلاً عن أن النصر الكبير الذي حققه الحلفاء في نهاية الحرب العالمية الأولى ونتج عنه استسلام ألمانيا بلا قيد ولا شرط، قد خلف هذا وراءه اعتزازًا بالنفس وميلاً للزهو عن حق، كما ترك إيمانًا لا يهتز في قيمة العامل الدفاعي وأهميته، فلسنوات أربع قدمت الحرب العالمية الأولى الدليل إثر الدليل لإثبات كيف أن «الدفاع» عامل لا يقهر، فلما انتهت الحرب ـ وتوافرت الأساليب المستحدثة والمواد الكثيرة الحديثة ـ أمسى من المعتقد أن الدفاع سيكون أكبر أثرًا وأكثر تأثيرًا، فوراء خط ماچينو ستحتشد الموارد التي لا تنضب لأقوى إمبراطوريتين استعماريتين شهدهما العالم، ولهذا فلا يثير الدهشة أن الناس في بريطانيا وفرنسا قد نظروا إلى المستقبل نظرة اطمئنان وثقة.

وقد أوجد الانتصار اعتقادًا نفسياً بعدم إمكان قهر القوات المسلحة، وتحول هذا الاعتقاد إلى إيمان صلب جامد لا وسيلة لتغييره والتقليل منه، وكانت مكانة الجيش حائلاً دون إطلاق حرية المناقشة، وفي نفس الوقت

=إذ يقول بأن ما لقيه السلاح الجوي في فرنسا من تقدير وإعجاب قد يدمر الأسس الرئيسية للحلف البريطاني ـ الفرنسي، فإن بريطانيا على ما يقول هو ـ لا تستطيع أن ترسل إلى فرنسا عدا بعض فرق قليلة.

فإن عزوف الرأي العام العالمي عن تقبل المقامرة بمواجهة عملية ذبح في حشد كبير كما حدث في الحرب العالمية الأولى أوجد عزوفًا مماثلاً حتى عن مجرد مناقشة الآراء الخاصة بالهجوم.

وفي نفس الوقت مكنت المتاعب المالية وعدم التوازن (الاضطراب) الاجتماعي، والنظرات الميالة للمسالمة من أن توجد كلها معًا جوًّا يمكن فيه لعدد قليل من الأخصائيين أن يقوموا بمناقشات نظرية، ولكن حتى لو كان هؤلاء الأخصائيون قد رأوا إحداث أي تغيير لما استطاعوا تنفيذه فإن النظام الديمقراطي يقوم على أساس رغبة الجماهير، والجماهير عادة بطيئة التغيير لاتجاهاتها فيما يتطلب الحركة من جانبها، وهنا يكمن ضعف الديمقراطية عندما تواجه عدوًّا ماكرًا يكون قد أجمع أمره على شيء؛ ولم تفلح فصاحة ديموستينس لإثارة أهل أثينا وبعث الحماسة الضرورية لإنقاذ حريات اليونان القديمة من تخطيط فيليب الثاني المقدوني، ومن ثم فقد ترنحت بلاد الإغريق القديمة في جنوب شبه الجزيرة ـ كما ترنحت فرنسا الحديثة ـ تحت وقع أقدام الغزاة الفاتحين.

ومن جهة أخرى فإنه حتى لو حدث هذا الانتقال في الوقت المناسب فإن حركة الجماهير في الأمة الديمقراطية ـ التي تجيء بها الرغبة للنصر ـ لها مواردها الأعمق والأكثر بسبب النشاط المعنوي الناشئ عن العرف والعادة، لا عن الجبر والإكراه.

وقد أجمل ونستون تشرشل هذا كله في فصاحة وبلاغة عندما تحدث عن الحرب يوم ١٢ من أكتوبر سنة ١٩٤٢:

«... على أن الإيضاح ليس صعبًا، فعندما يتحرر من القلق أناس

مسالمون مثل الإنجليز والأمريكان ـ الذين يهملون وقت السلم في إعداد وسائل الدفاع عن أنفسهم، والذين لم يعرفوا الهزيمة قط من قبل في تاريخهم ـ عندما يهب مثل هؤلاء الناس من إهمالهم ليواجهوا متآمرين مسلحين قضوا السنوات الطوال يخططون في سرية تامة لمؤامراتهم، معتبرين الحرب أعلى صور الجهد البشري، ممجدين الذبح والاعتداء متأهبين متدربين إلى غاية ما يمكن العلم من هذا، عندما يحدث هذا فمن الطبيعي أن يقاسي المسالمون الأمرين، وأن يحتملوا من الخسائر والضحايا ما لا حصر له، ويكون في استطاعة الأشرار الذين يدبرون الاعتداء أن يهللوا للسرور الوحشي الذي ينتابهم».

«ولكن ليس هذا نهاية القصة، بل إن هذا هو الفصل الأول منها، فإذا ما استطاعت الأمم المسالمة أن تعيش وأن تحتمل البقاء لسنوات قليلة برغم هجوم المعتدي الآثم، وجب أن يكتب فصل جديد، هذا الفصل هو الذي سيجيء في الوقت المناسب، وسيكون دائمًا من فخر هذه الجزر وهذه الإمبراطورية أنها وقفت وحدها لما يقرب من عام كامل، وبذلك مكنت من أن يتوافر الوقت للجماعة التي تدافع عن القضية العادلة لتتسلح وأن تنظم ببطء.. القوات المتحدة لتسقط على المجرمين وتأخذ بخناقهم»[(١)] .

هنا تكمن قوة الديمقراطية التي قد تخسر معارك كثيرة ولكنها تنتصر في النهاية، لقد قيل دائمًا إن جمهورية روما غزت العالم ضد رغبتها الخاصة.

ذلك لأنها هي التي قامت بالهجوم لم تلبث أن خدعت وفوجئت وهزمت بوساطة قادة عسكريين دربين دهاة، لقد شهدنا في هذه الحرب

---

(١) عدد النيويورك تايمس بتاريخ ١٢ من أكتوبر سنة ١٩٤٢ .

«الفينيقية» الحديثة(*) معركة كانِّي ولكن معركة زاما(**) لابد أن تجيء.

(*) في الأصل Punic والأصح Phoenician وتعني الكلمة قرطاچنة أو شعبها، والحروب الفينيقية بين روما وقرطاچة ثلاث حروب: (٢٦٤ ـ ٢٤١) ق. م. ـ (٢١٨ ـ ٢٠١) ق. م. ـ (١٤٩ ـ ١٤٦) ق. م. وفي الحرب الأخيرة انتصرت روما.
معجم ويبستر ص١١٨٠ «المترجم».

(**) زاما مدينة قديمة كانت مسرحًا لمعركة سنة ٢٠٢ ق. م. بين قرطاچنة وروما. معجم ويبستر ص١٦٩٧ .

حديث المراجع

الفصل الخامس عشر

ماجينو وليدل هارت

عقيدة الدفاع

بقلم إيرفنج جيبسون

من الموارد الهامة لدراسة تاريخ النقاش حول التنظيم العسكري الفرنسي في السنوات التي سبقت الحرب كتابا:

Projet de loi... sur le recrutement de l'armée présénte

Par M. Maginot, ministère de la guerre (Paris, ١٩٢٣)

Paul-Bernier, (ed.), Rapport fait au nom de la Commission de l'armée chargée d'examiner le project

de loi relatif au recrutement de l'armée (Paris, ١٩٢٧).

ومن سوء الجد أن أن سجلات محاكمات ريوم التي نوقشت فيها المسألة كلها لم يتيسر الحصول عليها بعد، وإن كانت إجراءات المحاكمة قد نشرت بجريدة نيوريورك تايمس الأعداد من ١٩ من فبراير إلى ٣ من إبريل سنة ١٩٤٢ .

والكتب التي عرضت للحديث عن الجيش الفرنسي قبل الحرب العالمية الثانية كثيرة ومتضادة متباينة، ومن أهم الثقات في فترة ما قبل الحرب الـچنرال ديبني Debeny رئيس هيئة أركان حرب الجيش الفرنسي

وله كتابان:

Sur la sécurité militaire de la France (Paris, ١٩٣٠).

La guerre et les hommes, reflexions d'après guerre (Paris, ١٩٣٧).

كما يوجد كتاب جيد مليء بالمعلومات الدقيقة:

P. Bénazet, Defense nationale, notré sécurité (Paris, ١٩٣٨).

وكان المؤلف في تاريخ قديم يرجع إلى سنة ١٩١٣ رئيسًا للجنة العسكرية في مجلس النواب، ثم تولى نفس العمل في مجلس الشيوخ فيما بعد، كما توجد بعض مؤلفات قيمة منها:

Général H. Mordacq, Les Leçons de ١٩١٩ et la prochaine guerre (Paris, ١٩٣٤).

L,Souchon, Feue l'armée française (Paris, ١٩٣٩).

والكتاب الثاني هجوم عنيف على هذه الجماعات التي تقف إلى جانب تخفيض مدة الخدمة العسكرية.

ويوجد كتاب قيم في الحديث عن نظام الميلشيا:

Lieutnant Colonel E. Mayer, La guerre d'hier et l'armée demain (Paris, ١٩٢١).

ويعتبر كتاب "L'armée moderne" بقلم "Général Maurin" الذي نشر بباريس سنة ١٩٣٨ نقاشًا فنياً بوساطة رجل من أعلام مدرسة الدفاع، كما يعتبر كتاب (Le probléme militaire Française) من قلم P. Reynaud دليلاً

على أن رينو كان هو العضد البرلماني للدفاع عن آراء ديجول العسكرية، ولربما يكون أكثر الكتب الخاصة بفن القتال تداولاً بين القراء قبل سنة ١٩٤٠ والذي قيل في محاكمات ريوم أنه كان واحدًا من عوامل سقوط فرنسا، كتاب:

Général L. Chauvineau, Une invasion, est- elle encore possible? (Paris, ١٩٣٩).

ويمكن معرفة الكثير عن إنشاء خط ماچينو بالرجوع إلى كتاب:

P. Belperron, Maginot of the Line (London, ١٩٤٠).

ونجد عن دراسة حياة ديجول وعن جهوده في تطور واستحداث الجيش الفرنسي كتابًا قيمًا ودراسة وافية، أما الكتاب فهو:

Ph. Barrés, Charles De Gaulle (New York, ١٩٤١).

وأما المقال:

H. A. Deweerd, "De Gaulle as a Soldier", Yale Review, XXXII (١٩٤٣), no. ٤, pp. ٧٦٠ - ٧٧٦.

وفي نفس الوقت فإن كتاب:

"Pertinax" (A. Géraud), Les Fossoyeurs, ٢ vols. (New Youk, ١٩٤١).

دراسة قيمة للشخصيات الفرنسية ودورها في المناقشات الخاصة بالجيش بخاصة وبالحياة السياسية في فرنسا بعامة، وقد حاول المؤلف أن يحدد مسئولية جاملان، رينو، ديلادييه، وبيتان في ضعف فرنسا سنة ١٩٤٠.

ويمكن الرجوع لتقدير دور بيتان وحده إلى البحث التالي:

J.M. Bourget, "La légende de Maréchal Petain, Revue de Paris (January ١, ١٩٣١), pp. ٥٧- ٧٠.

أما القاعدة السياسية لمشكلة الجيش فقد نوقشت تفصيلياً بإفاضة في كتاب:

H. Pol, Suicide of a Democracy (New Youk, ١٩٤٠).

وقد يكون من الضروري أن نذكر هنا دراستين خاصتين بالتنظيم العسكري الفرنسي.

J. Monteilhet, Les institutions militaires de la France (Paris, ١٩٣٤).

S.C Daveis, The French War Machine (London, ١٩٢٧).

والدراسة الأولى تعرض للجيش الفرنسي منذ عصر الانتعاش والتجديد.

وبين المؤلفات العسكرية الفرنسية كتابان يدلان على تفهم الفرنسيين للاستعدادات الإيطالية والألمانية وهما:

A. Vauthier, La doctrine de guerre de Général Douhet (Paris, ١٩٣٥).

Général Nollet, Une expérience de désérmement; cinq ans de contrôle militaire en Allemagne (Paris, ١٩٣٢).

على أن الذين يعنون بدراسة المسائل العسكرية الفرنسية في تلك

الفترة من السنين يجب أن يرجعوا إلى اثنين من الدوريات العسكرية الهامة لما احتوتا عليه من دراسات في هذه الموضوعات وهما:

Revue Militaire Générale. Revue des Deux mondes.

أما الموردان الرسميان الأساسيان لتفهم التشريعات العسكرية البريطانية في تلك الفترة فهما:

Hansard's Parliamentary Debates... &

Great Britain, Parliament, Accounts and Papers.

وكان الميـچور چنرال ج. فوللر في مقدمة النقاد العسكريين في تلك الحقبة من السنين، وقد نشر فوللر أكثر من مائة كتاب، على أن أهم مؤلفاته:

The Reformation of War (London, ١٩٢٣).

The Foundations of the science of war (London, ١٩٢٦).

Lectures on Field Service Regulations III: operations
Between Mechanized McForces (London, ١٩٣٢).

The Army in My Time (London, ١٩٣٥).

Memoirs of an Unconventional Soldier (London, ١٩٣٦).

ويقدم الكتابان الأولان الدعامة الثقافية لما قيل له «مدرسة فوللر» أو «المدرسة الآلية»، وكانت محاضراته عن كتاب قانون خدمة الميدان الجزء الثالث أهم ما أسهم به فنياً في الدراسات العسكرية، كما أن كتاب:

Général H. Rowan- Robinson, Imperial Defense: A
Prolem of Four Dimensions (London, ١٩٣٨).

يعتبر كتابًا قيمًا لعضو لماع من مدرسة فوللر وذلك بسبب مناقشة المعنى بها للمشكلات الجوية والبحرية.

وأهم مؤلفات ليدل هارت الكثيرة:

The Remaking of Modern Armies (London, ١٩٢٧).

"Grave Deficiencies of the Army" English Review

LVI (February, ١٩٣٣).

The defense of Britain (London, ١٩٣٩).

Dynamic Defense (London, ١٩٤١).

The Current of War (London, ١٩٤١).

وكان ليدل هارت المؤلف لنظرية «التحديد المحتمل» للحرب هو المتحدث الرسمي باسم وزارة الحرب قبل سنة ١٩٣٩:

ويعتبر كتاب:

V.W. Germains, the Mechanization of War (London ١٩٢٧).

أعظم نقد لمدرسة فوللر.

ويعرض كتاب: «The People's Army» من قلم L. Clive الصادر بلندن سنة ١٩٣٨ وجهات نظر حزب العمال عن الجدل الذي دار حول الجيش، كما توجد عدة مؤلفات مليئة بنقد لاذع وهجمات غير معتدلة ضد القيادة العليا وكبار الضباط في وزارة الحرب وفي الأميرالية أهمها:

P. R. C. Groves, Behind the Somke Screen (London, ١٩٣٤).

J. R. Kennedy, Modern War and Defense Reconstruction

(London, ١٩٣٦).

Lord G. N. Strabolgi, New Wars and Weapons (London, ١٩٣٠).

ويوجد كتابان قصيران كتبا بلهجة معتدلة في نفس الموضوع هما:

Major E. W. Sheppard. A Short History of the British Army (London, ١٩٤٠).

Major. E. W. Shepperd, Tanks in the Next War (London, ١٩٣٨).

وقد عولجت المسائل الخاصة بالقونين البحرية والجوية علاجًا قريبًا منسقًا في كتابي:

G. C. Slessor, Air power and Armies (London, ١٦٣٦).

B. Acworth, Britain in Danger (London, ١٩٣٧).

ويمكن أن نجد دراسات ذات قيمة خاصة في المجلة ربع السنوية، (Royal United Service Institution) وهي مجلة هامة شبه رسمية وكذلك في "Army Quarterly"

وهي واحدة من أهم الدوريات في هذا النوع من الصحف التي تصدر باللغة الإنجليزية.

أما من الناحية العامة فيرجع إلى:

A. Wolfers, Britain and France Between Two Wars (New York, ١٩٤٠).

R. A. Chaput, Disarmament in British Foreign Policy (London, ١٩٣٥).

J. K. Kennedy, Why England Slept (New York, ١٩٤٠).

والكتابان الأخيران يقدمان تفهمًا عميقًا لعدم استعداد بريطانيا في تلك الفترة من السنين، ويجب أن يرجع أولئك الذين يدرسون الشئون العسكرية لبريطانيا وفرنسا إلى المجلة الربع سنوية.

Command and General Staff School Quartely

وهي مجلة رسمية تصدرها مدرسة أركان الحرب للجيش الأمريكي في ليڤنثورث من أعمال كانساس.